المركز القومى للترجمة

هـ. ج. ويلز

بشر كالأرباب

ترجمة وتقديم: رءوف وصفى

1552

سلسلة الإبداع القصصى

المشروع القومى للترجمة

بشر كالأرباب

(رواية)

المركز القومي للترجمة
إشراف: جابر عصفور

سلسلة الإبداع القصصي
المشرف على السلسلة : خيرى دومة

- العدد: 1552
- بشر كالأرباب
- هـ . ج . ويلز
- رؤوف وصفى
- الطبعة الأولى 2010

هذه ترجمة رواية:

Men Like Gods

By H . G Wellis

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمركز القومى للترجمة

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت: ٢٧٣٥٢٣٩٦ فاكس: ٢٧٣٥٨٠٨٤

El Gabalaya St. Opera House، El Gezira، Cairo

E-mail: egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524 - 27354526 Fax: 27354554

بشر كالأرباب

(رواية)

تأليف: هـ . ج ويلز

ترجمة وتقديم: رءوف وصفي

2010

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

ويلز ؛ هـ . ج
بشر كالأرباب/ تأليف : هـ . ج ويلز، ترجمة وتقديم: رءوف وصفى
ط ١ - القاهرة : المركز القومى للترجمة ، ٢٠١٠
٤٤٠ ص ، ٢٤ سم
١ - القصص الإنجليزية
(أ) وصفى ، رءوف (مترجم ومقدم)
(ب) العنوان ٨٢٣

رقم الإيداع ٣٠٢٣ / ٢٠١٠
الترقيم الدولى: I.S.B.N 978 - 977- 479 - 858- 5
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى وتعريفه بها، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافاتهم، ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز.

المحتويات

المقدمة 7

بشر كالأرباب 17

- الفصل الأول: السيد (بارنستابل) يقوم بإجازة 19

- الفصل الثاني: الطريق المدهش 39

- الفصل الثالث: أناس رائعون 51

- الفصل الرابع: شبح أينشتين يسقط على القصة، ولكن كضيف خفيف عليها 73

- الفصل الخامس: حكم وتاريخ الكوكب اليوتوبى 87

- الفصل السادس: بعض انتقادات أرضية 123

- الفصل السابع: إحضار مجموعة اللورد (بارالونجا). 169

المقر الصخرى للحجر الصحى 197

- الفصل الأول: الوباء 199

- الفصل الثانى: قلعة فوق قمة الصخرة 219

- الفصل الثالث: السيد (بارنستابل) يخون الجنس البشرى. 261

- الفصل الرابع: نهاية المقر الصخرى للحجر الصحى 305

فلسفة جديدة فى اليوتوبيا 323
- الفصل الأول: التلال الساكنة بجانب النهر 325
- الفصل الثانى: متسكع فى عالم مفعم بالحياة 341
- الفصل الثالث: الخدمة التى يمكن أن يقدمها الأرضيون 387
- الفصل الرابع: عودة الأرضىّ 407

مقدمة

ويلز.. واليوتوبيا.. واللايوتوبيا

يعد هـــ.ج. ويلز (١٨٦٦ – ١٩٤٦) بشكل عام كاتباً يوتوبياً أى يفكر دائماً فى اليوتوبيا Utopia "المدينة الفاضلة". وقد أدت روايته "يوتوبيا عصرية" A Modern Utopia (١٩٠٥) – وهى وصف لعالم مثالى تحكمه صفوة خيّرة هى "الساموراى" Samurai، والتى تعتبر محاكاة واعية للأوصياء Guardians فى مصنف "الجمهورية" لأفلاطون – إلا أن كثيراً من النقاد اعتبروه كاتباً سطحياً، افترض بعفوية شديدة رشاد وعقلانية الإنسان. وقد ذكر الكاتب الشهير "جورج أورويل" فى مقالته "ويلز وهتلر ودولة العالم" (١٩٤١) وجهة نظر شائعة عندما قال ".. ويلز أعقل من أن يفهم العالم العصرى". كما يرى "برنارد برجونزى" فى كتابه "هـــ.ج.ويلز فى أوائل حياته الأدبية" رأياً يتسم ببعض الدقة، عندما قال: "الصورة المألوفة لويلز هى إلى حد كبير تلك التى لمخطط مثابر، لعالم مثالى فاضل".

إن التصور الشائع بأن ويلز كان مدافعاً عن عالم جامد بلا روح، ألحق ضرراً بالغاً بسمعته الأدبية، وعلاوة على ذلك، فإن الإصرار على أنه رائد إصلاحى ينادى بيوتوبيا جامدة علمية، يجعل ناقديه يميلون إلى تجميع كل كتاباته اليوتوبية، ووضعها فى كفة واحدة.

ولكن فى الحقيقة فإن كل المجتمعات البديلة الموصوفة فى مؤلفاته:

- يوتوبيا عصرية
- بشر كالأرباب Men like gods
- شكل الأشياء القادمة The shape of things to come

وكثير غيرها، تختلف عن بعضها بعضا اختلافا كبيرا. والمعروف أنها سلسلة من الكتابات التى أنجزت خلال سنوات عديدة وظروف متباينة، كما أن ناقديه مالوا إلى تجاهل أو الاستهانة بعنصر السخرية الكامن فيها.

وتستمر هذه الصورة على الرغم من حقيقة أن أكثر روايات ويلز، ذات طبيعة متشائمة للغاية. فأول رواية له "آلة الزمن" (1895)، تتحدى بشكل غير مباشر الرأى الشائع وقتئذ بأن النشوء والارتقاء، لابد أن يفضى إلى حدوث تطور. والواقع أن بعض النقاد وصفوا رواية "آلة الزمن" بأنها واحدة من أكثر الروايات الكئيبة المحزنة فى الأدب الحديث.

لقد نشر ويلز مبكرا – فى عام ١٨٩٩ – رواية "عندما يستيقظ النائم". When the sleeper wakes، وهى أول واحدة من سلسلة المدن الفاسدة "اللايوتوبيا" Dystopia (عكس المدن الفاضلة). حيث

تكون فيها الحياة بائسة وشقية من الحرمان والقهر). ويصف فيها ويلز مجتمعاً تنتظره الكثير من الأحداث - مثل تلك الواردة فى رواية ١٩٨٤ الكاتب "جورج أورويل" - وهذه الرواية عبارة عن وصف خيالى لمدينة لندن فى عام ٢١٠٠، حيث يتركز البشر فى مدن عملاقة محاطة بالزجاج، ويحكمها طغاة. وكل العمل اليدوى فيها يؤديه عمال يرتدون ملابس موحدة، وهم الأفراد الكادحون بالمنظمة العمالية، وتكمن أهمية هذه الرواية فى أنها تتضمن الكثير من الأفكار المدروسة الناضجة التى وردت فى روايات "عالم جديد شجاع" Brave New World (١٩٣٢) للكاتب "ألدوس هكسلى". و"نحن" We (١٩٢١) لزامياتن Zamyatin و"١٩٨٤" Nineteen Eighty Four (١٩٤٩)، لجورج أورويل.

فعلى سبيل المثال ثمة تأكيد فى رواية "عندما يستيقظ النائم"، على مدن سكنية ذات مساحات هائلة (بحيث لا يوجد منها فى بريطانيا سوى خمس مدن فقط!)، وعلى انتشار دعاية الكذب، ويوجد بالفعل تعبير "الأكاذيب التى نشرها فى العالم رواة الأخبار، بواسطة آلات هاتفية حلت محل الجرائد، وعلى التنظيم الصارم والتوحيد القياسى للحياة المشتركة، وعلى وجود أعداد هائلة من العمال، الذين لا حول لهم ولا قوة فى أيدى زعيم الدهماء ونقيب العمال. والعمال بعضهم تحركه الشهوات، وكلهم متقلبون لا يثبتون على حال".

كما أن ثمة تشابهات مثيرة بين أشكال الروايات الأربع: فكل منها تروى حكاية شخص يتمرد على النظام القائم ويبوء بالفشل، "جراهام" فى (عندما يستيقظ النائم)، "د- ٥٠٣" فى (نحن)، "الهمجى" فى (عالم جديد شجاع)، "ونستون سميث" فى (١٩٨٤). وقبل كل شيء؛ فإن الجو المتشابه السائد فى كل تلك الروايات، والذى يتسم بنظام صارم وتماثل جامد، يؤدى إلى حتمية استنتاج أن هذا العمل بعيد المدى لويلز، وكان بمثابة البذرة الأولى لكل الروايات اللاحقة له.

إطلالة.. على بشر كالآلهة

وهؤلاء النقاد الذين يؤكدون أن ويلز كان، أساساً، كاتباً يوتوبياً، يشيرون ليس فقط إلى "يوتوبيا عصرية"، ولكن أيضاً إلى "بشر كالأرباب"، وهى رواية رومانسية نشرها عام ١٩٢٣. وكان الجو الظاهر فيها هو المثالية البسيطة، إذ تصف الرواية زيارة غير متوقعة، يقوم بها مجموعة من الرجال والنساء إلى جنة يوتوبية.

وقارن النقاد بين هذه الروايات، وبين التصورات اليوتوبية الأخرى، ورفضوها باعتبارها أكثر قصص ويلز إغراقاً فى الخيال. وأن الذى غاب عن تفكير أكثر القراء، أن "بشر كالأرباب" "مجرد محاكاة أدبية ساخرة. تبدو لنا تلك الرواية عند القراءة الأولى لها،

أنها رومانسية يوتوبية - على غرار قصة "أخبار من لا مكان" News from nowhere لوليم موريس - ونجد أن بطلها الرئيسى "ألفريد برنستابل" محرر مجهد من كثرة العمل ويعيش فى "سيدنهام"، وفى أمس الحاجة إلى إجازة لكى يرتاح فيها ويستجم. ثم نراه يذهب بمفرده فى سيارته، قاصداً التوجه إلى منطقة "ديستريكت ليك"، إلا أنه يسلك طريقاً خاطئاً أثناء محاولته الهرب من الزحام المرورى بلندن، وسرعان ما يجد نفسه فى الطريق إلى "باث".

وفى الطريق ما بين "سلاو" و"ميدينهيد"، تنزلق سيارته ويفقد وعيه. وعندما يثوب إلى رشده، نجده محاطاً بمشاهد جميلة لا علاقة لها بالبيئة السابقة التى كان يعيش فيها. وكانت هذه المشاهد رائعة لدرجة أنه يدرك أنه لم يعد يعيش على الأرض التى يعرفها. إنه يعرف أنه فى اليوتوبيا، حيث يقضى بضعة أسابيع بها، متجولاً بين الناس والمؤسسات اليوتوبية، ومندهشاً من كل شىء يراه. وفى نهاية الرواية يعود "بارنستابل" إلى كوكب الأرض وإلى زوجته، ولكن باعتباره رجلاً عاقلاً شريفاً، ثم نراه يعود بفكره إلى الوراء، ويتوق إلى العالم المثالى (اليوتوبيا) الذى تركه وراءه.

ويميل معظم القراء إلى رفض هذه الرواية باعتبارها أكثر روايات ويلز مثالية وبعدا عن إمكانية التطبيق الفعلى فى الحياة، على أساس النظر إليها من خلال شكلها الظاهرى، كوصف لتجربة فعلية مر بها المؤلف.

والحقيقة أن ويلز ذكر دلائل ومؤشرات كثيرة، توضح تماماً أن الإقامة المؤقتة فى اليوتوبيا كانت "حلماً"، وليست "حادثة واقعية".

ولذلك، على القارئ أن يستنتج أن "بارنستابل" أُخذ إلى المستشفى بعد حادثة اصطدام سيارته، وأنه أثناء تأثره بالتخدير، كان يحلم بزيارة عالم يوتوبى مثالى. وفى مواضع كثيرة من الرواية نجد أوصافاً لليوتوبيا بأنها "أرض الأحلام" و"بلاد العجائب" و"اللامكان" و"لا توجد إلا فى العقل" و"حلم مثالى" و"عالم الأحلام" و"حلم جميل ممتلئ بالأمل والحب" و"حلم يقظة".

كذلك نرى فى كل من بداية ونهاية "الحلم"، أن السيد (بارنستابل) يسمع صوتاً يشبه انقطاع وتر الكمان، وهو صوت مميز يسمعه المرء عند بداية ونهاية فقد الوعى أثناء التخدير، توطئة لإجراء عملية جراحية. وعندما يعود السيد (بارنستابل) إلى كوكب الأرض من اليوتوبيا، فإن كل ما يتذكره هو أنه وقع وفقد وعيه بطريقة ما، من جراء الضربة العنيفة التى تعرض لها، ولم يستطع عقله تحملها.

والذى يؤكد لنا أن السيد (بارنستابل) رأى حلماً قوياً نابضاً بالحياة، هو معرفتنا بأن، الناس الذين قابلهم والأحداث التى وقعت له، هى انعكاسات لمواقف وأفكار كانت تشغل ذهنه، قبل بدء إجازته مباشرة.

فقبل شروعه فى الرحيل مباشرة، انتابته فكرة ملحة، هى طبع نسخة خاصة من جريدته، تتناول التصورات اليوتوبية. والقلعة التى فوق الصخرة، والتى تلعب دوراً بارزاً فى تجربته اليوتوبية، فما هى إلا صورة حالمة لقلعة "وندسور"، التى شاهدها قبل الحادث بلحظات.

كذلك فإن منطقة "ديستريكت ليك"، التى كانت فى أفكاره تضارع شخصية يوتوبية تدعى "جرينليك". أما "هايد بارك" -- التى مر عليها وهو فى طريقه إلى "سلاو" -- فتعكسها شخصية "سربنتين" وهو اسم يوتوبى آخر.

كما أن "جولدن هوب"، وهو اسم تهكمى خاص لسيارته الصفراء الزاهية، نجده يماثل لقب رجل يدعى "سان جولد".. وهكذا دواليك.

حلم.. اليوتوبيا

وعندما نصدق أن السيد "بارنستابل" زار اليوتوبيا، فإن ذلك معناه -- ببساطة -- أنه وقع ضحية لوهم أو خيال. ولما طلبت منه زوجته، إثر عودته إلى المنزل، تفسيراً للمكان الذى كان فيه، أجابها بأنه ضل الطريق ولم يلبث أن تراءى له حلم، واستغرق فى حلم يقظة.

ونجد فى رواية "بشر كالأرباب " تهكماً فى كثير من الفقرات الوصفية التى توحى بشدة، أنها كتبت بأسلوب تهكمى ساخر، فهى تمتدح الحضارة اليوتوبية بتعبيرات ضخمة مبالغ فيها جداً، للإيحاء بأن المقصود هو الشرح أو الوصف المسهب الساخر، وليس الواقعى. وأن ويلز يقر باستحالة وجود مثل هذا المجتمع.

بيد أن تأثير عبارات توضح أنه فى اليوتوبيا، حيث لا يوجد برلمان ولا سياسة ولا ثروات خاصة ولا منافسات مهنية أو تجارية، ولا شرطة ولا سجون ولا مجانين ولا متخلفون عقلياً أو بدنياً، يجب ألا تجعل القارئ يؤمن بأى عالم مثالى، بل على العكس أن يرفض تماماً فكرة وجود هذا المجتمع.

وبمقارنة عالم ١٩٢٣ (عام إصدار الرواية) بأرض أحلام خيالية، فإن ويلز يبين بوضوح عدم حقيقة الرؤيا اليوتوبية، ويعترف بأنها مجرد وهم أو خيال. وعندما استيقظ السيد (بارنستابل) فى أول يوم له فى اليوتوبيا، كان لديه إحساس غامض بأن حلماً رائعاً وجميلاً يتبدد من عقله، إنه حلم عن عالم عظيم يعيش فيه أناس حسنو الطلعة، تخلصوا تماماً من ألف مشكلة أرضية. لكنه الآن تبدد واختفى من ذهنه. وفى النهاية عندما اضطر السيد "بارنستابل" للإقرار بأن هذا العالم الرائع من الصدق والصحة، أبعد من أقصى حدود للفضاء الذى يعيش فيه، ولا يمكنه أن يصل إليه فى أى وقت فى المستقبل.

إن هذا يعنى لكل من المؤلف والقارئ لحظة صدق، أى أن المجتمع المثالى الموصوف فى رواية "بشر كالآلهة" غير ممكن تحققه على الإطلاق.

ويصح فهم رواية "بشر كالآلهة"، على أنها مجاز أو استعارة، مبنى على فكرة ضياع البراءة. كما أن الحادث الذى ألقى به إلى داخل اليوتوبيا، يحطم شجرتى تفاح، ومن الواضح أن التفاح رمز للمعرفة. وتحطيم شجرتى التفاح فى نفس لحظة ابتداء الحلم، هو مجاز للقدرة الضارة للمعرفة وضياع البراءة، إثر الوصول إليها.

كانت براءة ويلز تكمن فى تصور أن نوع المجتمع الموصوف فى رواية "يوتوبيا عصرية"، ممكن التحقيق. وتدمير هذه البراءة نتيجة الحرب العالمية الأولى وتداعياتها من قصر النظر والطمع، معبر عنها فى رواية "بشر كالأرباب ". وأسف السيد (بارنستابل) لترك اليوتوبيا وراء ظهره، هو أسف حقيقى، لكنه أسف الرجل الذى اضطر كارهاً إلى الاعتراف باستحالة تحقيق أحلامه.

وعندما قال ويلز فى سيرته الذاتية: "بشر كالأرباب" ترسم صوراً هزلية صريحة لبعض الشخصيات المعاصرة البارزة" (يعتقد بعض النقاد بأن "روبرت كاتسكيل" تكاد شخصيته تنطبق على ونستون تشرشل)، فقد أغفل ذكر أن أحد تلك الشخصيات البارزة

التى يحاكيها بسخرية هى شخصيته ذاتها. وتسخر هذه الرواية – بتعمد – من كتاباته اليوتوبية ذاتها، ويتهكم على كثير من أفكاره واصطلاحاته الأدبية فى كلا أمرين: الحبكة الدرامية والأسلوب القصصى.

ويؤدى الاستخدام الواسع لأسلوب السخرية والرمزية فى "بشر كالأرباب "، إلى تحويل ما يبدو أنه حكاية خفيفة، إلى رواية شديدة التعقيد. وبعيداً عن القول بهبوط فى قدرات ويلز الأدبية – كما أكد بعض كتاب السيرة – فإنها من وجهة نظرى رواية تستحق الدراسة المتأنية. وتؤدى قراءة رواية "بشر كالأرباب "، إلى اكتشاف أن ويلز قدم مشاركة بالغة الأهمية، فى الكتابات اليوتوبية، إلا أن فهم استخدامه للسخرية والتهكم فى متن الرواية، ضرورى جداً لفهم أفكاره على نحو صحيح.

رؤوف وصفى

بشر كالأرباب

الفصل الأول

السيد (بارنستابل) يقوم بإجازة

وجد السيد (بارنستابل) نفسه فى حاجة ماسة للقيام بإجازة يخلد فيها للراحة، ولكنه لم يجد أحداً ليذهب إليه أو مكاناً يستجم فيه. إذ كان مجهداً من كثرة العمل، وفى الوقت ذاته سئم الجلوس بالمنزل. وهو رجل يتسم بالأحاسيس الطبيعية القوية، يحب أسرته للغاية ويعرف ذلك جيداً.. ولكن عندما يكون متعباً جداً، فإن هذا يسبب له ضيقاً شديداً.

أولاده الثلاثة الذين يشبون عن الطوق، يبدو أنهم يزدادون طولاً ونحافة وحجماً يوماً بعد يوم.. فهم يجلسون على المقاعد التى يوشك أن يجلس عليها، ويعبثون بآلة "البيانولا" التى يعزف عليها، ويملأون المنزل بالضحكات المجلجلة المبحوحة، خصوصاً على نكات لم يطلب أحد إلقاءها، ويهزمونه فى لعبة التنس، ويقاطعون المغازلات البريئة الناضجة التى مازالت واحدة من أهم الأمور التى

تغريه في هذا الوادى، كما أنهم يتعاركون فى سعادة على منبسطات الدرج ثم يهبطون قفزاً كل درجتين أو ثلاث معاً فى صخب هائل.

قبعاتهم ملقاة فى كل مكان، ويتأخرون دائماً على الإفطار.. ويذهبون كل ليلة إلى أسرتهم وسط عاصفة من الضوضاء مثل "هاو، هاو، هاو.. بم!".. ويبدو أن أمهم يسعدها ذلك. إنهم يكلفونه نقوداً كثيرة، متجاهلين فى سعادة حقيقة أن كل شيء ارتفع ما عدا القدرة الشرائية للسيد (بارنستابل).. وكلما ذكر بعض الحقائق البسيطة عن السيد (لويد جورج)[1] فى أوقات الوجبات، أو أبدى أدنى محاولة لرفع مستوى الحديث على المائدة فوق مستوى الأمور التافهة أو النكات الهزلية، تحول اهتمامهم عنه بشكل واضح وعلى نحو استعراضى لافت للانتباه.

أراد الرجل بشدة أن يبتعد عن أسرته فى أى مكان يمكنه فيه أن يفكر بهدوء فى مختلف أفراد أسرته بفخر وحب وإعزاز، وفى الوقت ذاته بدون أن يزعجوه ويقلقوا راحته.. وأراد أيضاً أن يبتعد لبعض الوقت عن السيد (بيف).. ولما كانت الشوارع تسبب له عذاباً شديداً، لم يكن يريد أن يرى قط جريدة أو أى إعلان عن الصحف من أى نوع.

---

(١) (١٨٦٣ – ١٩٤٥) سياسى بريطانى رأس وزارة ائتلافية عام ١٩١٦ وأدخل إصلاحات كثيرة (المترجم).

كان الرجل مهموماً بفكرة تطارده، وهى: خوفه المروع من كارثة مالية واقتصادية، تبدو الحرب العظمى بالنسبة لها مجرد كارثة عرضية!.. ذلك لأنه يعمل مساعداً لرئيس التحرير ومديراً عاماً لجريدة (الليبرالى)، وهى جريدة حزبية شهيرة تتناول التداعيات المحبطة للفكر المتقدم، ولأن التفاؤل الدائم للسيد (بيف)، رئيسه فى العمل، كان يؤثر عليه أكثر وأكثر.

في البداية، كان بمقدوره أن يبدى بعض المقاومة للسيد (بيف)، وذلك بإطلاق النكات خلسة حول اكتئابه وغمه من بقية الموظفين والعاملين معه.. لكن الآن لم يعد هناك موظفون آخرون.. فقد استغنى السيد (بيف) عنهم جميعاً فى خضم يأسه وقنوطه من الضائقة المالية. وعملياً لا يكتب أحد الآن بانتظام فى جريدة (الليبرالى) باستثناء السيد (بارنستابل) والسيد (بيف). ولذلك يفعل السيد (بيف) ما يشاء مع السيد (بارنستابل).. فهو يجلس على مقعد رئيس التحرير منحنياً على مكتبه، ويداه فى جيبى سرواله.. وينظر إلى الجانب السيئ من كل شيء لمدة لا تقل عن ساعتين.

وكانت الميول الطبيعية للسيد (بارنستابل) تجاه الآمال المتواضعة والإيمان بالتقدم.. غير أن السيد (بيف) كان يؤمن بشدة بأن التقدم فات وقته بخمس سنوات على الأقل، وأن أعظم الآمال الباقية لليبرالية أو الحركة الفكرية التحررية سوف تتحقق قريباً فى

يوم الحساب العادل. وبعد أن انتهى من مراجعة نسخة مما كان موظفوه من قبل يسمونها المشاكل الأسبوعية، انصرف السيد (بيف) وترك السيد (بارنستابل) لكى يجهز بقية الجريدة للأسبوع المقبل.

وحتى فى الأوقات العادية، كان من الصعب للغاية التعايش مع السيد (بيف).. بيد أن الأوقات لم تكن عادية، بل مليئة بأحداث غير ملائمة جعلت توقعاته السوداوية معقولة جداً.. وبدا أن الإغلاق الكبير لمناجم الفحم الذى استمر لمدة شهر ينذر بخراب اقتصادى لإنجلترا.. حيث تنتشر كل يوم أخبار اعتداءات جديدة من انجلترا، وهى قلاقل وتجاوزات لا تنسى ولا تغتفر.. وهددت فترة جفاف طويلة كل محاصيل العالم.. وأصبحت عصبة الأمم التى كان السيد (بارنستابل) يأمل فى أن تحقق إنجازات هائلة فى أيام الرئيس ويلسون العظيمة، مجرد كيان عقيم وكئيب لا يرضى سوى نفسه.. وشاع الصراع والجنون فى كل مكان.. وبدا أن سبعة أثمان العالم يغرق باتجاه اضطرابات وانهيارات اجتماعية خطيرة.. وحتى بدون السيد (بيف)، فقد كان من الصعب للغاية التقدم للأمام رغم كل تلك الحقائق.

والحقيقة أن السيد (بارنستابل) توقف عن طرح الآمال.. وبالنسبة لمن هم على شاكلته، فإن الأمل محرك ضرورى لا توجد حياة معقولة بدونه، وكان يأمل دائماً بالليبرالية والجهود الفكرية

الليبرالية السخية، غير أنه بدأ يفكر فى أن الليبرالية لن تفعل شيئاً قط سوى الجلوس منحنية الظهر ويداها فى جيوبها، تدمدم وتغتاظ من أنشطة الرجال المتدنين، ولكن الممتلئين نشاطاً وحيوية.. الذين سوف تفضى أعمالهم المضطربة المشوشة إلى تدمير العالم بشكل حتمى.

عموماً، انتاب السيد (بارنستابل) القلق على العالم بأسره.. وفى الليل أكثر من النهار، حيث كان النوم يجافيه عادة.. وطاردته رغبة ملحة مروعة فى أن يخرج عدداً من جريدة (الليبرالى) كما يريد هو شخصياً.. أى أن يغيرها بعد انصراف السيد (بيف) ويحذف المادة الكئيبة كلها، وكل التعليقات الساخرة من هذا الخطأ أو ذاك، والتركيز على الأحداث القاسية والتعسة، والمبالغة فى وصف إساءات السيد (لويد جورج) البشرية الطبيعية البسيطة، ومناشدات كل من اللورد (جراى) واللورد (روبرت سيسيل) واللورد (لانسداون) والبابا والملكة آن، أو الامبراطور (فردريك باربروسا) للنهوض والتعبير علانية عن طموحات الشباب فى ولادة عالم جديد، وبدلاً من ذلك إكمال العدد بالمدينة الفاضلة (اليوتوبيا).. ليقول لقراء (الليبرالى) المندهشين: ها هى ذى الأشياء التى يجب أن نعملها! وها هى ذى الأشياء التى سوف نعملها!.. ما أقساها من صدمة للسيد (بيف) عندما يتناول إفطاره صبيحة يوم الأحد! ومرة واحدة من فرط دهشته لن يستطيع إفراز بعض من إفرازاته الهضمية بشكل طبيعى وعندئذ

سوف يهضم جيداً وجبته هذه! إلا أن ذلك كان أكثر الأحلام سذاجة وحماقة.. فهناك ثلاثة شباب من أسرته بمنزله يحتاجون إلى توفير سبل الحياة الكريمة لهم.

ورغم روعة هذا الحلم، فقد كان لدى السيد (بارنستابل) اعتقاد غير سار بأنه ليس بارعاً بما يكفى لإنجاز هذا الأمر.. إذ سوف يحدث فيه فوضى بشكل من الأشكال.. ويمكن لإحداها أن تقفز من المقلاة إلى النار!. و كانت جريدة (الليبرالى) جريدة كئيبة ومحبطة ومتدنية، إلا أنها لم تكن شريرة أو خبيثة.

ومع ذلك فحتى لو لم يكن هناك مثل هذا الانفجار المروع، فإن السيد (بارنستابل) يجب عليه أن يستريح من السيد (بيف) لبعض الوقت.. وكان قد اختلف معه بالفعل مرة أو مرتين، ولعلهما يتعاركان فى أى وقت.. وأول خطوة فى الارتياح من السيد (بيف) هى، بالتأكيد، استشارة طبيب.. ولذلك بادر السيد (بارنستابل) بالذهاب إلى طبيب.

قال السيد (بارنستابل): "إن أعصابى تتوتر وتفلت من سيطرتى.. وأشعر بشكل مخيف بالإجهاد العصبى".

قال الطبيب: "إنك تعانى فعلا من الاجهاد والضعف العصبى".. فقال: (بارنستابل) "إذن أنت تعتقد أننى محتاج إلى التغيير"..

قال الطبيب: "نعم تغيير شامل بقدر ما يمكنك".. فقال: (بارنستابل) "هل توصينى بالذهاب إلى مكان معين؟"..

قال الطبيب: "وهل تريد أن تذهب إلى مكان ما؟".. فقال بارنستابل "ليس هناك مكان بالتحديد.. لقد اعتقدت أنك سوف توصينى بـــ ....، قاطعه الطبيب قائلاً: "اذهب إلى أى مكان تجد نفسك مشدوداً إليه.. ولا تكبت ميولك ورغباتك فى الوقت الحالى".

دفع السيد (بارنستابل) جنيهاً إنجليزياً، واستفاد من تلك التعليمات والتوصيات فى إبلاغ الأخبار السيئة بخصوص مرضه وضرورة قيامه بإجازة من العمل إلى السيد (بيف) حينما تسنح أول فرصة مناسبة لذلك.

(٢)

ظلت تلك الإجازة المنتظرة مجرد إضافة جديدة لمتاعب وهموم السيد (بارنستابل) الكثيرة بالفعل.. ولكن لكى يقرر أن ينصرف لإجازة فمعنى ذلك أن يواجه وجهاً لوجه ثلاث مشاكل هائلة: كيف يمكن الحصول على إجازة؟ وأين يقوم بها؟.. ونظراً لأن السيد (بارنستابل) واحد من الناس الذين يتضايقون من الوحدة، فمع من؟.. ثم زحف وميض ساطع من تخطيط خفى، إلى البؤس الواضح الذى يظهر مؤخراً فى التعبير المعتاد على وجه السيد (بارنستابل).. ولكن حتى ذلك الوقت لم يلحظ أحد أى تعبيرات تظهر على وجه السيد (بارنستابل).

شيء واضح تماماً كان موجوداً فى ذهنه.. يجب ألا ينطق كلمة واحدة عن تلك الإجازة فى منزله.. فإذا أبلغت السيدة (بارنستابل) بها، فإنه يعرف عندئذ ما الذى سيحدث بالضبط.. إذ سوف تتولى مسئولية الأمر بأكمله، وتتولاه بكفاءتها العالية!.. وسوف تقول: "يجب أن تحصل على إجازة رائعة".. ومن ثم تختار منتجعاً بعيداً وغاليًا نسبياً فى (كورنوول) أو (سكوتلاندة) أو (بريتانى).. وتشترى الكثير من لوازم السفر.. ثم يتبادر إلى ذهنها

أفكار لاحقة رائعة لزيادة حجم حقائب السفر وذلك بهدايا غير مناسبة في آخر لحظة.. ثم تحضر الأولاد.

ولعلها تخطط أيضاً لذهاب مجموعة أو مجموعتين من الأصدقاء والمعارف إلى المكان ذاته حتى يمكن أن "نستمتع بالحياة هناك". ولو ذهب أولئك الناس فمن المؤكد أنهم سيظهرون هناك أسوأ جوانب طبائعهم ويتسببون في مضايقات كثيرة لا تكل ولا تمل! ولن ترانا نتحدث قط. وإنما سوف ترتفع الضحكات المصطنعة.. وسوف تكون هناك أوقات لا تنتهي من المزاح واللهو والعبث.

لكن كيف يمكن للمرء أن يقوم بإجازة دون أن تعرف زوجته ذلك؟.. لابد إذن من تجهيز حقيبة السفر ثم تهريبها خفية إلى خارج المنزل.. ومن وجهة نظر السيد (بارنستابل) فإن أقوى نقطة في موقفه هي أنه يمتلك سيارة صغيرة خاصة به شخصياً.. ومن الطبيعي أن تلك السيارة سوف تلعب دوراً كبيراً في مخططاته السرية.. وبدا أنها أسهل وسيلة للرحيل.. وهي تهدي إلى حل معقول لسؤال إلى أين؟ فمن نقطة ثابتة أو مكان محدد يمكن الذهاب إلى ما يسميه الرياضيون المحل الهندسي.

كما كان هناك شيء مؤنس في السيارة الصغيرة يمكنه أن يقدم إجابة بسيطة، عن السؤال مع من؟ فقد كانت الدابة الصغيرة بمقعدين

لراكبين، وعرفت فى الأسرة باسم "حمام القدم" و"خردل كولمان" و"الخطر الأصفر". وكما توحى تلك الأسماء، فقد كانت سيارة منخفضة مكشوفة لونها أصفر فاتح. وكان السيد (بارنستابل) يستخدمها للذهاب إلى مكتبه من (سيدنهام)؛ لأنها تقطع مسافة ٣٣ ميلاً فى الجالون الواحد، وبذلك فإنها تعتبر أرخص من شراء تذكرة ركوب مخفضة موسمية.. وتظل قابعة فى الفناء تحت نافذة المكتب طوال النهار. وفى سيدنهام تقبع تحت مظلة مقفلة، لا يحمل مفتاحها سوى السيد (بارنستابل).. وحتى الآن فقد نجح فى منع الأولاد من قيادتها أو تفكيكها إلى أجزاء صغيرة. وفى بعض الأوقات كانت السيدة (بارنستابل) تطلب منه أن يتجول بالسيارة فى (سيدنهام) لشراء بعض الحاجيات، لكنها فى الحقيقة لم تكن تحب السيارة الصغيرة؛ لأنها تعرضها للعوامل الجوية من شمس وأتربة وأمطار.. الخ، ومن ثم تتسخ ملابسها وقد تبتل، كما ينتكش شعرها.

ولكل الممكنات السابقة كان اختيار السيارة سليماً، كما أنه كان سليماً لكل الممنوعات السابقة أيضاً.. ومن هنا باتت السيارة الصغيرة هى الوسيلة النموذجية اللازمة للإجازة. وكان الرجل يقود السيارة بشكل سيئ للغاية ولكن مع مراعاة أقصى حذر ممكن.. ورغم أنها تتوقف أحياناً وترفض التقدم خطوة واحدة، فإنها لم تكن تفعل على أى حال مثلما تفعل الأشياء الأخرى فى حياة السيد (بارنستابل)،

والتى تتجه شرقاً عندما يدير عجلة قيادتها غرباً.. ولذلك أعطته تلك السيارة إحساساً رائعاً بالقوة والسيطرة عليها.

وفى النهاية، أخذ السيد (بارنستابل) قراره بسرعة فائقة، حيث لاحت فجأة فرصة مناسبة أمامه. فيوم الخميس كان يومه مع المطبعة التى عاد منها إلى منزله مساء، وهو يشعر بتعب شديد. وكان الطقس حاراً وجافاً للغاية، ومع ذلك فقد كان مقلقاً ومؤذياً وينذر بحدوث مجاعة وبؤس لنصف سكان العالم. وكانت لندن جميلة باسمة وفى موسم رواجها. وعموماً كانت تلك سنة أسوأ بكثير من عام ١٩١٣، سنة الجدب المروّع، التى يعتبرها السيد (بارنستابل) أسوأ سنة فى تاريخ العالم، فى ضوء الأحداث التالية. وحملت جريدة (ستار) المجموعة المعتادة من الأخبار السيئة، على هامش أخبار الرياضة والأزياء والموضة التى تحتل أكبر مساحة فى الجريدة. وكان هناك قتال دائر بين الروس والبولنديين، وكذلك فى أيرلندة وآسيا الصغرى والجبهة الهندية وشرق سيبيريا.. كما كانت هناك ثلاث جرائم مروّعة. وكان عمال المناجم مازالوا خارج المناجم، والمهندسون يهددون بعمل إضراب.. ولم يكن هناك سوى فسحة للوقوف فى القطار الذى بدأ يتحرك منذ عشرين دقيقة.

وجد مذكرة من زوجته تشرح له فيها أن أبناء عمومتها أبرقوا إليها من ويمبلدون بأن هناك فرصة غير متوقعة لمشاهدة مباراة

التنس التى ستلعب فيها الآنسة (لنجلين) وبقية مباريات البطولة الشهيرة، وأنها ذهبت مع الأولاد ولن تعود قبل وقت متأخر.. وقالت: إنه لن يضر خططها كثيراً مشاهدة بعض ألعاب التنس الراقية.. كما أن تلك الليلة كانت بمثابة حفلة تعارف الخدم.. ترى هل يبالى بأن يُترك بمفرده فى المنزل لبعض الوقت؟ إن الخدم سوف يتركون له عشاء بارداً قبل أن ينصرفوا.

قرأ السيد (بارنستابل) هذه المذكرة باستسلام.. وبينما كان يتناول عشاءه، جرى ببصره على كتيب أرسله إليه صديق صينى، لكى يوضح كيف أن اليابانيين كانوا مصممين على تحطيم كل ما تبقى منْ حضارة وثقافة الصين. وفقط عندما كان جالساً يدخن سيجارة فى حديقة منزله الخلفية بعد تناول العشاء، أدرك معنى كل شىء موجود بالمنزل بالنسبة إليه.

فجأة خطر له خاطر غريب.. وتلفن إلى السيد (بيف) وأخبره بوصية الطبيب له، وشرح له كيف أن أمور جريدة (الليبرالى) فى حالة طيبة للغاية.. ومن ثم حصل على إجازته. ثم دلف إلى مخدعه، ورص مجموعة مختارة من الأغراض التى سيأخذها معه على عجل فى حقيبة سفر قديمة يحتاج بالتأكيد إليها، ثم وضع الحقيبة فى المقعد الخلفى للسيارة. بعد ذلك قضى بعض الوقت يكتب خطاباً معنوناً إلى زوجته، ثم وضعه بعناية شديدة فى جيب سترته.

قفل سقف السيارة ثم ألقى بنفسه فى كرسى قماشى مريح فى الحديقة، وسيجارة فى فمه، وفى يده كتاب فكرى جميل عن إفلاس أوروبا، لكى يبدو ويشعر كإنسان برىء سليم النية، طاهر الذيل قبل أن تعود أسرته إلى المنزل. وعندما عادت زوجته أخبرها بشكل عرضى أنه يعانى من إجهاد عصبى، وأنه يخطط للذهاب إلى لندن فى اليوم التالى لاستشارة طبيب متخصص.

أرادت السيدة (بارنستابل) أن تختار له طبيباً، لكنه تملص من تلك الفكرة قائلاً لها: إنه اضطر لاستشارة (بيف) فى الأمر. وأن (بيف) صمم بشدة على الطبيب الذى ذهب إليه بالفعل. وعندما قالت السيدة (بارنستابل) أن كل الناس يريدون القيام بإجازة، غمغم بصوت كقباع الخنازير بطريقة غامضة غير مفهومة.

وبهذه الطريقة تمكن السيد (بارنستابل) من الخروج مباشرة من منزله، ومعه كل ملابسه وأغراضه لقضاء إجازة مدتها أسبوع، بدون أن يلاقى أية مقاومة يستعصى عليه مواجهتها. وبدأ رحلته فى صباح اليوم التالى ميمماً وجهه شطر لندن. وكان المرور فى الطريق كثيفاً ومبهجاً؛ ولكنه لم يكن قط مقلقاً أو مزعجاً.. كما أن سيارته "الخطر الأصفر" كانت تسير بسلاسة وعذوبة لدرجة أنه كان يلزم تسميتها "الأمل الذهبى". وفى (كامبرويل) استدار إلى الطريق الجديد وشق طريقه نحو مكتب البريد بأعلى طريق جسر (فوكسهول). ثم

توقف، وهو يشعر بالخوف وفى الوقت نفسه بالفخر بما حققه من إنجاز. ودخل مكتب البريد وأرسل إلى زوجته برقية تقول كلماتها: "يقول الدكتور (باجان): إن الوحدة والراحة مطلوبان بشدة.. لذلك سأذهب إلى منطقة (ديستريكت ليك) لكى أستجم هناك.. ومعى الحقيبة وكل ما أحتاج إليه.. وأرجو أن أطمئنك بخطابات لاحقة".

ثم خرج من المكتب، وأخذ يبحث فى جيبه، ثم أخرج الخطاب الذى كتبه بعناية فى الليلة الماضية ووضعه فى صندوق البريد.. وتعمد أن يذكر فى الخطاب بأنه مصاب بإجهاد عصبى حاد.. وأوضح فيه أن د. (باجان) أمره بالحصول على إجازة فوراً، وطلب أن يرحل أو يتجول "شمالاً" وأوضح أن الأفضل له ألا يكتب أى خطاب لبضعة أيام أو ربما لمدة أسبوع.. وأنه لا يجب أن يقلق نفسه بالكتابة ما لم تسوء الأمور أو يتعرض لحالة طارئة.. وأن أى أخبار لن تسره قط.. وعليه أن يستريح تماماً، وسوف يكون كل شىء على ما يرام.. وبمجرد وصوله يمكنه إرسال عنوانه البريدى برقياً، ولكن عليه ألا يرسل خطاباً إلا لأمر خطير أو عاجل.

بعد ذلك استأنف رحلته بسيارته، وهو يشعر بارتياح وحرية لم يشعر بهما قط، منذ أول إجازات يحصل عليها من أول مدرسة له.. واتجه إلى طريق الشمال السريع، ولكن عند ارتباك المرور وتوقفه فى تقاطع شارع (هايد بارك) حوّله الشرطى إلى جسر (نايت

بريدج).. وبعد ذلك عند التقاطع، حيث يتفرع طريق (باث) بعيداً عن طريق (أكسفورد)، مرت أمامه شاحنة معترضة طريقه وأجبرته على الدخول فى الطريق الأول.. بيد أن ذلك لم يكن مهمًا جداً.. فأى طريق يفضى إلى (السوير)، ثم بعد ذلك يمكنه الانطلاق شمالاً.

(٣)

كان ذلك اليوم أحد تلك الأيام المشرقة البهيجة، التى ميزت فترة الجفاف الكبير لعام ١٩٢١.. لكنه لم يكن شديد الحرارة والرطوبة.. والحقيقة أن الجو المنعش امتزج بالحالة النفسية الجيدة للسيد (بارنستابل)، بحيث اقتنع بأن أمامه الكثير من المغامرات الرائعة.. وعاد الأمل إليه من جديد.

أدرك أنه في طريقه عليه أن يبتعد عن كل الأشياء، رغم أنه حتى ذلك الوقت لم تكن لديه أدنى شكوك حول مدى ابتعاده عن الأشياء فى الطريق الذى سوف يسلكه.. ولعل مغامرة صغيرة، الآن، توقفه عند إحدى الحانات لتناول وجبة الغذاء.. وإذا شعر فى أى وقت بعد ذلك بالوحدة، فبمقدوره توصيل شخص ما بسيارته للتحدث معه. ولا شك أنه من السهل نسبياً توصيل الناس بالسيارة، طالما أن ظهره بشكل عام يتجه ناحية (سيدنهام) ومكتب جريدة (الليبرالى)، لأنه لا يهم عندئذ ما هو الاتجاه الذى يمكن أن تنطلق فيه السيارة؟!

بعد مسافة قصيرة خارج (سلاو) مرت من جواره حافلة رحلات ضخمة رمادية الشكل، وجعلته يجفل وينحرف عن مساره.. وقد سارت بجواره دون أن تصدر أى صوت.. وعلى الرغم من أن

عداد سرعته – غير الدقيق تماماً– كان يبين أن سيارته تسير بسرعة ٢٧ ميل/ساعة، فقد تخطته في لحظة واحدة.. ولاحظ أن ركابها ثلاثة من الرجال وسيدة واحدة.. كانوا جميعهم جالسين منصتين وناظرين إلى خلفهم، كما لو كانوا مهتمين للغاية بشيء ما يتبعهم.. وانطلقوا بسرعة فائقة بالنسبة إليه، لدرجة أنه لم يلحظ سوى أن المرأة كانت رائعة الجمال بشكل واضح تماماً، وأن الرجل القريب إليه كان ذا وجه خبيث مسن.

وقبل أن يفيق من صدمة هذا التخطي المفاجئ، حذرته سيارة يشبه صوتها صوت ديناصورات ما قبل التاريخ من أنها سوف تتخطاه أيضاً.. فأبطأ سرعة سيارته وابتعد عن وسط الطريق وأعطى بيده إشارة: موافقة، ولم تلبث سيارة ليموزين كبيرة وسريعة، أن استفادت من موافقته هذه؛ وانطلقت في حارة الطريق، التي يصل عرضها إلى أكثر من أربعة أمتار على يمينه، وكانت تقل حمولة كبيرة من الحقائب والأمتعة، ولم ير أحداً من الركاب بها، بخلاف شاب على وجهه نظارة يجلس بجوار السائق.. واستدارت حول منعطف في الأمام وراء سيارة الرحلات مباشرة.

إن السائق المبتدئ نفسه لا يحب أن تسبقه السيارات بهذا الشكل المهين في وضح النهار وعلى طريق مفتوح! ولذلك ضغط السيد (بارنستابل) على دواسة البنزين، وانطلق حتى لف حول

المنعطف بسرعة تزيد على ١٠ ميل/ساعة على سرعته الحذرة السابقة.. ووجد الطريق خالياً أمامه وممتداً فى خط مستقيم لمسافة ثلث ميل تقريباً..

على اليسار امتد بمحاذاة الطريق سور شجرى قصير مشذباً جيداً.. أشجار متناثرة وحقول منبسطة.. وفى الخلف توجد بعض الأكواخ والعشش الصغيرة، وأشجار الحور.. ومن بعيد يمكن رؤية قصر وندسور.. وعلى اليمين تنتشر الحقول المنبسطة، ويوجد فندق صغير، وخلفية عامة من تلال منخفضة تغطيها الأشجار. ووسط هذا المشهد الطبيعى الوادع الخلاب، ارتفع عالياً إعلان عريض لفندق بجانب النهر عند بلدة (ميدنهيد).. وأمامه يوجد نوع من الرياح الحارة تخفق فى الهواء ودوامتان أو ثلاث دوامات صغيرة من الأتربة التى تندفع بامتداد الطريق.. ولم تكن هناك أية علامة أو أثر لسيارة الرحلات الرمادية، ولا أثر كذلك للسيارة الليموزين التى لاحقتها!

مرت حوالى ثانيتين قبل أن ينتبه السيد (بارنستابل) لغرابة هذا الأمر.. ولم يكن هناك على اليمين أو على اليسار أى طريق جانبى، ويمكن أن تكون إحدى السيارتين أو كلتاهما اختفت فيه.. أما إذا كانتا دارتا بالفعل حول المنعطف التالى فى الأمام، فلابد أنهما تسيران بسرعة تزيد على ٢٠٠ أو ٣٠٠ ميل/ساعة! ومن عادة السيد (بارنستابل) أن يبطئ السرعة عندما يشك فى أمر ما.. فأبطأ سرعته

على عجل، حتى وصلت إلى حوالى ١٥ ميل/ ساعة.. وأخذ يحدق مشدوهاً، فى المناظر الطبيعية الخالية من حوله.. باحثاً عن أى دليل أو أثر يفسر لغز هذا الاختفاء.. والأغرب من ذلك أنه لم يكن لديه أى شعور بأنه هو نفسه قد يتعرض للخطر.

وفجأة: اصطدمت سيارته بشيء ما، وانزلقت بعنف لدرجة أن السيد (بارنستابل) فقد وعيه للحظة.. ولم يستطع أن يتذكر ما الذى ينبغى عليه عمله عندما تنزلق السيارة.. وتذكر على نحو غامض أن عليه أن يقود السيارة فى الاتجاه الذى تنزلق فيه.. لكنه، ويالأسف، لم يتمكن من فرط مباغتة المفاجأة فى تلك اللحظة من تحديد الاتجاه الذى تنزلق فيه السيارة!

بعد ذلك تذكر أنه فى تلك اللحظة سمع صوتاً.. هو بالضبط الصوت نفسه الذى يقترن بتراكم الضغط.. وهو حاد مثل طقطقة وتر العود، التى يسمعها المرء عادة عند نهاية أو بداية فقدان الوعى تحت تأثير المخدر!

بدا أنه استدار بالسيارة، واتجه ناحية السور الشجرى على اليمين.. غير أنه وجد الطريق ممتداً أمامه مرة أخرى.. ولمس دواسة البنزين ثم أبطأ السرعة حتى توقف تماماً؛ وهو فى أشد حالات الصدمة والدهشة.

إن هذا الطريق مختلف تماماً عن الطريق الذى كان ينطلق عليه منذ نصف دقيقة فقط.. فالأسوار الشجرية تغيرت والأشجار تبدلت.. وقلعة وندسور اختفت.. ولكن كتعويض بسيط لموازنة الموقف كانت السيارة الليموزين الضخمة أمامه مرة أخرى.. لكنها هذه المرة واقفة بجانب الطريق بعيداً عنه بمسافة مئتى ياردة..

الفصل الثانى

الطريق المدهش

(١)

تشتت اهتمام السيد (بارنستابل) لبعض الوقت ما بين السيارة الليموزين، التى يهبط منها ركابها الآن، والمنظر الطبيعى الذى يحيط به. وكان هذا المنظر فى غاية الغرابة والجمال لدرجة أن الناس الذين يشاركونه إعجابه ودهشته، هم فقط الذين يمكنهم إدراك وشرح الحيرة المذهلة التى انتابته ويمكنهم نجدته والتخفيف عنه.. ولدرجة أن المجموعة الصغيرة التى أمامه الآن يكاد لا يكون لها أى قيمة بجوار هذا المشهد العجيب.

الطريق نفسه، بدلاً من أن يكون عبارة عن حصى وتراب ملطخ بالقار، وسطحه عبارة عن حبيبات رمل خشنة وروث حيوانات.. كان من الواضح أنه عبارة عن زجاج شفاف فى بعض الأماكن كالماء الراكد، وفى أماكن أخرى كاللبن أو كسطح متلألئ

براق.. تتخلله خطوط فاتحة اللون أو لامعة بقوة.. وبعض الشوائب من رقاقات ذهبية مطمورة.. ولعل عرضه يبلغ ١٢ أو ١٥ ياردة.

وعلى كلا الجانبين يوجد شريط من المروج من نباتات رقيقة لم ير السيد (بارنستابل) مثلها من قبل.. وقد كان خبيراً ومهتماً بجزازات النخيل والحشائش.. وخلف ذلك يمتد حد عريض من الزهور.. وحيث جلس السيد (بارنستابل) فاغراً فاه من فرط الدهشة بسيارته وربما لمسافة ثلاثين ياردة فى كلا الاتجاهين، كان هذا الحاجز عبارة عن كتلة كثيفة من زهور غير مألوفة ذات لون أزرق فاتح.. ثم بدأ اللون الأزرق يتلاشى مع زيادة أعداد عناقيد من الزهور الطويلة ناصعة البياض، لم تلبث أن أخفت اللون الأزرق تماماً من حوض الزهور.

وفى الجانب المقابل من الطريق، كانت تلك العناقيد الزهرية الطويلة نفسها تختلط بنباتات كثيفة، تحمل براعم لا تقل عنها غرابة بالنسبة للسيد (بارنستابل)، تراوحت ألوانها من سلسلة من النباتات الزرقاء ثم البنفسجي الزاهى ثم الأرجوانى ثم القرمزى المتوهج، وخلف ذلك الطريق من الزهور رائعة الألوان تمتد مروج منبسطة ترعى فيها ماشية فاتحة اللون.. ثلاث منها كانت قريبة، ولعلها جفلت من الظهور المفاجئ للسيد (بارنستابل)، وأخذت تتأمله فى هدوء

وترمقه بعيونها الغامضة التى لا تعرف سوى الخير.. وكانت لها قرون طويلة متدلية تحت أعناقها، مثل ماشية جنوب أوروبا والهند.

تحولت عينا السيد (بارنستابل) من تلك الحيوانات الرقيقة الأليفة إلى خط طويل من الأشجار التى تشبه ألسنة اللهب.. ثم إلى صف ممتد من أشجار بيضاء وذهبية اللون. ثم إلى خلفية شاسعة من جبال يكسوها الجليد الأبيض.. وانسابت بضع سحب بيضاء عالية عبر سماء زرقاء متألقة.. أما الهواء فقد بهر السيد (بارنستابل) من فرط صفائه وعذوبته.

وبخلاف البقرات ومجموعة صغيرة من الناس الواقفين بجوار السيارة الليموزين، لم ير السيد (بارنستابل) أى كائنات حية على الإطلاق.. وتوقف قائدو السيارات وأخذوا يحدقون فيما حولهم.. وتناهى إلى سمعه صوت أشخاص متبرمون أو يشتكون من شيء ما..

وفجأة: سمع السيد (بارنستابل) خلفه صوت طقطقة حادة جذب اهتمامه، فاستدار بسرعة.. وعلى جانب الطريق فى الاتجاه الذى جاء بالتأكيد منه تناثرت أطلال وحطام، ما بدا له أنه منزل حجرى تهدم حديثاً جداً.. وبجواره شجرتا تفاح كبيرتان التويتا وتمزقتا، بفعل انفجار أو نحو ذلك، ومن قلب المنزل يندلع عمود من الدخان الأسود

وينطلق ذلك الصوت الذى ينم عن أجيج النيران؛ وهى تلتهم الأثاث.. وأدرك السيد (بارنستابل) من الشكل المشوه لشجرتى التفاح المحطمتين أن بعض الزهور المجاورة للطريق والقريبة جداً منه؛ انحنت أيضاً إلى أحد الأجناب كما لو أن ريحاً عنيفة حديثة هبت عليه.. لكن الغريب أنه لم يسمع انفجاراً ولم يشعر بأى ريح تهب.

أخذ يحدق فيما حوله لبعض الوقت، ثم استدار كما لو كان يبحث عن تفسير لسيارة الليموزين.. الآن، ثلاثة من أولئك الناس يتقدمون فى الطريق باتجاهه، وفى مقدمتهم رجل رفيع طويل القامة أشيب الرأس يضع على رأسه قبعة من اللباد، ويرتدى سترة تقى من التراب أثناء القيادة لفترات طويلة.. وكان وجهه مضطرباً وله أنف صغيرة تكفى بالكاد لكى تستقر عليها قنطرة نظارته المذهبة.. وعندئذ أعاد السيد (بارنستابل) تشغيل محرك سيارته وتقدم ببطء لمقابلتهم.

بمجرد أن وصل إلى مسافة يمكنه منها سماع بعضهم بعضاً، توقف ووضع رأسه على جانب "الخطر الأصفر" ولديه سؤال مهم.. وفى اللحظة نفسها سأله الرجل الطويل الأشيب السؤال نفسه: "هل تستطيع أن تخبرنى يا سيدى أين نحن الآن بالضبط؟".

(٢)

أجابه السيد بارنستابل: "منذ خمس دقائق فقط كان بإمكانى القول: إننا فى طريق (ميدنهيد) بالقرب من (سلاو)".

قال السيد بلهجة جدية عقلانية "بالضبط!.. بالضبط!.. وأزعم أنه لا يوجد أدنى مبرر لافتراض أننا لسنا موجودين فى طريق ميدنهيد".. ورن فى أذنيه تحدى هذا المنطق الجدلى.

قال السيد (بارنستابل): "إنه لا يبدو لى طريق ميدنهيد" فقال الرجل: "أنا أوافقك! ولكن أعلينا أن نحكم فى الأمر بالظاهر أم بالاستمرار المباشر لخبراتنا؟ إن طريق ميدنهيد أفضى بنا إلى هذا المكان.. أى أنه مستمر حتى هذا المكان.. وعلى ذلك فأنا متأكد أن هذا هو طريق ميدنهيد".. فقال السيد (بارنستابل): "وتلك الجبال؟".. فقال الرجل الطويل بوضوح كما لو كان يناور: "لابد أن قصر وندسور موجود هناك".. فقال السيد (بارنستابل): "نعم، كان موجوداً منذ خمس دقائق مضت".

قال الرجل الطويل بلهجة انتصار: "من الواضح أن تلك الجبال نوع من التمويه.. بمعنى أن كل هذا الأمر – كما يقولون فى أيامنا هذه – مصطنع أو مدبر". فقال السيد (بارنستابل): "نعم، إنه يبدو أمراً أجيد تدبيره". وسادت فترة من الصمت تفحص فيها السيد

(بارنستابل) رفاق الرجل الطويل.. أما الرجل الطويل فهو يعرفه جيداً، فقد رآه عشرين مرة فى اجتماعات عامة وأماكن عامة لتناول العشاء.. وهو السيد "سيسيل بيرليه" الزعيم المحافظ الكبير.. وهو لم يشتهر فقط لكونه سياسياً بارزاً، وإنما كان شخصاً متميزاً فى حياته الخاصة وفيلسوفاً ورجلاً يتمتع بذكاء حاد.

وخلفه يقف شاب قصير وبدين فى أوسط العمر، لا يعرفه السيد (بارنستابل)، وزادت نظارته الطبية من مظهره الفظ العدائى.. أما الرجل الثالث فى المجموعة الصغيرة؛ فكان مألوفاً له هو الآخر.. لكن السيد (بارنستابل) لم يستطع تقييم شخصيته لبعض الوقت.. وكان حليق الذقن ذا وجه مدور متورد الخدين، وعليه دلائل حسن التغذية، ولباسه يوحى إما بأنه من كبار رجال الدين المسيحى أو أحد قساوسة الكنيسة الرومانية الأثرياء.

تحدث الشاب ذو النظارة الطبية، بصوت ضعيف عالى الطبقة: "لقد حضرت إلى (تابلو) من هذا الطريق منذ أقل من شهر، ولم يكن هناك أى شىء مما نراه الآن فى الطريق وقتئذ".. فقال السيد بيرليه بحماس: "إننى أعترف بوجود صعوبات.. نعم توجد صعوبات هائلة.. ولكن أستطيع أن أزعم أن تصورى الرئيسى صحيح". قال السيد ذو النظارة بلهجة جافة قاطعة للسيد (بارنستابل): "هل تظن أن هذا ليس طريق ميدنهيد؟".. أجابه السيد (بارنستابل) بشىء من العناد

والبرود: "إننى أرى أنها حيلة مصطنعة مثالية". فاعترض السيد (بيرليه) قائلا: "لكن لا سيدى العزيز! إن هذا الطريق مشهور بباعة البذور إلى المشاتل.. وأحياناً ينظمون عروضاً مدهشة للغاية.. كإعلانات أو نحو ذلك".

سأل السيد ذوالنظارة: "إذن لماذا لا نذهب مباشرة إلى ساحة تابلو الآن؟".. فأجابه السيد (بيرليه) بشىء من الحدة الطبيعية التى يتسم بها المرء عندما يصر على حقيقة يعرفها الجميع ويتجاهلونها بعناد: "لأن روبرت يصر على أننا فى عالم آخر، ولا نستطيع أن نتقدم!.. هذا هو السبب .. ولطالما تمتع بخيال خصب.. إنه يعتقد أن الأشياء التى لا توجد يمكن أن توجد!.. والآن نراه يتخيل نفسه فى قصة علمية مصطنعة بعيدة تماماً عن عالمنا.. أى فى بعد زمنى آخر.. إننى أعتقد أحياناً أنه كان من الأفضل لنا جميعاً لو أن (روبرت) تخصص فى كتابة القصص الرومانسية الدرامية بدلاً من العيش فيها!.. وأنت، باعتبارك سكرتيره، لو كنت تعتقد أنه بمقدورك إحضاره إلى (تابلو) فى الوقت المناسب لتناول طعام الغذاء مع سكان قصر وندسور!.

وبين السيد (بيرليه) بإشارة من يده بعض الأفكار التى وجد أن الكلام غير كاف للتعبير عنها، وكان السيد (بارنستابل) قد لاحظ بالفعل أن هناك شخصاً يتحرك ببطء واهتمام ولونه قريب من لون

الرمل.. يرتدى سترة رمادية ذات شريط أسود أصبح مألوفاً من كثرة استخدام رسامى الكاريكاتير له.. ويتفحص بعناية كتل الزهور المتداخلة فى بعضها البعض بجوار السيارة الليموزين.. ولابد أن هذا الشخص هو (روبرت كاتسكيل) وزير الحربية.

هذه المرة فقط وجد السيد (بارنستابل) نفسه متفقاً تماماً مع هذا السياسى المغامر.. كان هذا عالماً آخراً.. وخرج السيد (بارنستابل) من سيارته وقدم نفسه إلى السيد (بيرليه) قائلاً له: "أعتقد يا سيدى أنه يمكننا معرفة الكثير عن مكاننا هذا إذا تفقدنا هذا المبنى الذى يحترق هنا قريباً منا.. وأعتقد أننى رأيت لتور شخصاً ممدداً فوق المنحدر المجاور للمنزل.. فإذا استطعنا الإمساك بأحد أولئك المخادعين..؟".

ولم يكمل جملته، لأنه لم يكن يعتقد حقاً للحظة واحدة أنهم وقعوا ضحايا لخداع ما.. ويبدو أن السيد (بيرليه) اقتنع تماماً برأيه فى الدقائق الخمس الأخيرة.. وأدار الرجال الأربعة وجوههم إلى الأنقاض التى يتصاعد منها الدخان.. وقال الرجل الذى يرتدى نظارة طبية، وهو يبحث فى الأفق "إنه من العجيب حقاً ألا نجد مخلوقاً واحداً هنا.. فقال السيد (بيريه) "حسناً.. أنا لا أرى أى ضرر فى معاينة ذلك الشىء الذى يحترق".. وقاد المجموعة متجهاً إلى هناك.. بوجهه الذكى الذى يتوقع الأحداث.. إلى البيت المدمر بين تلك الأشجار المحطمة.

ولكن قبل أن يخطو عشر خطوات، تحول بسرعة اهتمام المجموعة الصغيرة إلى السيارة الليموزين، بعد أن ارتفعت صرخة رعب من السيدة التى كانت لا تزال جالسة داخلها.

(٣)

صاح السيد (بيرليه) بصوت ينم عن السخط الشديد: "إن هذا أكثر مما يمكن للمرء احتماله! لابد أن هناك قوانين ولوائح تنفذها الشرطة للحيلولة دون حدوث تلك الأمور".. فقال الرجل ذو النظارة الطبية: "لابد أنه هرب من حديقة حيوانات مسافرة.. ترى ما الذى ينبغي علينا عمله الآن؟".. فقال السيد (بارنستابل): "إنه يبدو هادئاً وأليفاً".. لكنه لم يحاول – قط – أن يختبر مدى صحة نظريته عملياً!

قال السيد (بيرليه): "إنه من السهل أن يخيف الناس بشدة"، ورفع صوته وصاح: "لا تخافى يا ستيلا!.. إنه على الأرجح وديع وغير مؤذ.. لا تضايقيه بهذه المظلة، فقد يثب عليك يا ستيلا!".. ولم يكن هذا الذى يتحدثون عنه سوى نمر رائع اللون جاء برشاقة من منطقة الزهور وقبع جالساً. كان مثل قط ضخم وسط الطريق الزجاجي بجوار السيارة الكبيرة.. وكان يغلق ويفتح عينيه باستمرار، ويدير رأسه من جانب إلى آخر بشكل متكرر ومنتظم.. وتبدو عليه

علامات الدهشة والاهتمام!.. عندما قامت السيدة – طبقاً للعادات والسلوكيات المتبعة فى مثل تلك الحالات – بفتح وقفل مظلتها الخفيفة بأسرع ما يمكنها.

اختبأ السائق خلف السيارة، وأخذ السيد (روبرت كاتسكيل) يحدق مشدوهاً وهو غاطس حتى ركبتيه وسط الزهور.. والواضح أنه أدرك وجود هذا الحيوان من صرخة السيدة التى جذبت اهتمام السيد (بيرليه) ورفاقه.

كان السيد (كاتسكيل) أول من تصرف، وعبر تصرفه عن حماسته وجلده.. وكان تصرفه حذراً وجريئاً فى الوقت ذاته.. قال: " سيدتى (ستيلا) أوقفى فتح وقفل المظلة.. ودعينى أتصرف لكى أجذب اهتمامه وألفت نظره".. ثم دار حول السيارة لكى يصبح أمام الحيوان وجهاً لوجه.. ثم وقف لحظة لكى يعرض نفسه أمام الحيوان – إذا جاز هذا التعبير – إنسان قصير متسم بالتصميم ويرتدى سترة طويلة رمادية وقبعة ذات شريط أسود بقمتها.. ومد أمامه إحدى يديه فى حذر شديد وبطء خوفاً من إثارة الحيوان الجائم فى هدوء.. وقال له "بوسى!".

شعر النمر بالارتياح بعد توقف الليدى (ستيلا) عن تحريك مظلتها بشكل عدائى له، وحدق فى السيد (كاتسكيل) باهتمام وفضول

شديدين.. واقترب الرجل أكثر.. ومد النمر رأسه إلى الأمام وتنشق.. وقال السيد (كاتسكيل): "سوف يسمح لى بأن أربت عليه".. واقترب إلى مسافة ذراع منه.

تشمم الوحش اليد الممدودة إليه، وهو يكاد لا يصدق ما يحدث.. ثم لم يلبث أن عطس عطسة قوية أرسلت السيد (كاتسكيل) عشر خطوات إلى الوراء.. ثم عطس مرة أخرى أقوى من سابقتها.. ورمق السيد (كاتسكيل) بنظرة تأنيب للحظة ووثب بخفة فوق حوض الزهور واختفى فى اتجاه الأشجار البيضاء والذهبية المتراصة.. والغريب أن السيد (بارنستابل) لاحظ أن الماشية التى ترعى فى الحقل، لاحظت مرور النمر دون أن يبدو عليه أدنى قدر من الخوف.

ظل السيد (كاتسكيل) واقفاً كالتمثال فى منتصف الطريق، ثم قال: "لا يوجد حيوان يستطيع أن يتحمل النظرة الثابتة لإنسان.. لا يمكن.. إن هذا لغز لمن يؤمن فيكم بالنظرية المادية.. والآن، هلا انضممنا إلى السيد (سيسيل) أيتها الليدى ستيلا؟.. يبدو أنه عثر هناك على شيء ما يستحق الاهتمام.. ولعل الرجل الموجود بالسيارة الصفراء الصغيرة يعرف أين هو الآن".

ساعد الرجل السيدة على الهبوط من السيارة، ثم أقبل الاثنان وراء جماعة السيد (بارنستابل) التى مازالت تقترب الآن من المنزل

المحترق.. والواضح أن السائق لم يود أن يتركوه بمفرده مع سيارته الليموزين فى هذا العالم الذى يمتلئ بالأحداث العجيبة.. وسرعان ما تحرك خلف المجموعة كلها متخلفاً عنها بالمسافة التى تسمح بها حدود الذوق والاحترام.

الفصل الثالث

أناس رائعون

لم يكن يبدو أن النار فى المنزل الصغير تزداد تأججاً، إذ قل الدخان المنبعث منه كثيراً عما كان عليه عندما لاحظه السيد (بارنستابل) للمرة الأولى.. وعندما اقتربوا منه، وجدوا كمية من الفتات المعدنية اللامعة الملوية.. وبقايا زجاج متكسر من المبانى المتهدمة.. وكانت فكرته السائدة هو حدوث انفجار فى أجهزة علمية قوية جداً.. ثم فى نفس الوقت ذاته تقريباً، تبينت المجموعة بأكملها وجود جسد ممدد على المنحدر الزجاجى خلف الأنقاض.. كانت جثة لرجل فى ريعان شبابه.. عارية من الملابس باستثناء سوارين وقلادة وحزام.. والدماء تنزّ من فمه وأنفه.

انحنى السيد (بارنستابل) بنوع من الذعر بجوار الجثة الممددة وتحسس دقات قلبه.. ولم يكن قد رأى جسداً من قبل أو وجهاً بمثل هذا الجمال.. وهمس: "إنه ميت".. وصاح الرجل ذو النظارة الطبية

بصوت حاد: "انظروا!.. شخص آخر!".. وكان يشير إلى شيء يخفيه.. جزء من الجدار عن بصر السيد (بارنستابل).. واضطر السيد (بارنستابل) إلى تسلق كومة من الأنقاض قبل أن يتمكن من رؤية هذا الاكتشاف الثاني.

كانت فتاة نحيفة لا يستر جسدها سوى القليل جداً من الملابس.. ولابد أن شخصاً ما أو شيئاً ما قذفها بقوة هائلة على الحائط، فماتت لتوها من شدة الصدمة.. لم يكن وجهها مشوهاً رغم أن جمجمتها تحطمت من الخلف.. وفمها الرائع وعينها الخضراوين الرماديتين مفتوحة كلها قليلاً.. وتعبر قسمات وجهها عن تفكيرها العميق فى مشكلة مهمة ولكنها عويصة!.. لم يكن يبدو عليها قط أنها ميتة.. وإحدى يديها لا تزال ممسكة بأداة نحاسية ذات مقبض زجاجي.. أما يدها الأخرى فكانت مترهلة ومقلوبة.

وقف الجميع مشدوهين لا يتكلمون.. لبضع ثوان، وبدا كما لو أنهم يخافون أن يقطعوا عليها حبل أفكارها!.. ثم سمع السيد (بارنستابل) القس يتحدث بهدوء خلفه "ما أكمل شكلها!".. قال السيد (بيرليه) بإصرار: "أعترف بأننى كنت مخطئاً.. نعم أنا مازلت مخطئاً.. فهنا لا يوجد أناس بشريون.. هذا واضح.. وبالتالى فنحن لسنا على الأرض.. لا أستطيع تخيل ما حدث لنا ولا أين نحن الآن.. إننى فى مواجهة أدلة قوية كافية لا أتردد فى التراجع عن أفكارى

ومعتقداتى.. هذا العالم الذى نحن فيه الآن ليس عالمنا.. إنه شىء".. وتريث برهة ثم أردف: "إنه شىء رائع جداً بالتأكيد".

وقال السيد (كاتسكيل) بدون أى أسي: "لابد أن جماعة قصر ويندسور تناولوا غذاءهم بدوننا".. فقال القس: "ولكن عندئذ يجب أن نعرف أى عالم هذا الذى نحن فيه، وكيف تمكنا من الدخول إليه".. فقال السيد (بيرليه) برقة: "لا أرى بداً الآن من أن توافقوننى فى تفكيرى. إننا هنا فى عالم ما يشبه عالمنا من جهة ويختلف عنه من جهة أخرى!.. ولابد أنه يرتبط بشكل ما بعالمنا، وإلا لما كنا هنا الآن.. لكننى أعترف بعجزى عن فهم طبيعة هذا الارتباط، فهو لغز يستغلق على الفهم.. لعلنا الآن فى بعد فضائى مختلف عن الأبعاد التى نعرفها.. غير أن عقلى المتواضع يدور عن التفكير فى تلك الأبعاد.. إننى...، إننى مذهول.. مذهول".

قال الرجل ذو النظارة الطبية، باختصار ونبرة تدل على ثقته الكاملة بنفسه "أينشتين!"[1] فقال السيد (بيرليه): "نعم، أينشتين جعل ذلك واضحاً لنا.. أو لعل عزيزى العجوز "هولداين"[2] يمكنه أن

---

(١) ألبرت أينشتين (١٨٧٩ – ١٩٥٥) فيزيائى أمريكى، ألمانى المولد صاحب نظرية النسبية (المترجم)

(٢) جون هولداين (١٨٦٠– ١٩٣٦) فسيولوجى بريطانى (المترجم)

يشرح ذلك لنا ويزيد حيرة باستفاضته فى "هيجليته"[١] العميقة!.. غير أننى لست (هولداين) ولا (أينشتين).. وهانحن هنا فى عالم ما يشتمل من النواحى العملية كل ما يلزمنا لقضاء عطلتنا الأسبوعية!.. إنه عالم "اليوتوبيا" أو المدينة المثالية الفاضلة.. ونظراً؛ لأننى لا أرى طريقة واضحة للخروج منه، فإننى أقترح أن نفكر كمخلوقات عقلانية، ونحاول الاستفادة منه بأكبر قدر ممكن لنا.. وعلينا أن نغتنم أى فرص تتاح لنا.. وبالتأكيد هذا عالم جميل ورائع.. ويبدو أن روعته تفوق غرابته.. كما أنه يوجد هنا بشر ولهم عقول.. ومن واقع كل تلك الأشياء المادية التى حولنا أستطيع القول بأن هذا العالم تجرى فيه تجارب مهمة فى الكيمياء، ويستمر إجراؤها حتى التوصل إلى نتيجة واضحة مهما كانت مرة، وفى ظل ظروف مثالية تقريباً.. نعم الكيمياء والعرى!.. وأجد نفسى مضطراً للاعتراف بأنه سواء كنا ننظر إلى هذين الشخصين – اللذين يبدو أنهما فجرا نفسيهما هنا لسبب أو لآخر – كإلهين إغريقيين أو كهمجيين عريانين.. فإن ذلك يبدو لى أمراً يتوقف على أفكار وتصورات كل منا.. وأنا شخصياً أفضل أن أعتبرهما إلهًا وإلاهة إغريقيين".

---

(١) يقصد أفكار الفيلسوف الألمانى فريدريك هيجل (١٧٧٠ – ١٨٣١) (المترجم)

وقال الرجل ذو النظارة الطبية بصوت جاد وبلهجة تنم عن ثقته بما يقول: "فيما عدا أن هناك مشكلة بسيطة هي التفكير فى شخصين خالدين!".. وكان السيد (بيرليه) على وشك الرد، ولو نظرت إلى تعبير وجهه المنزعج وقتئذ لأدركت أن رده سوف يكون قاسياً.. ولكنه بدلاً من ذلك تعجب بحدة، واستدار لكى يواجه وافدين جديدين.. وفى اللحظة نفسها أدركت المجموعة كلها وجودهما.. ووقف رجلان فائقا الجمال فوق كومة من الأنقاض وحدقا فى أبناء الأرض بذهول وتكلم أحدهما، ودهش السيد (بارنستابل) للغاية عندما وجد كلمات يمكن فهمها تدوى فى عقله.

قال اليوتوبى: "يا إلهى!.. من أنتم؟ وكيف تمكنتم من الدخول فى عالمنا هذا؟.. (إنهم يتحدثون الإنجليزية.. لكن ياللعجب!.. لو تحدثوا باللغة الإغريقية لما أثاروا الدهشة ذاتها التى أثارها تحدثهم بالإنجليزية.. لكن الحقيقة أن تكلمهم بأى لغة معروفة كان أمراً مذهلاً بكل المقاييس).

(٢)

كان السيد (سيسيل بيرليه) أقل المجموعة ارتباكاً، وقال: "الآن.. لعلنا نأمل فى تعلم ما لا جدل فيه عندما نواجه تلك

المخلوقات العاقلة الناطقة".. وتتحنح مخلياً حنجرته.. وأمسك بطيتى صدر سترته الطويلة التى كساها التراب بيديه المتوترتين وتقمص شخصية المتحدث الرسمى وقال: "إننا غير قادرين أيها السادة، على تفسير سبب وجودنا هنا. ونحن متحيرون بشأنه مثلكم تماماً.. وكل ما حدث أننا اكتشفنا وجودنا فجأة فى عالمكم بدلاً من عالمنا".

قال اليوتوبى: "إذن أنتم جئتم من عالم آخر؟".. فقال (بيرليه): "بالضبط.. عالم مختلف تماماً.. نعيش فيه جميعاً حياتنا الطبيعية ولنا منازلنا الخاصة بنا.. وكنا مسافرين فى عالمنا هذا، مستقلين بعض سياراتنا.. آه!.. وفجأة اكتشفنا وجودنا بينكم هنا!.. ولعلك تعتبرنا من الدخلاء أو المتطفلين.. ولكننى أؤكد لك أننا متطفلون أبرياء مسالمون".

قال اليوتوبى: "وهل تجهلون السبب الذى أدى إلى إخفاق (آردن) و(جرنيليك) فى تجربتهما والكيفية التى ماتا بها؟" فقال (بيرليه): "إذا كان (آردن) و(جرنيليك) هما اسما الشاب والشابة الجميلين الملقان هنالك، فنحن لا نعلم أى شىء عنهما بالمرة، باستثناء أننا وجدناهما هكذا كما تريانهما عندما جئنا من الطريق الذى سلكناه لكى نكتشف أو بالأحرى نسأل عن.....".

وتنحنح طويلاً، ولم يكمل جملته وتركها معلقة هكذا.

نظر الآن اليوتوبى، إذا كان من المناسب تسميته هكذا، الذى تكلم أولاً إلى رفيقه، وبدا أنه يسأله.. ثم استدار إلى الأرضيين مرة أخرى، وتكلم، ومرة أخرى دوت تلك الكلمات ليس فى الأذنين – هكذا بدا الأمر للسيد (بارنستابل) – وإنما فى الذهن: "سوف يكون من الأفضل لك ولأصدقائك ألا تطئوا تلك الأنقاض.. وكذلك من الأفضل لكم أن تعودوا أدراجكم إلى الطريق الذى جئتم منه.. والآن تعالوا معي، وسوف يضع أخى نهاية لذلك الحريق ويفعل ما يلزم لأخينا وأختنا.. وبعد ذلك سوف تتم معاينة وفحص هذا المكان من قبل أولئك الذين يفهمون طبيعة الأعمال التى كانت تجرى هنا مؤخراً".

قال السيد (بيرليه): "أظن أننا مضطرون إلى الاعتماد على كرم ضيافتكم.. ونحن تحت تصرفكم تماماً.. وسوف أكرر ما قلته من أن مقابلتنا هذه لم نكن نسعى إليها بل إنها لم تخطر على بالنا قط".. وقال السيد (كاتسكيل) موجهاً كلامه إلى العالم ككل ومحدقاً فى السيد (بارنستابل) كما لو كان يؤكد صحة كلامه: "بالرغم من أننا كنا سوف نبحث عنها إذا كنا نعرف أنه من الممكن حدوثها.. ولقد وجدنا عالمكم هذا جذاباً للغاية فى الحقيقة".. وقال السيد ذو النظارة الطبية مؤيداً: "نعم.. من أول مقابلة وجدنا أن عالمكم رائع ومثير".

عندما استداروا خلال الزهور الكثيفة النامية فى الطريق، على إثر اليوتوبى والسيد (بيرليه)، وجد السيد (بارنستابل) الليدى ستيلا تتحرك بجواره.. وملأته كلماتها، وسط هذا الجو المفعم بالإثارة والغموض، بالدهشة من فرط طبيعتها وهدوئها وصدمتها: "ألم نتقابل من قبل فى مكان ما.. على الغداء أو نحو ذلك.. يا سيد.......... يا سيد.........؟".

ياللعجب!.. أكان كل ذلك مجرد وهم خادع؟.. وحدق فيها مشدوهاً للحظة قبل أن يساعدها: "بارنستابل".. فقالت: "نعم.. السيد (بارنستابل)؟".. وتلاقى عقله مع عقلها وقال: "إننى لم أحظ بهذا الشرف أيتها الليدى (ستيلا).. بالرغم من أننى أعرفك بالطبع.. نعم أعرفك من صورك التى تنشر فى الجرائد الأسبوعية".. فقالت "هل سمعت ما الذى قاله السيد سيسيل آنفاً؟.. بخصوص ما يمكن أن نطلق عليه (اليوتوبيا)!".

قال: "لقد قال إننا نستطيع تسميتها اليوتوبيا".. فقالت "حسناً.. ولكن هل هى يوتوبيا حقيقية؟".. وبدون أن تنتظر الليدى أى رد من السيد (بارنستابل) على سؤالها أردفت: "لطالما اشتقت لأن أعيش فى تلك المدينة المثالية الفاضلة المسماة اليوتوبيا.. ما أروع وأجمل هذين الشابين اليوتوبيين!.. لابد أنهما ينتميان إلى الصفوة الأرستقراطية

العريقة بها.. على الرغم من ملابسهما العادية البسيطـــة.. أو ربما بسببها....".

وخطرت على بال السيد (بارنستابل) فكرة رائعة فقال مقاطعاً إياها: "وأنا أيضاً أعرف السيد (بيرليه) والسيد (روبرت كاتسكيل) أيتها الليدى (ستيلا)، وسوف أكون ممتناً لك؛ لو سمعت منك من هو ذلك الشاب الذى يرتدى نظارة طبية ومن هو ذلك السيد الكهنوتى؟! وهما وراءنا الآن مباشرة".. وعلى الفور نقلت إليه الليدى ستيلا ما تعرفه بكلمات هامسة ساحرة: "الشاب ذو النظارة هو (فريدى موش).. وهو رجل مهذب للغاية.. وبارع جداً فى اكتشاف الشعراء الشباب، وكل شيء يخص الأدب والأدباء.. وهو سكرتير السيد (روبرت).. ولو كانت هناك أى أكاديميات فنية أو أدبية لوجدته فيها.. كما أنه ناقد أدبى بارع وساخر.. ونحن ذاهبون إلى (تابلو) لقضاء عطلة أسبوعية ممتعة للغاية، مثلما كنا نفعل فى الأيام الرائعة الخالية.. وبمجرد ذهاب ساكنو وندسور مرة أخرى.. يأتى السيد (جوس) والسيد (ماكس بيريوم).. وكل الناس الآخرين.. لكن الآن يحدث دائماً شيء ما.. شيء غير متوقع.. وبشكل مبالغ فيه.. أما الرجل الكهنوتى – ونظرت خلفها لكى تتأكد مما إذا كان السيد الذى تتحدث عنه فى مدى السمع أم لا منها – "هو الأب (إمرتون) الذى يتحدث دائماً بشكل بشع عن أخطاء وذنوب المجتمع، وكل هذه

الأشياء.. وهو رجل غريب الأطوار.. لكن بعيداً عن الكنيسة ومجالس الوعظ، تراه رجلاً خجولاً هادئاً، بل ويرتبك قليلاً عند استخدام الشوكة والسكين والملعقة.. إن ذلك محير، أليس كذلك؟".

صاح السيد (بارنستابل): "بالطبع.. إننى أتذكره الآن.. إننى قابلت هذا الوجه ولكننى لا أعرف من هو.. فشكراً جزيلاً لك يا ليدى (ستيلا)".

(٣)

كان هناك إحساس مطمئن جداً لدى السيد (بارنستابل) وهو بصحبة كل أولئك الناس المشهورين، خصوصاً صحبة الليدى (ستيلا).. وكانت فى الحقيقة قوية العزم وتوحى بالثقة.. وأحضرت معها الكثير من العالم القديم العزيز علينا.. كما أنها كانت مستعدة تماماً لقهر هذا العالم الجديد وفقاً لمعاييره وقواعده فى أول فرصة ممكنة.. وتفادت الكثير من الغرائب والمحاسن التى هددت بغمر السيد (بارنستابل) كلية. والواقع أن مقابلة امرأة مثلها هى ورفقتها كان فى حد ذاته، بالنسبة إلى رجل فى مركزه، مغامرة صغيرة ولكن مهمة بحيث ساعدته فى عبور الهوة الفاصلة بين ممارسات حياته العادية القلقة، وهذا العالم اليوتوبى الرائع المثير.

لو كان السيد (بارنستابل) بمفرده فى عالم اليوتوبيا، لتملكه رعب شديد أفضى به إلى الخبل العقلي.. إن هذه المخلوقة السامية السمراء الودودة البسيطة التى تتبادل الآن طرح الأسئلة مع السيد (بيرليه) أصبحت متاحة عقلياً من خلال تدخل هذا الإنسان العظيم. وقد أعطت مصداقية كاملة لتلك الروعة المتألقة التى تحيط بهم.

غير أن اهتمام السيد (بارنستابل) تحول وهو يكاد يحبس أنفاسه من ركاب السيارة الليموزين إلى العالم السامى النبيل الذى هبطوا فيه.. ترى ما طبيعة أولئك الرجال والنساء الذين ينتمون إلى هذا العالم الذى يبدو أن النباتات والأعشاب الضارة توقفت عن النمو فيه ومزاحمة الزهور.. حيث تنظر النمور الخالية من خبث الوحوش الضارية بعيون مسالمة إلى أى مسافر يمر بها؟.

والشيء المذهل أن أول ساكنين يجدانهما فى هذا العالم كانا ميتين، أو ضحيتين كما يبدو لتجربة خطرة إلى حد ما.. لكن الأغرب من ذلك أن هذين الشخصين الآخرين، اللذين يقولان إنهما أخوان للميتين لم يظهرا أى حزن أو هلع على تلك المأساة.. فقد لاحظ السيد (بارنستابل) عدم وجود أى انفعال أو بكاء منهما.. ومن الواضح أنهما كانا متحيرين ومهتمين بالأمر أكثر من الحزن أو الهلع.

أما اليوتوبى الذى بقى وسط الأنقاض، فقد حمل جثمان الفتاة ووضعه بجوار رفيقها.. ورأى السيد (بارنستابل) الآن أنه عاد إلى معاينة وفحص كل الحطام الذى بقى من التجربة.. وبدأ المزيد من أولئك الناس يحضرون إلى مسرح الأحداث.. وكان لديهم طائرات فى هذا العالم، لأن طائرتين صغيرتين وسريعتين، ولا تصدران أى ضجيج، هبطتا فى الحقول المجاورة.. وأقبل رجل من الطريق راكباً آلة غريبة ذات مقعدين وعجلتين كالدراجة تماماً.. بيد أنها أكثر خفة فى الوزن وأناقة فى المظهر من أية سيارة أو مركبة أرضية، كما أن بمقدورها الوقوف على عجلتيها.

وتناهى إلى سمع السيد (بارنستابل) سلسلة من الضحكات تأتى من الطريق، جذبت اهتمامه إلى مجموعة من أولئك اليوتوبيين الذين يبدو أنهم وجدوا شيئاً مضحكاً للغاية فى محرك السيارة الليموزين!.. وكان أكثر أولئك الناس يرتدون القليل جداً من الثياب، وفى نفس جمال الشخصين الميتين اللذين لقيا حتفهما أثناء إجراء تلك التجربة.. إلا أن واحداً أو اثنين منهما كانا يرتديان قبعات من القش.. وامرأة كبيرة فى الثلاثين أو أكثر ترتدى ثوباً أبيض ذا حافة من خط أحمر كثيف.. وأخذت الآن تكلم السيد (بيرليه).. ورغم أنها كانت تبعد عنه بمسافة نحو عشرين ياردة، إلا أن حديثها وصل بوضوح شديد إلى عقل السيد (بارنستابل): "إننا لا نعرف قط حتى الآن ما إذا كانت هناك أية علاقة

بين مجيئكم إلى عالمنا هذا والانفجار الذى حدث لتوه هنا.. وما هى تلك العلاقة بالضبط؟.. إننا نريد أن نحقق فى كلا هذين الأمرين.. ونحن نرى أن المناسب هو أخذكم جميعاً مع متعلقاتكم التى أحضرتموها معكم إلى مكان يصلح لعقد مؤتمر وغير بعيد من هنا.. ولعلكم تتناولون هناك بعض الطعام.. ولكننى لا أعرف بالضبط ما أنواع الطعام التى تفضلونها؟".

قال السيد (بيرليه) وهو سعيد بطرحه لتلك الفكرة "المرطبات.. نعم بعض المشروبات الخفيفة سوف نرحب بها تماماً.. والحقيقة أننا لو لم نسقط فى عالمكم هذا بسرعة غير متوقعة من عالمنا، لكنا فى هذا الوقت نتناول طعام غذائنا.. وبخاصة فى أفضل صحبة معنا".

وحدث السيد (بارنستابل) نفسه قائلاً: "الغرائب والغذاء".. فالإنسان مخلوق عليه أن يأكل بحكم الضرورة، سواء كان متعجباً أم لا.. وأدرك السيد (بارنستابل) بالفعل أنه جائع، وأن الهواء الذى يتنفسه منعش وفاتح للشهية.. ويبدو أن اليوتوبية خطرت على ذهنها فكرة جديدة: "هل تأكلون عدة مرات كل يوم؟ وما أصناف الطعام التى تأكلونها؟.. فصاح السيد "موش" مبدياً اعتراضه وسقطت نظارته من على عينه قائلاً: "يا إلهى!.. بالطبع!.. لابد أنهم ليسوا نباتيين!". كانوا كلهم جوعى، وظهر ذلك واضحاً على وجوههم.

قال السيد (بيرليه): "إننا معتادون جميعاً على تناول الطعام عدة مرات فى اليوم الواحد.. ولعله من الأصوب أن أعطيكم موجزاً بنظامى الغذائى اليومى.. وبالطبع هناك بعض الاختلافات.. نحن نبدأ عادة بكوب شاى وقطعة رقيقة من الخبز والزبد نتناولها ونحن مازلنا فى فراشنا.. ثم يأتى بعد ذلك الإفطار".. واستمر الرجل يقص فى إيجاز رائع تسلسل طعامه الراقى اليومى، موضحاً ومركزاً على جميع تفاصيل الإفطار الإنجليزى: البيض.. يتم سلقه لمدة أربع دقائق ونصف، لا أكثر ولا أقل، والغداء.. مع خمر خفيفة، والشاى.. لأى لقاء اجتماعى وليس كوجبة جادة، والعشاء.. بتفصيل أكثر، ثم التناول - نادر الحدوث - لوجبة ما قبل النوم.. وكان ذلك الشرح الواضح سوف يسعد مجلس العموم[١] ويثير اهتمامه لو ألقى أمامه!

أصغت إليه المرأة اليوتوبية باهتمام شديد وهو يتكلم حتى فرغ من حديثه وسألته: "وهل كلكم تأكلون بهذه الطريقة نفسها؟".. مر السيد (بيرليه) ببصره على أفراد مجموعته وقال: "لا أستطيع أن أتكلم باسم السيد....... السيد.....؟".. فقال السيد (بارنستابل): "(بارنستابل).. نعم إننى آكل بهذه الطريقة ذاتها. ولسبب ما ابتسمت

(١) ممثلو الشعب فى المملكة المتحدة (المترجم).

له المرأة اليوتوبية.. كانت لها عينان بنيتان رائعتان.. ورغم أنه أحب ضحكتها هذه، إلا أنه تمنى ألا تبتسم له بهذه الطريقة.

ثم سألت "وهل تنامون؟".. فقال السيد (بيرليه) : "نعم من ست إلى عشر ساعات.. بحسب الظروف".. فسألت "وهل تمارسون الحب؟".. غير أن هذا السؤال المفاجئ أربك مجموعة الأرضيين، بل صدمهم إلى حد ما.. ترى ما إذا كانت تعنى بالضبط؟.. ولبعض الوقت لم يرد عليها أحد.. ودارت بسرعة فى عقل السيد (بارنستابل) دوامة من الاحتمالات الغريبة.. ثم بادر السيد (بيرليه)، بما لديه من ذكاء حاد ومراوغة يتميز بها أى قائد معاصر، بالإدلاء بدلوه وقال: "ليس باستمرار، يمكننى أن أؤكد لك ذلك.. ليس باستمرار"..

بدت المرأة ذات الثوب المحوط بشريط أحمر تفكر فى تلك الإجابة للحظة.. ثم ابتسمت ابتسامة خافتة.. وقالت: "سوف نأخذكم الآن إلى مكان ما، حيث يمكنكم أن تتكلمون عن كل تلك الأشياء.. والواضح لنا أنكم جئتم من عالم آخر عجيب حقاً.. إن علماءنا يجب أن يجلسوا معكم لتبادل الآراء والأفكار".

(٤)

في تمام العاشرة والنصف من صباح ذلك اليوم، كان السيد (بارنستابل) يقود سيارته على الطريق الرئيسي المار بسلاو.. والآن في الساعة الواحدة والنصف نجده يحلق فوق أراض برية شاسعة، وقد نسي تقريباً عالمه الذي قدم منه.. وكرر قائلاً لنفسه: "عظيم.. عظيم.. كنت أعرف أنني سوف أقضي عطلة أسبوعية رائعة.. ولكن هذا.. هذا......!".

كان مبتهجاً للغاية بتلك السعادة المشرقة لهذا الحلم المثالي.. فهو لم يتمتع أبداً من قبل بارتياد مناطق جديدة.. كما أنه لم يأمل قط من قبل في تجربة تلك الأحاسيس المبهجة.. وقبل بضعة أسابيع فقط كتب مقالة بجريدة "الليبرالي" تتحسر على "نهاية عصر الاستكشاف".. وهي مقالة محبطة إلى حد كبير وعقيمة؛ لدرجة أنها أعجبت السيد (بيف) للغاية. وتذكر تلك المأثرة الآن، ولكن بأقل قدر ممكن من الإحساس بتأنيب الضمير.

توزعت الجماعة الأرضية بين أربع طائرات صغيرة.. وعندما ارتفع السيد (بارنستابل) ورفيقة الأب (أمرتون) في الجو، نظر خلفه فرأى السيدات والمتاع يتم رفعهما بسهولة مدهشة إلى داخل شاحنتين خفيفتين.. وفردت كل شاحنة منهما ذراعين لامعين رفعا السيارة بكل سهولة مثلما ترفع المرضعة طفلها.

وبمقاييس السلامة الأرضية المعاصرة، فإن طيار السيد (بارنستابل) طار على ارتفاع منخفض للغاية.. بل إنه فى بعض الأوقات انطلق بين الأشجار وليس فوقها.. ورغم أن ذلك كان مخيفاً قليلاً فى البداية، إلا أنه سمح للجميع بالمعاينة الدقيقة للمعالم الأرضية لهذا العالم العجيب عن قرب. وفى الجزء الأول من الرحلة كانت الأرض عبارة عن مراعٍ تقتات عليها قطعان الماشية الصفراء.. ورقعات أرضية تنمو بها نباتات ملونة زاهية ذات طبيعة مجهولة للسيد (بارنستابل) ووسط تلك النباتات تغلغلت بعض المسارات الضيقة المتعرجة، التى لعلها جهزت هكذا للمشاة أو الدراجات.. وهنا وهناك يمتد طريق تحفه الزهور من الجانبين وتظلله أشجار الفاكهة الضخمة.

كانت هناك بعض المنازل، ولكن بلا أى بلدان أو قرى.. وتراوحت المنازل كثيرا من حيث الحجم من بضعة مبان منعزلة، اعتقد السيد (بارنستابل) أنها قد تكون منتجعات صيفية رائعة أو معابد صغيرة، إلى مجموعات من الأسقف أو الأسطح أو الأبراج الصغيرة التى ذكرته بشاليهات الريف، أو أوحت إليه بوجود مزارع واسعة أو مؤسسات إنتاج منتجات الألبان وبيعها.. وهنا وهناك يعمل الناس فى الحقول أو يتحركون على أقدامهم أو آلاتهم..

لكن الإنطباع العام الذى يخطر للمرء هو أن تلك المناطق تفتقر إلى المزيد والمزيد من السكان.

أصبح، الآن، واضحاً لهم أنهم على وشك عبور سلسلة من الجبال التى يكسوها الجليد، حجبت فجأة المشهد البعيد لقلعة وندسور من الرؤية، وعندما اقتربوا من تلك الجبال، امتدت رقعات واسعة من مزارع الذرة ذهبية اللون، بحيث حلت محل المراعى الخضراء، وبدأت الزراعات تصبح أكثر تنوعاً.. ولاحظ وجود مزارع كروم على المنحدرات المشمسة، وبدأ يرى أعداداً أكبر من العاملين والسكان.

انطلق السرب الصغير من الطائرات فوق واد واسع باتجاه ممر بين الجبال، وتمكن السيد (بارنستابل) من إنعام النظر فى المشاهد الجبلية الرائعة.. وعبروا فوق غابات من أشجار الكستناء ثم أشجار الصنوبر، وكانت هناك توربينات هائلة على جوانب أبراج مشيدة فوق الجبال، ومبان كثيرة طويلة ومنخفضة، وبها نوافذ كثيرة لعلها بعض المنشآت الصناعية.. ثم رأى طريقاً متدرجاً ببراعة، وعليه جسور قوية وخفيفة رائعة الجمال، يتجه إلى ناحية الممر الجبلى.. وبدأ عدد الناس يزداد فى تلك المناطق المرتفعة عنه فى الأراضى السابقة المنخفضة.. على الرغم من أن تلك الأعداد مازالت أقل من تلك التى نراها عادة فى أية مناطق ريفية مماثلة لها على كوكب الأرض.

مرت عشر دقائق من المناطق المقفرة التى تكثر فيها المنحدرات الصخرية الوعرة، ومناطق الجليد المقترنة بنهر جليدى ضخم على أحد الجانبين، قبل هبوطهم فى واد مرتفع بأرض المؤتمرات. كـــانت تلك المنطقـــة أشبـــه بفجـــوة أو "حصن" فى الجبل تحوطه الصخور المنحدرة.. حتى أنه بدا كجزء جيولوجى من الجبل ذاته.. ويطل هذا الموقع على بحيرة صناعية واسعة، يحجزها سد هائل عن الامتدادات المنخفضة للوادى.. وعلى فواصل بامتداد هذا السد توجد أعمدة حجرية ضخمة توحى إلى حد ما بوجود أشخاص جالسين. ولمح سهلاً واسعاً وراء السد، ذكره بوادى (بو).. وعندما هبط.. وجد أن الخط المستقيم للسد يحجب الرؤية أكثر من ذلك.

وفوق تلك المصاطب الصخرية المحوطة للموقع، خصوصاً على المصاطب المنخفضة منها، انتشرت مجموعات كعناقيد الزهور من المبانى.. وتمكن من تمييز ممرات ودرجات سلالم وحمامات سباحة كما لو أن المكان بأكمله حديقة ما.. وهبطت الطائرات بسهولة على رقعة عشبية.. ورأى فيلا أنيقة وقريبة مشيدة على شواطئ البحيرة وعابرة للبحيرة بأكملها، وتعمل كمرسى لأسطول صغير من القوارب الملونة الأنيقة.

ولفت الأب (أمرتون) نظر السيد (بارنستابل) إلى عدم وجود أية قرى.. وأضاف أنه لا يرى أى كنيسة، بل لا يوجد مكان به أبراج عالية رفيعة أو أبراج الأجراس فى الكنائس.. لكن السيد (بارنستابل) اعتقد أن بعض المبانى الصغيرة ربما تكون معابد أو مزارات مقدسة.. وقال: لعل الدين هنا يتخذ أشكالاً مختلفة عما نعرفه".. فقال الأب (إمرتون): "ولكن العجيب أن الأطفال والصغار غير موجودين بالمرة.. إننى لم أر أبداً أماً ومعها طفل هنا".

قال السيد بارنستابل: "فى الجانب الآخر من الجبال يوجد مكان يشبه ملعباً بمدرسة كبيرة.. وهناك أطفال بصحبة واحد أو اثنين من الكبار المرتدين ملابس بيضاء".. فقال الأب (امرتون): "رأيت ذلك، لكتنى أفكر فى الأطفال.. قارن هذا بما يمكن أن تراه فى إيطاليا مثلاً".. وتريث السيد الموقر برهة ثم واصل: ".. الشابات هنا فى منتهى الجمال والأنوثة.. والإثارة.. لكن لا توجد أية علامة على الأمومة!.. ما أعجب ذلك".

ساعدهما الطيار، وهو رجل أشقر أزرق العينين لونت الشمس بشرته، على الهبوط من الطائرة، ووقفا يراقبان هبوط بقية أفراد المجموعة.. وتعجب السيد (بارنستابل) من سرعة تكيفه واعتياده على ألوان وتناسق هذا العالم الجديد.. ولكن أغرب الأشياء فى المشهد كله الآن هى أشكال وملابس رفاقه.. السيد (روبرت

كاتسكيل) فى سترته الرمادية الشهيرة، السيد (موش) ونظارته العجيبة، النحافة الغريبة للسيد (بيرليه)، غطاء الرأس المربع المبطن بالجلد لسائق السيد (بيرليه).. كل ذلك صدمه إذ كان شيئاً لا يصدق فى هذه البيئة اليوتوبية المثالية المحيطة بهم.

وأدى اهتمام وسرور الطيار إلى مساعدة السيد (بارنستابل) على تفهم غرابة رفاقه.. ثم لم تلبث أن غمرته موجة من الشك.. وقال للأب (إمرتون): "أعتقد أن كل ما نراه الآن حقيقى.. أليس كذلك؟"، :"نعم حقيقى! إذ ماذا يمكن أن يكون بخلاف ذلك؟"، : "أظن أننا لا نحلم بكل ذلك"، :"وهل من الممكن أن تتفق أحلامك وأحلامى إلى هذا الحد"، :"نعم، ولكن هناك أشياء عجيبة ومستحيلة.. يستحيل حدوثها"، :"أذكر مثالاً"، "حسنا!.. كيف يمكن لأولئك الناس أن يتكلموا معنا بلغة انجليزية معاصرة صحيحة؟"، :"إننى أفكر فى هذا الأمر.. إنه شيء محير فعلاً.. فهم لا يتكلمون الانجليزية مع بعضهم البعض كما ترى".

حدّق السيد (بارنستابل) فى ذهول فاغرًا فاه فى الأب (إمرتون)، بعد أن خطر على باله لأول مرة حقيقة أخرى أغرب مما سواها، وقال له: "إنهم لا يكلمون بعضهم البعض فى أى شيء.. ولم نلحظ ذلك إلا الآن!".

الفصل الرابع

شبح أينشتين يسقط على القصة.. ولكن كضيف خفيف عليها

فيما عدا حقيقة واحدة محيرة، هي أن كل أولئك اليوتوبيين يجيدون اللغة الإنجليزية الاصطلاحية إجادة تامة، وجد السيد (بارنستابل) أن رؤيته لهذا العالم الجديد تتطور بشكل متسق مع الأحداث على نحو لم يتحقق قط فى حياته ولا أحلامه.. ووجد أن هذا العالم مترابط منطقياً ومنظم للغاية، بحيث أخذت غرابته تقل تدريجياً.. وبدأ الإحساس لديه يزداد بوصوله إلى دولة أجنبية ولكنها متحضرة للغاية.

وبتوجيه من المرأة بنية العينين وذات الثوب القرمزى الحافة، تم استقرار الأرضيين فى مساكنهم بالقرب من قاعة المؤتمرات، بشكل يتسم بحسن الضيافة وفى أماكن أنيقة مجهزة بأفخر وأبهى الأثاث والرياش. وتولى خمسة أو ستة من الشباب والفتيات تلقين الغرباء جميع تفاصيل الحياة الاجتماعية والمنزلية اليوتوبية. وتكون كل منزل

من المنازل المنفصلة التى أقاموا بها، حجرة ملبس صغيرة، وسرير عليه ملاءات من أفخر أنواع الكتان ومفرش منتفخ خفيف للغاية.. داخل رواق مسقوف مفتوح من الجانب.. وظنت الليدى (ستيلا) أنه مفتوح أكثر مما ينبغى.. ثم قالت: " إن المرء يشعر بالأمان هنا".. وسرعان ما جاء المتاع والحقائب والمتعلقات.. كما لو أنهم فى أحد القصور الأرضية الفخمة التى تتسم بحسن الضيافة.

غير أن الليدى (ستيلا) اضطرت لإخراج شابين ودودين من شقتها قبل أن تتمكن من فتح حقيبة ملابسها، وإخراج بعض المرطبات لبشرتها منها. وبعد بضع دقائق ارتفعت ضحكات عنيفة وأصوات صراع ودود ولكن هستيرى من مسكن الليدى (ستيلا).. والذى حدث أن الفتاة التى ظلت معها أبدت اهتماماً نسائياً شديداً بمتعلقاتها، وعثرت على رداء نوم ساحر وشفاف. ولسبب غامض فتن هذا الرداء الرقيق الشابة اليوتوبية للغاية.. وبذلت الليدى (ستيلا) جهداً كبيراً لمنعها من ارتدائه للرقص به فى استعراض عام.

قالت الفتاة بإصرار: "ولكنك أنت ترتدينه".. فصاحت الليدى (ستيلا): "لكنك لا تفهمين.. إنه خاص جداً!.. ولا يجب أن يراه أحد قط!".. فسألت الفتاة اليوتوبية بدهشة فائقة: "لكن لماذا؟".. ووجدت الليدى (ستيلا) أن الإجابة عن هذا السؤال تبدو مستحيلة.

الوجبة الخفيفة التي أعقبت ذلك كانت، بالمقاييس الأرضية، رائعة للغاية.. واختفى قلق السيد (فريدى) تماماً.. إذ كان هناك دجاج بارد ولحم خنزير وفطيرة لحم شهية جداً.. كما كان هناك خبز خشن ولكن لذيذ الطعم.. وزبد صاف.. وسلاطة معدة بعناية وفاكهة وجبن جروبير ونبيذ أبيض خفيف استحق ثناء السيد (بيرليه): " إنه ألذ خمر شربته فى حياتى". سألته المرأة ذات الثوب أحمر الحافة: "هل وجدت طعامنا يشبه طعامكم؟".. فقال السيد (موش) وفمه شبه ممتلئ بالطعام: "إنه لذيذ ورائع جداً".. فقالت: "لقد تغير الطعام قليلاً جداً فى الثلاثة آلاف عام الأخيرة.. إن الناس توصلوا إلى أفضل الأطعمة قبل عصر الارتباك والحيرة بوقت طويل".

قال السيد (بارنستابل) مكرراً لنفسه: "إنه لذيذ جداً.. إنه لذيذ جداً".

ونظر إلى رفاقه فى بهجة وزهو واهتمام.. وواصل طعامه بارتياح تام. ولولا حماقة أولئك اليوتوبيين فى التحدث بالإنجليزية بوضوح يدق كالمطرقة داخل رأس السيد (بارنستابل)، لما كان يساوره أدنى شك فى حقيقة كل شيء حوله.

لم يقم أى خادم بخدمتهم على الطاولة الحجرية العارية من أى غطاء.. إذ إن المرأة ذات الثوب الأبيض والأحمر والطيارين

شاركوهم فى الوجبة، واهتم الضيوف بتلبية طلبات بعضهم البعض.. وأما سائق السيد (بيرليه) فتحرك بخجل إلى طاولة أخرى، غير أن رجل الدولة الكبير أوقفه وقال له: "اجلس هنا يا (بينك).. بجوار السيد (موش)".

وأقبل يوتوبيون آخرون بوجوه ودودة؛ ولكن بعيون تراقب خفية كل شيء يتعلق بالأرضيين، إلى داخل الشرفة الكبيرة ذات الأعمدة التى أقيمت المأدبة بها.. وابتسموا جميعاً واتخذوا أماكنهم وقوفاً أو جلوساً.. ولم يحدث بينهم أى تقديمات أو تعارفات.. وإنما القليل فقط من المجاملات الاجتماعية.. وقال السيد (بيرليه): "إن كل هذا يبعث على الطمأنينة والارتياح.. الارتياح الشديد.. ولزاماً علىّ أن أقول: إن هذه الوجبة أفضل مما يقدم فى أرقى شواطئ ومنتجعات العالم.. لكن: هل هذه قشدة يا عزيزى روبرت، فى ذلك الطبق البنى الصغير الذى أمامك؟.. إننى أعتقد ذلك.. إذا كنت تعتقد أنه بوسعك الإبقاء على بعضها يا (روبرت).. شكراً لك".

(٢)

قدم الكثير من اليوتوبيين أنفسهم بأسمائهم للأرضيين.. كل أصواتهم بدت متشابهة تماماً فى أذنى السيد (بارنستابل) وكانت

كلماتهم واضحة للغاية.. وكانت المرأة بنية العينين تدعى (ليكنيس).. أما الرجل ذو اللحية، الذى ظن السيد (بارنستابل) أنه فى نحو الأربعين من العمر، فكان يدعى إمـــا (أورثريد) أو (آدم) أو (إيدوم).. إذ أن اسمه رغم وضوح نطقه لم يكن من السهل لفظه.

وتحدث (أورثريد) وقال: إنه عالم بأعراق السلالات ومؤرخ، وأنه يتوق إلى تعلم كل ما يمكنه عن طرق حياتنا ومعيشتنا، وقد أثر فى السيد (بارنستابل) باعتباره يتميز بالسلوكيات البسيطة لأى رأسمالى أرضى أو مالك لصحيفة كبرى، بدلاً من التردد الطبيعى الذى يلازم أى شخص متعلم فى عالمنا الأرضى.

وهناك مضيف آخر هو (سربنتين)، الذى عرف السيد (بارنستابل) لدهشته، ولأن سلوكه أيضاً كان رفيعاً جداً، إنه أحد العلماء.. وقال: إنه يلقب بشىء ما لم يتمكن السيد (بارنستابل) من إدراكه. فى البداية بدا له أنه "ميكانيكى ذرى" لكن الغريب أنه ظهر له بعد ذلك أنه "كيميائى جزيئى".. وعندئذ سمع السيد (بارنستابل) السيد (بيرليه) يقول إلى السيد (موش): "لقد قال "كيميائى فيزيائى.. أليس كذلك؟ فقال السيد (موش): "أعتقد أنه سمى نفسه أحد أنصار المذهب المادى".. فقالت الليدى (ستيلا): "أعتقد أنه قال: إنه يقوم بوزن الأشياء".. وقال السيد (بيرليه): "إن تنغيمهم فى النطق غريب

بالنسبة لنا.. فأحياناً تكون مخارج الألفاظ عالية وواضحة، وأحياناً تكون ثمة فجوات بين الأصوات المنطوقة".

عندما انتهت الوجبة، انتقلت المجموعة بأكملها إلى مبنى صغير آخر يبدو أنه مخطط للدروس والمناقشات.وكان به إنشاء بارز نصف دائرى تدور حوله سلسلة من لوحات بيضاء، من الواضح أنها تستخدم أحياناً كسبورات للمحاضرين، لأنه توجد أقلام رصاصية سوداء وملونة و"بشاورات" قماشية للمسح على بروز رخامى أسفل اللوحات عند ارتفاع مناسب ويمكن للمحاضر التحرك من نقطة إلى أخرى من هذه الدائرة، وهو يتحدث. وجلست كل من (ليكنيس) و(أورثريد) و(سربنتين) والأرضيين كلهم على مقعد نصف دائرى أسفل حيز المحاضر.. وكانت المقاعد التى أمامهم تكفى لجلوس حوالى ثمانين أو مئة من الأشخاص. كل تلك الأماكن كانت مشغولة، ووراءها وقف عدد من المجموعات الجميلة أمام خلفية من شجيرات (الدفلى)[1].. ولمح السيد (بارنستابل) بينها ممرات عشبية تفضى إلى مياه البحيرة اللامعة.

كانوا على وشك مناقشة ذلك الاقتحام العجيب غير المسبوق لعالمهم اليوتوبى.. هل هناك شيء أكثر عقلانية من مناقشة ذلك

---

(١) شجيرات دائمة الخضرة ذات عناقيد زهرية متعددة الألوان (المترجم).

الموضوع؟ وهل هناك شيء أكثر استحالة من ذلك؟.. وقال السيد (موش) فجأة هامساً فى أذن السيد (بارنستابل): "من العجيب ألا توجد هنا أى طيور خاصة (السنونو).. وإننى أتساءل ما سبب ذلك؟".. وتوجه اهتمام السيد (بارنستابل) إلى السماء الخالية وغمغم قائلا: "وربما لا يوجد أيضاً أى بعوضات أو ذبابات".. وكان غريباً أنه لم يفتقد الطيور قبل ذلك. وقالت الليدى (ستيلا): "انصتوا يا رفاق.. إنه سيبدأ".

(٣)

وبدأ هذا المؤتمر العجيب.. وافتتحه الرجل المسمى (سربنتين) الذى وقف أمام الحضور وبدا أنه على وشك إلقاء خطبة.. تحركت شفتاه، وساعدت يداه فى التعبير عما يريد أن يقوله.. وكانت تعبيراته تلى نطقه.. بيد أن السيد (بارنستابل) كانت لديه شكوك قوية جداً فى أن (سربنتين) يتكلم فعلاً.. كان ثمة شيء غريب فى كل الموضوع.. وأحياناً كان ما يقوله يحدث رنيناً بطريقة خاصة فى رأسه.. وأحياناً كان يبدو غير واضح ومحير مثل جسم تراه من خلال ماء مضطرب.. وأحياناً أخرى كانت هناك وقفات وصمت تام، ورغم استمرار تحريك (سربنتين) ليديه الرقيقتين ونظره باتجاه مستمعيه،

وبدا كما لو أن السيد (بارنستابل) أصيب بالصمم لفترات قصيرة.. ومع ذلك فقد كان ما حدث خطاباً كاملاً.. كما أنه جذب اهتمام السيد (بارنستابل) به.

وكان (سربنتين) شخصاً يبذل جهداً مضنياً لكى يكون بسيطاً وواضحاً قدر إمكانه، مهما كان تعقيد أو صعوبة الموضوع الذى يتناوله.. وهو يتكلم، إذا جاز التعبير، عارضاً أفكاره مع التوقف قليلاً بينها.. وبدأ بقوله: "من المعروف منذ وقت طويل أن عدد الأبعاد الممكنة مثلها مثل العدد الممكن لأى شىء آخر يمكن عـده أو حصره، غير محدودا".

فهم السيد (بارنستابل) ذلك، إلا أنه كان عسير الفهم بالنسبة للسيد (فريدى موش)، الذى لم يلبث أن قال: "يا إله السماوات!.. أبعاد!.. ما معنى هذا؟".. وأسقط نظارته ثم أصبح قانطاً وغير متجاوب بالمرة.

واصل السيد (سربنتين) خطابه: "من الناحية العملية، فإن عالمنا أو نظامنا الخاص من الأحداث الذى وجدنا أنفسنا جزءاً منه، يمكن أن ننظر إليه باعتباره يحدث فى فضاء من ثلاثة أبعاد مستقيمة، وأن استمراره يتوقف على وجود بعد رابع هو الزمن.. ومثل هذا النظام من الأحداث هو بالضرورة نظام تجاذبى". وقال

السيد (بيرليه) فجأة: "سيدى! معذرة.. إننى لا أفهم ذلك".. وبذلك أثبت على الأقل أنه يتابع المحاضرة! بيد أن السيد (سربنتين) واصل حديثه مكرراً كلامه، كما لو كان يؤكد حقيقة واضحة من تلقاء ذاتها: "أى كون يبقى فى الوجود يجب أن تسود فيه قوى الجاذبية".

قال السيد (بيرليه) بعد لحظة من التفكير: "لعمرى إننى لا أفهم شيئاً من هذا كله".. وحدق فيه سربنتين للحظة ثم قال "هذه هى الحقيقة" ثم واصل خطابه قائلا: "إن عقولنا تكونت ونشأت من خلال التصور والفهم العملى للأشياء وقبولها كما هى. وفقط بواسطة الجهود الضخمة التى بذلت فى التحليلات الدقيقة المستمرة تمكننا من إدراك أن الكون الذى نعيش فيه يتمدد.. وفى الوقت نفسه ينثنى أو يلتوى قليلاً!.. فى عدد من الأبعاد الفراغية الطويلة غير المتوقعة. إن كوننا يتمدد لما بعد أبعاده الفضائية الرئيسية الثلاثة إلى تلك الأبعاد الأخرى، بالضبط مثلما تتحدد صحيفة رقيقة من الورق، والتى لها من الناحية العملية بعدان، ليس فقط بسبب سمكها ولكن أيضاً بسبب تغضنها أو تقوسها فى بعد ثالث".

قالت الليدى (ستيلا) بصوت أقرب إلى الهمس "هل أصبت بالصمم؟ إننى لا أسمع كلمة واحدة مما يقوله الرجل".. وأسرع الأب إمرتون بالقول: "ولا أنا أيضاً".. وأشار السيد (بيرليه) إلى هذين البائسين لتهدئتهما، بدون أن يغيب وجه (سربنتين) عن ناظريه. وعقد السيد

(بارنستابل) ما بين حاجبيه وأمسك بركبتيه وشبك أصابعه فى بعضها البعض وجثم مكانه فى قنوط.. ولابد أنه كان يستمع.. بالطبع كان يستمع!

واصل (سربنتين) حديثه قائلاً إنه : "مثلما يمكن لأى عدد من العوالم ثنائية الأبعاد عملياً أن ترقد بجوار بعضها البعض مثل صحائف الأوراق فى فضاء ثلاثى الأبعاد، فكذلك فى الفضاء متعدد الأبعاد الذى مازال عقلنا البشرى القاصر يكتسب ببطء وصعوبة عنه. يمكن لأى عدد كان من العوالم أو الأكوان ثلاثية الأبعاد عملياً، أن ترقد – إذا جاز هذا التعبير – بجوار بعضها البعض، وأن تتحرك حركة متوازية تقريباً خلال الزمن".

"ومنذ وقت طويل شكلت الدراسات التأملية لكل من (لونستون) و(سفالوس)[١] أساساً قوياً للاعتقاد بأن هناك بالفعل عددًا كبيرًا من مثل تلك العوالم الزمكانية[٢] المتماثلة والموازية لبعضها البعض.. وهى فى ذلك تشبه إلى حد كبير صفحات الكتاب التى تشبه بعضها بعضاً.. وكل عالم منها له أمد معين.. وكلها عبارة عن أنظمة ذات جاذبية"..

---

(١) عالمان يوتوبيان مجهولين لنا (المترجم)

(٢) الزمكان: تسلسل الابعاد الثلاثة (الطول والعرض والارتفاع) والبعد الرابع (الزمن) والتى تقع فيها جميع الأحداث المادية (المترجم).

(هز السيد (بيرليه) رأسه تعبيراً عن عدم فهمه).

"وتلك الأكوان أو العوالم المتجاورة تشبه تقريباً بعضها البعض.. وبقدر تقاربها من بعضها البعض تتاح لها فرص للتعلم.. وقد بذل العبقريان الفذان (آردن) و(جرينليك) جهوداً هائلة لاستغلال الدفع غير المسموع للذرة فى تدوير جزء من الكون المادى اليوتوبى فى هذا البعد – المسمى البعد (ف) – المعروف أنه يمتد فيه منذ وقت طويل بطول يعادل ذراع الإنسان تقريباً، وثبت أن تدوير هذا الجزء من المادة اليوتوبية، مثل فتح بوابة ما بحيث تدور على مفصلاتها، تم بنجاح تام.. بيد أن تلك البوابة ارتدت، وهى تدور وانقفلت ساحبة معها هبة من الهواء المكتوم وعاصفة من التراب ومعهما شيئا أثار الدهشة الحقة لليوتوبيين.. هو ثلاث مجموعات من الزوار من عالم مجهول تماماً"..

همس السيد (بارنستابل) فى ارتياب: "ثلاثة؟.. هل قال "ثلاثة؟".. (إلا أن سربنتين تجاهل ملاحظته هذه).

"قتل أخونا وأختنا نتيجة انطلاق قوة ما غير متوقعة.. غير أن تجربتهما فتحت لنا باباً يجب ألا نغلقه مرة أخرى بأى حال من الأحوال.. باب مكننا من كسر القيود الفضائية الحالية لعالمنا اليوتوبى والانفتاح على الكثير من العوالم التى كنا نجهلها حتى الآن.. إنها

عوالم قريبة منا وفى متناول أيدينا.. بل إنها أقرب إلينا – كما توقع (لونستون) منذ عصور مضت – من الدماء التى تسرى فى أجسادنا".

(وهنا استيقظ الأب "إمرتون" وكرر بعض كلام المتحدث ولكن بشكل خاطئ: "أقرب إلينا من أنفاسنا وأيدينا وأرجلنا". ياللغرابة!.. ما الذى يتحدث عنه هذا الرجل؟.. إننى لا أعى شيئاً مما يقول).

"لقد اكتشفنا كوكباً جديداً.. فى حجم كوكبنا نفسه تقريباً من واقع عدد سكانه.. ويمكننا أن نتصور أنه يدور حول إحدى الشموس مثل تلك الموجودة فى سماواتنا.. كوكب يقل مخلوقات حية.. ويخضع ببطء، مثلما يخضع كوكبنا ذاته، لسيطرة كائنات عاقلة من الواضح أنها نشأت وتطورت فى ظل ظروف مماثلة تماماً لظروف نشأتنا وتطورنا هنا.. غير أن هذا الكون الشقيق لنا.. إذا حكمنا عليه من مظاهره فقط – يسير فيه الزمن بمعدل أبطأ من معدله هنا.. فزوارنا مثلاً يرتدون الملابس ذاتها ويتسمون بنفس الخصائص الجسدية المشابهة لأجدادنا الأوائل إبان عصر الحيرة والاضطراب.

"ولا يتوفر لنا الآن مبرر قوى للزعم بأن تاريخهم مماثل لتاريخنا.. إذ لا يوجد قط جسميان ماديان متماثلاين تماماً ولا ذبذبتيان متماثلتين تماماً.. وفى كل أبعاد الوجود، وفى كل العوالم والأكوان التى خلقها الله، لم ولن يوجد أى تكرار متطابق تماماً..

وهذا الذى أدركناه هو شيء مستحيل.. ومع ذلك، فإن هذا الكوكب المسمى "الأرض" من الواضح أنه قريب جداً منا ويشبه عالمنا هذا..

"ونحن نتوق لكى نتعلم منكم أيها الأرضيون.. ونستعرض تاريخنا الـذى مـا زلنا نجهله إلى حد كبير من واقع خبراتنا وممارساتنا.. ونبين لكم ما نعرفه نحن. ونتعرف على ما هو ممكن ومناسب للاتصال فيما بيننا وأوجه التعاون والمساعدة بين شعب كوكبكم وشعبنا. ونحن هنا مجرد فى أول سلم المعرفة.. ولم نعرف تقريباً أى شيء أكثر من نطاق الأشياء التى يجب علينا معرفتها وعملها. ولعل شعبينا يقومان - فى مليون موضوع مشترك بيننا - بتعليم ومساعدة بعضنا بعضاً.

"ويحتمل أن هناك عوامل وراثية فى كوكبكم توقفت عن التطور أو اختفت فى كوكبنا.. ومن المحتمل أن هناك عناصر فى أحد الكوكبين تكون نادرة أو مطلوبة فى الكوكب الآخر.. وتركيب ذراتكم.. يمكن لكوكبنا أن يتزاوجا.. بما يحقق الرفاهية المشتركة لهما....".

ثم بدأ كلامه يصبح غير مسموع، فى الوقت الذى كان فيه السيد (بارنستابل) متحرقاً وتواقاً لمتابعة ما يقوله.. غير أن أى رجل أصم كان بوسعه القول بأنه مازال يتكلم!.. ونظر السيد (بارنستابل)

فى عينى السيد (روبرت كاتسكيل) فوجده مكروباً ومتحيراً مثله.. أما الأب (إمرتون) فقد دفن وجهه بين كفيه.. بينما كانت الليدى (ستيلا) والسيد (موش) يتهامسان لبعضهما البعض بهدوء.. إذ أنهما توقفا منذ وقت طويل عن التظاهر بالاستماع.

وفجأة بدأ صوت المدعو (سربنتين) يصبح مسموعاً مرة أخرى: "وهذا هو أول تفسير مبدئى لنا لظهوركم العجيب فى عالمنا وأيضاً لاحتمالات التفاعل المتبادل فيما بيننا.. ولقد حاولت أن أطرح أفكارى عليكم بأقصى ما يمكننى من تبسيط وإيضاح.. وأقترح الآن: أن يقوم أحدكم بالشرح البسيط والواضح لما تعتقدون أنه الحقيقة بشأن كوكبكم.. بالنسبة لكوكبنا".

الفصل الخامس

حكم وتاريخ الكوكب اليوتوبى

سادت فترة من الصمت الثقيل.. ونظر الأرضيون إلى بعضهم البعض.. وتركزت كل نظراتهم تقريباً على السيد (سيسيل بيرليه).. وتظاهر السياسى المحنك بأنه لا يدرى شيئاً عما هو متوقع منه.. وقال: "(روبرت).. ألا تتقدم؟".. فقال السيد (كاتسكيل): "إننى أحتفظ لنفسى بتعليقاتى".. فقال السياسى: "أيها الأب (إمرتون).. إنك معتاد على التعامل مع العوالم الأخرى". فأجاب الأب: "ولكن ليس فى وجودك يا سيد (سيسيل).. إننى أعتذر".. فقال السياسى: "ولكن ما الذى يجب أن أقوله لهم؟".. فقال السيد (بارنستابل): "كل ما تعتقده أو تراه فيه".. وقال السيد (كاتسكيل): "بالضبط.. قل لهم كل ما تعتقده أو تراه فيه".

لم يظهر أن فى الساحة شخصًا آخر جديرًا بالاختيار غيره.. وقام السيد (بيرليه) ببطء، وسار، وهو مشغول الفكر إلى مركز

النصف دائرة.. وأمسك بطيتى سترته، ووقف للحظات ووجهه ناظرا إلى أسفل كما لو كان يفكر بعمق فيما سيقوله. ثم بدأ أخيراً، وهو يبدى وجهاً صريحاً وينظر إلى السماء الزرقاء فوق البحيرة البعيدة من وراء نظارته: "أيها السيد (سربنتين).. سيداتى وسادتى.....".

كان الرجل على وشك أن يلقى خطاباً!.. كما لو كان يقف أمام الحاضرين فى وليمة مقامة بحديقة (بريمورس ليج) أو فى (جنيف).. كان ذلك شيئاً غريباً، ولكن ما الذى يمكن أن يفعله المرء فى مثل تلك الظروف؟.

"يجب أن أعترف يا سيدى بأننى على الرغم من خبرتى بالحديث أمام جمهور من الناس، إلا أننى أجد نفسى الآن متحيراً إلى حد ما.. ذلك أن حديثك الرائع يا سيدى، الذى تميز بالدقة والوضوح والصراحة.. والذى صيغت بعض أجزائه بفصاحة غير متكلفة، قد صعّب من مهمتى فى مجاراته وجعلنى أشعر بالهياب من الموقف.. وأنتم تطلبون منى أن أخبركم ببساطة ووضوح بقدر الإمكان عن مجمل الحقائق التى نعرفها عن ذلك الكوكب الشقيق لكم، الذى قدمنا منه – رغماً عنا – إلى كوكبكم هذا..

"وفى حدود قدراتى المتواضعة لفهم أو مناقشة مثل تلك الأمور العويصة والمعقدة، فإننى لا أعتقد أنه بمقدورى أن أتفوق على، أو حتى

أضيف بأى شكل من الأشكال، إلى عرضكم الرائع للجوانب الرياضية فى موضوعنا هذا.. إذ أن ما قلتموه لنا يتضمن أحدث وأرقى الأفكار فى العلوم الأرضية.. ويتجاوز فى الحقيقة نطاق أفكارنا الحالية.. ولكن فى بعض الجوانب، مثل العلاقة بين الزمن والجاذبية، فإننى مضطر للقول بأننى لست متفقاً معك.. والحقيقة أن ذلك ليس اختلافاً موضوعياً معكم، بل هو على الأرجح يعبر عن عدم فهمى لموقفكم الذى عرضتموه.

"ولكن فى حدود الإطار الواسع للقضية، لا أظن أن هناك خلافات أو اعتراضات فيما بيننا.. فنحن نقبل أطروحاتكم الرئيسة بلا تحفظات.. وتحديداً تصورنا أننا نعيش فى كوكب مماثل لكوكبكم، أو كوكب شقيق لكوكبكم.. والحقيقة أنه مشابه لكوكبكم بشكل مدهش، بغض النظر عن بعض الاختلافات التى وجدناها هنا. ونحن مشدودون ، وميالون بقوة لقبول، وجهة نظركم بأن عالمنا هو فى كل الاحتمالات أقل حنكة ونضجاً منكم ببضع مئات أو آلاف من السنوات التى اكتسبتم فيها المزيد من الخبرات..

"وبافتراض صحة ذلك التصور، يصبح من الضرورى يا سيدى أن نشعر بتواضع مستوانا بالنسبة إليكم.. وباعتبارنا أدنى درجة منكم، فمن الطبيعى أن نتعلم منكم لا أن نعلمكم.. ونحن هنا نتساءل: ما الذى

فعلتموه؟.. وما الذى توصلتم إليه؟.. بدلاً من أن نعرض عليكم، بغطرسة تتضمن جهلاً، كل ما يتبقى علينا تعلمه وعمله..".

قال السيد (بارنستابل) لنفسه ولكن بصوت نصف مسموع "لا!.. لابد أن هذا حلم.. فلو كان شيئاً آخر.." وفرك عينيه بمفصلات أصابعه وفتحهما مرة أخرى.. فوجد نفسه مازال جالساً بجوار السيد (موش) وسط تلك الشخصيات المهيبة.. والسيد (بيرليه)، ذلك السياسى الداهية الذى يشك فى كل شيء، والذى لم يؤمن قط أو يندهش من شيء ما، متكئاً على أصابع قدميه إلى الأمام ويتحدث بثقة واقتدار لا يتوفران إلا لرجل ألقى آلاف الخطب والأحاديث.. لم يكن واثقاً قط من نفسه ولا من الحضور فى قاعة (جيلد هول) بلندن مثلما هو الآن.. ثم انهم يفهمونه!.. وهذا أعجب ما فى الأمر!

لم يكن أمام السيد (بارنستابل) شيئاً يفعله سوى الاندماج فى هذا الموقف العجيب غير المعقول والجلوس والإنصات.. وأحياناً كان عقله يشرد عما يقوله السيد (بيرليه). ثم يعود ويتابع فى يأس خطابه.. وعندما كان السيد (بيرليه) يتوقف عن الحديث بطريقته البرلمانية، كانت يداه تعبثان بنظارته أو تتعلقان بطيتى سترته. وأخذ السيد (بيرليه) يشرح لليوتوبيين موجزاً مختصراً عن كوكب البشر، محاولاً بقدر إمكانه أن يكون بسيطاً وواضحاً ومعقولاً.. وحدثهم عن الدول والإمبراطوريات، والحروب، والحرب العظمى، والتنظيم

الاقتصادى وأيضاً الكساد الاقتصادى، والثورات والحركات البلشفية والشيوعية، المجاعة الرهيبة التى بدأت تنشب مخالبها فى روسيا، صعوبة العثور على سياسيين ومسئولين مخلصين وأمناء، وعدم جدوى الجرائد والصحف، جميع مظاهر الضعف والخلل والفساد فى حياة الناس.. وكان (سربنتين) قد استخدم التعبير "آخر عصور الفوضى" فى حديثه، وكذلك استخدم السيد (بيرليه) هذا التعبير نفسه وكرره مراراً وتكراراً.

كانت خطبة السيد (بيرليه) المرتجلة رائعة حقاً.. ولابد أنها استمرت لنحو ساعة.. وأنصت اليوتوبيون إليها باهتمام وانتباه شديدين.. ومن وقت إلى آخر يهزون رؤوسهم علامة على موافقتهم وتقديرهم لهذه العبارة أو تلك.. وألحت على ذهن السيد (بارنستابل) فكرة: "لعل هذا نفسه ما حدث لنا.. فى عصر الفوضى".

وأخيراً، وبحنكة البرلمانى القديم، أنهى السيد (بيرليه) حديثه.. وحياه الحضور.. وانحنى لهم.. بعد أن أدى ما عليه بجدارة.. وأدهش السيد (موش) الجميع بالتصفيق الشديد الذى لم يشاركه فيه أحد.. وفى تلك اللحظة بلغ التوتر فى ذهن السيد (بارنستابل) حداً لا يمكنه تحمله.. ولذلك وثب واقفاً على قدميه.

(٢)

وقف الرجل وقام ببعض الإشارات والإيماءات لجذب الاهتمام والتعاطف معه، وكانت طبيعية بالنسبة لمتحدث غير محنك مثله، وقال: "سيداتي وسادتي.. اليوتوبيون.. السيد بيرليه!.. أرجو المعذرة للحظة.. هناك موضوع بسيط.. لكن عاجل".. وتوقف عن الكلام لفترة قصيرة.. ثم لاحظ في عيني (أورثريد) الاهتمام والتشجيع، فاستطرد: "هناك شيء لا أستطيع فهمه.. شيء عجيب جداً.. أقصد شيئاً متعارضاً أو متنافراً – مثل الشق الضيق في الصخر – يحول أي شيء إلى تخيلات وأطياف غريبة متغيرة.. وسلسلة من الأوهام تتعاقب في الذهن".

أصبح الآن التفكير والتشجيع واضحين في عيني (أورثريد) الذكيتين.. وتخلى السيد (بارنستابل) عن محاولته التحدث إلى الحضور ككل، وبدأ يتحدث مباشرة إلى (أورثريد) وقال: "إنكم تعيشون هنا في اليوتوبيا، متقدمين عنا بمئات الآلاف من السنين.. فكيف إذن تتحدثون بلغتنا الإنجليزية المعاصرة؟.. أقصد أنكم تستخدمون اللغة ذاتها التي نستخدمها.. وأنا أسألك الآن: كيف حدث هذا؟ إنه شيء لا يصدق.. إنه شيء غير مفهوم.. إنه يجعلكم كالحلم أو الخيال.. ولكن أنتم لستم حلماً؟.. إن ذلك يكاد يذهب بعقلي".

ابتسم (أورثريد) بلطف وقال: "إننا لا نتحدث الإنجليزية!".. وعندئذ شعر السيد (بارنستابل) بالأرض تنزاح من تحت قدميه وقال: "يا للعجب!.. إننى أسمعك الآن تحدثنى بالإنجليزية".. فقال (أورثريد): "ومع ذلك فإننا لا نتحدث بها". وازدادت ابتسامته اتساعاً وأردف: "إننا في الأحوال العادية لا نتحدث قط!".. غير أن السيد (بارنستابل)، بعد أن كاد عقله يتوقف عن التفكير، استمر مبدياً اهتمامه واحترامه لما يقال.. وواصل (أورثريد) حديثه قائلاً: "منذ عصور مضت كنا نتكلم بالطبع بلغات معينة.. وكنا نخرج أصواتاً ونسمع تلك الأصوات.. واعتاد الناس على التفكير، واختاروا وأعدوا كلمات معينة لكى ينطقوها ويتواصلوا فيما بينهم بها.. وسمع الناس تلك الأصوات وسجلوها وترجموها إلى أفكار..".

"ثم بعد ذلك بدأ الناس، بطريقة ما لا نفهمها بالضبط حتى الآن، فى فهم الفكرة قبل التعبير عنها بكلمات أو نطقها بالصوت!.. نعم، بدأوا يسمعون فى عقولهم الأفكار بمجرد ترتيب المتحدث لها فى ذهنه وقبل أن يلبسها ثوب الكلمات حتى فى عقله ذاته.. أى أنهم عرفوا ما سيقوله المرء قبل أن يقوله.. والآن أصبح هذا الانتقال الفكرى المباشر شائعاً بين الناس.. واكتشف الناس أنه بوسعهم التواصل مع بعضهم البعض بأقل جهد ممكن بهذه الطريقة، وسرعان ما تطورت طريقة الاتصال الجديدة بشكل منتظم..".

"هذا هو ما نفعله الآن بشكل عادى فى كوكبنا هذا.. إننا نفكر مباشرة إلى بعضنا البعض.. ونحن نقرر نقل أفكارنا ونجد أنها تنتقل على الفور.. شريطة ألا تكون مسافة النقل كبيرة جداً.. ونحن لا نستعمل الأصوات في عالمنا هذا الآن، إلا فى الشعر والمسرات واللحظات العاطفية أو للصياح من على مسافة أو لإصدار الأوامر لحيواناتنا، ولكن ليس لنقل الأفكار من عقل بشرى إلى عقل بشرى آخر من نفس طبيعته..

"وعندما أطلق فكرة إليك أنت بالذات، فإن فكرتى – طالما أنها تجد أفكاراً مناظرة لها وكلمات متماثلة معها فى ذهنك – لسوف تنعكس في عقلك.. والذى يحدث أن فكرتى تجد صدى لها فى عقلك، وهذه هى الكلمات التى سوف تسمعها.. وبالطبع سوف تكون بنفس لغتك ونفس عباراتك أو تعبيراتك التى ألفتها.. ومن المحتمل جداً أن يسمع أفراد جماعتك ما أقوله لك الآن.. ولكن مع بعض الاختلافات حسب الكلمات والتعبيرات الموجودة فى عقل كل منهم..".

كان السيد (بارنستابل) يقاطع الحديث بإيماءات ذكية من وقت لآخر كادت تصل إلى حد إيقاف المتحدث.. والآن انفجر قائلا: "وهذا ما يحدث من وقت لآخر.. مثلاً عندما تحدث السيد (سربنتين) فى خطبته الرائعة الآن.. عندما صدرت أفكار معينة لم يكن لها أدنى أثر فى عقولنا، فإننا لم نسمع شيئاً على الإطلاق".. فسأله (أورثريد): "هل كانت

هناك مثل تلك الفراغات؟".. فقال السيد (بيرليه): "أخشى أنه كانت هناك فراغات كثيرة بالنسبة إلينا جميعاً".. وقالت الليدى (ستيلا): "كنت أشعر أننى كالصماء فى كثير من المواضع".. وكذلك أومأ الأب (إمرتون) رأسه موافقاً.. وقال: "وهذا هو السبب فى أننا لم نستطع التأكد مما إذا كان اسم أحدكم (أورثريد) أو (آدم).. وفى أننى وجدت نفسى أخلط بين (آردن) و(جرينيتزيز) و(فورست) فى عقلى".

قال (أورثريد): "أرجو أن تكون عقولكم ارتاحت الآن أكثر من ذى قبل".. فقال السيد (بارنستابل): "نعم كثيراً.. ولو وضعنا فى اعتبارنا كل الأشياء معاً، فإنه من المريح حقاً لنا أن نجد هذه الطريقة من نقل الأفكار مناسبة لنا.. وإلا فإننى لا أرى طريقة تتجنب إضاعة أسابيع من المشاكل اللغوية، ومعرفة أسس قواعد النحو والصرف لكل من لغتينا، بالإضافة إلى مبادئ المنطق والدلالات اللغوية وهلم جرا، وهى أشياء مملة ومضجرة فى جملتها، قبل أن نتمكن من التواصل مع بعضنا البعض مثلما نجد حالياً من الفهم المتبادل بيننا".

وقال السيد (بيرليه) وهو يلتفت ناحية (بارنستابل) بطريقة ودية حميمة: "إن هذه نقطة بالغة الأهمية بالتأكيد.. ولم أكن لألحظها لولا أنك لفت انتباهى إليها.. إنه أمر عجيب حقاً.. لم ألحظ شيئاً كهذا من قبل.. أقصد هذا الاختلاف.. أعترف بأن فكرى كان مشغولاً

بأفكارى الخاصة.. وكنت أعتقد أنهم يتكلمون الإنجليزية مثلنا.. نعم هذا أمر مفروغ منه".

(٣)

بدا للسيد (بارنستابل) أن هذا العالم الرائع أصبح كاملاً لدرجة أنه لا يوجد أمر آخر يمكن توقعه، فيما عدا التأكد من مصداقيته المطلقة. وجلس فى مسكنه الصغير الجميل ينظر إلى زهور أرض الأحلام والبحيرة المتوهجة بضوء الشمس وسط هذا المزيج الغريب من أزياء العطلة الأسبوعية الإنجليزية، وذلك العرى المهيب الذى توقف بالفعل عن ترويعه.. ثم أنصت، وشارك من وقت إلى آخر، فى المحادثة الطويلة غير الرسمية التى تجرى الآن.

كانت تلك مناقشة قد ألقت الضوء على أكثر الاختلافات الرئيسية والمدهشة فى الاعتبارات الأخلاقية والاجتماعية، غير أن كل شيء أصبح الآن حقيقة رائعة، مما جعل من الطبيعى تماماً افتراض أنه سيتوجه على الفور إلى منزله ليكتب عنه فى (الليبرالى)، ويخبر زوجته بكل ما هو مقبول فى ذلك الوقت عن الأحوال والعادات السائدة فى ذلك الكوكب المجهول حتى وقتنا هذا..

كما أنه ليس لديه الإحساس ببعد المسافات. إن (سيدنهام) لابد أنها قريبة جداً من هنا!

الآن تقوم فتاتان حسناوان بعمل الشاى على جهاز خاص، بين نباتات الدفلى الوردية، وتوزعانه على الحاضرين.. شاى!.. إنه ما نسميه نحن الشاى الصينى، وهو لذيذ جداً ويقدم فى أكواب صغيرة بدون أيدى، كعادة الصينيين، إلا أنه شاى حقيقى ومنعش جداً.

أول الموضوعات التى أثارت فضول الأرضيين كانت وسائل أو طرق الحكم.. وكان ذلك طبيعياً جداً فى وجود رجلىّ دولة بارزين مثل السيد (بيرليه) والسيد (كاتسكيل). وسأل السيد (بيرليه): "ما نوع الحكم لديكم هنا.. هل هو حكم ملكى أم استبدادى أم ديمقراطى؟.. وهل تفصلون بين السلطتين التنفيذية والتشريعية؟.. وهل لديكم حكومة مركزية واحدة لكوكبكم بأكمله، أم أن هناك مراكز حكومية متعددة؟".

ووصل إلى عقل السيد (بيرليه) ورفاقه، ببعض الصعوبة، أنه لا توجد أى حكومة مركزية فى اليوتوبيا على الإطلاق.. فقال السيد (بيرليه): "لكن بالتأكيد هناك شخص ما أو هيئة ما، مثل مجلس أو مكتب أو دائرة حكومية أو ما شابه ذلك.. فى مكان ما هنا، حيث يتم اتخاذ القرارات النهائية فى حالات العمل الجماعى من أجل المصلحة

العامة؟.. إذ لابد من وجود جهاز أو مقر معين للسلطة العليا، حسبما يبدو ضرورياً من وجهة نظرى.. أليس كذلك؟".

ونفى اليوتوبيون ذلك، وأفادوا بعدم وجود التمركز للسلطة فى كوكبهم.. وقالوا إنه كان موجوداً فيما مضى، غير أنه ذاب مع الوقت فى البنية العامة للمجتمع.. وأنه يتم اتخاذ القرارات فى أى موضوع بمعرفة الناس المختصين به والذين يعرفون الكثير عنه.. فقال (بيرليه): "لكن أفترض أنه قرار يجب أن يشارك فيه الجميع، مثلاً.. قانون يؤثر على الصحة العامة للناس.. فماذا يحدث إذن؟.. ومن الذى يفرض أو ينفذ هذا القانون؟".. فقال اليوتوبيون: "لا داعى لأن يفرضه أحد.. ليس هناك داع إلى ذلك!".. فقال (بيرليه): "ولكن أفترض أن شخصاً ما عارضه أو رفض تنفيذه؟".. فقال اليوتوبيون "علينا أن نتقصى سبب رفض هذا الرجل أو هذه المرأة له وعدم الامتثال له.. لابد أن هناك سبباً غير عادى أدى إلى ذلك".

قال (بيرليه): "وإذا لم تتوصلوا إلى سبب ما، فماذا أنتم فاعلون؟".. قال اليوتوبيون: "يجب أن نفحص صحته العقلية والمعنوية".. فقال (بيرليه): "إذن يلعب طبيب الأمراض العقلية عندكم دور رجل الشرطة عندنا".. وعقّب السيد (روبرت كاتسكيل): "إننى أفضل فى الحقيقة رجل الشرطة".. وقال السيد (بيرليه): "نعم: أنت ترى ذلك يا (روبرت)" كمن يريد أن يقوله فى الحقيقة" لقد جانبك

الصواب هذه المرة يا عزيزى".. ثم أردف مخاطباً اليوتوبيين وعلى وجهه تعبير ينم عن فهم عميق: "إذن أنتم تقصدون القول بأن كل جوانب حياتكم وشئونكم تديرها هيئات أو منظمات خاصة – والحقيقة أننى أجهل ماذا تسمونها بالضبط – بدون أى تعاون مشترك أو تنسيق فيما بينها وبين بعضها بعضاً؟".

قال (أورثريد): "إن أنشطة عالمنا يتم تنسيقها لضمان تحقيق الحريات العامة.. فنحن لدينا عدد من جهات الاستخبارات التى تعنى بالميول والاتجاهات النفسية العامة لجنسنا، وبالتفاعل المتبادل بين أى وظيفة جماعية وغيرها".. فقال السيد (بيرليه): "ألا تعتبر مجموعة الاستخبارات هذه هيئة حاكمة؟".. فقال (أورثريد): "ليس بمعنى أنها تمارس إرادة أو فرض شىء معين.. إنها تتعامل مع العلاقات العامة، هذا كل ما هناك.. لكن ليس لها سلطة أعلى من ذلك.. وليس لها فى هذا الأمر أى أفضلية مثلما لا توجد أى أفضلية للفيلسوف على الخبير العلمى".

قال السيد (بيرليه): "إن هذه جمهورية حقيقية.. لكننى لا أستطيع أن أتصور كيف تدير شئونها ولا كيف نشأت أصلاً.. لعلها دولتكم ذات طبيعة اشتراكية صحيحة؟".. فقال اليوتوبيون: "إنكم تعيشون فى عالم يمتلك بعض الناس فيه كل شىء باستثناء الهواء والطرقات العامة والبحار المفتوحة والصحارى والقفار.. أليس

كذلك؟".. فقال السيد (كاتسكيل): "نعم هذا صحيح.. فما عدا ذلك يملكه الناس ويتنافسون عليه".

قال اليوتوبيون: "لقد مررنا بتلك المرحلة مثلكم.. ووجدنا فى آخر الأمر أن الممتلكات الخاصة فى كل شيء، فيما عدا الأمور الخاصة جداً، كانت السبب فى وجود مضايقات ومنغصات للبشرية.. ولذلك تخلصنا من كل هذا.. فمثلاً الفنان أو العَالِم له السيطرة الكاملة على كل المواد والأدوات اللازمة له، فكلنا يمتلك أدواته وأجهزته.. الخ ويحتفظ بها فى حجرات أو أماكن خاصة به.. لكن لا توجد أى ملكية خاصة فى التجارة أو الفكر.. وكل المعدات القتالية وممتلكات المناورات والعمليات العسكرية تم التخلص منها.. لكن كيف تخلصنا منها، فهذه قصة طويلة.. وتم تنفيذها فى بضع سنوات.

"إن المبالغة فى إنشاء ممتلكات خاصة، كانت مرحلة طبيعية وضرورية فى تطور الطبيعة البشرية.. ولقد قادت – على أقل تقدير – إلى نتائج خطيرة ورهيبة.. غير أن هذه النتائج المأساوية المروعة كانت هى الطريقة الوحيدة الممكنة لكى يتعلم الإنسان مدى احتياجه إلى قيود وضوابط للملكية الفردية بالإضافة إلى طبيعة تلك القيود والضوابط".

اتخذ السيد (بيرليه) وضعاً كان واضحاً أنه معتاد عليه.. فقد جلس منخفضاً فى مقعده وساقاه متعارضتان أمامه، بينما وضع إبهام وأصابع إحدى يديه بدقة شديدة مقابل تلك ليده الأخرى.. وقال: "يجب أن أعترف بأننى مقتنع بذلك الشكل الغريب من الفوضوية[1] السائدة هنا.. وما لم أكن أخطأت فهمكم تماماً، فإن كل شخص هنا يهتم بعمله فقط كموظف في الدولة.. وأفهم أن لديكم – وعليك أن تصحح لى إذا كان فهمى خاطئاً – عدداً كبيراً من الناس الذين يعملون على إنتاج وتوزيع وتحضير الطعام.. وهم بالطبع يتعرفون على احتياجات الناس ويلبونها.. وهم الرقباء على أنفسهم فى طريقة أداء أعمالهم.. فهم يجرون الأبحاث والتجارب، ولا أحد يجبرهم على عمل شيء ما أو يقيد قدراتهم فى عمله، أو يحول بينهم وبين القيام به". وهنا قال (أورثريد) وعلى شفتيه ابتسامة خافتة: "الناس يتكلمون معهم ويناقشونهم فيه فقط".

".. وكذلك ينتج آخرون ويصنعون ويدرسون جميع أنواع المعادن، وهم كذلك يتصرفون كما يشاءون.. ويقوم آخرون بالعناية بمدى صلاحية كوكبنا للسكن، فيخططون وينظمون المستعمرات السكنية الراقية ويحددون من الذى سيستخدمها وكيف يستخدمها.. كما

---

(١) المذهب الفوضوى القائل بعدم فائدة الحكومة (المترجم).

يقوم آخرون بالبحث العلمى الصرف.. ويجرى آخرون تجارب للإمكانات الحسية والخيالية وهم فنانون.. كما يقوم آخرون بالتدريس".. قالت ليكنيس: "إن هذا رائع، فكل مجموعة لها دور مهم".

:"وكل الناس يعملون فى تآلف وانسجام وكل يقوم بما عليه.. بدون أى قوانين أو تشريعات مركزية ولا تنفيذية.. وأنا أعترف أن كل ذلك يستحق الإعجاب.. ولكنه مستحيل!.. ولم يقترح أحد قط شيئاً من هذا القبيل فى عالمنا الذى جئنا منه".

قال السيد بارنستابل: "لكن الاشتراكيين النقابيين الذين ناصروا إنشاء نقابات التجار اقترحوا شيئاً كهذا منذ وقت طويل جداً مضى"..فقال السيد (بيرليه): "يا إلهى! إننى أعرف القليل جداً عن هؤلاء الاشتراكيين.. ترى من كانوا؟ هلا أخبرتنى بذلك؟".

بيد أن السيد بارنستابل تملص ضمنيا من هذه المهمة وأردف قائلا:"هذه الفكرة مألوفة تماماً للشباب.. ويصفها (لاسكى)[1] بأنها الدولة الجماعية، تمييزاً لها عن الدولة الفردية التى تتركز فيها السلطة فى يد شخص واحد. وحتى الصينيون كان لديهم هذا النظام..

---

(١) هارولد لاسكى (١٨٩٣ – ١٩٥٠) مؤلف سياسى واقتصادى، ترأس حزب العمل البريطانى فى الفترة من ١٩٤٥ – ١٩٤٦ (المترجم)

وكتب أستاذ جامعى من بكين، هو السيد س. ك شانج، كتيباً عما يسميه "الاحترافية". وأنا قرأت هذا الكتاب منذ بضع أسابيع فقط، بعدما أرسل الكتيب إلى جريدة الليبرالى. وهو يوضح عدم جدوى وعدم ضرورة مرور الصين بمرحلة السياسات الديمقراطية نفسها التى مر بها العالم الغربى.. وهو يدعو الصين إلى الاتجاه مباشرة إلى الاستقلال المتناغم مع الطبقات الوظيفية مثل الحكام ورجال الصناعة والعمال الزراعيين وهلم جرا، تماماً مثلما نجدها هنا فى اليوتوبيا، على الرغم من أن ذلك يتطلب بالطبع ثورة تعليمية.. وبعبارة أخرى فإن بذرة ما يحدث هنا من فوضوية موجودة أيضاً فى العالم الذى جئنا منه".

قال السيد (بيرليه) وهو يبدو أكثر فهماً وإدراكاً وتقديراً عن ذى قبل: " يا إله السماوات! هل الأمر هكذا؟. لم يكن لدى أدنى فكرة......!".

(٤)

استمرت المحادثة بشكل متقطع، ومع ذلك كان تبادل الأفكار سريعاً وفعالاً.. وبدا السيد (بارنستابل) على نحو فورى تقريباً أن مجمل تاريخ اليوتوبيا، من آخر عصور الارتباك والفوضى وحتى

الوقت الحاضر أصبح واضحاً في ذهنه. وكلما ازداد ما يعرفه عن آخر عصور الفوضى كلما بدا له تشابهه مع العصر الحالى على الأرض. ففى تلك الأيام العصيبة كان اليوتوبيون يرتدون ملابساً وافرة ويعيشون فى مدن كالتى توجد على الأرض تماماً. وأدى تآمر "موفق" من الأحداث، وليس أى تخطيط مدبر، إلى فتح قرون من الفرص الرائعة والتوسع أمامهم. إذ ابتسمت الظروف المناخية والأحداث السياسية لجنسهم بعد فترة طويلة من القصور المستمر والمتكرر.

ولأول مرة أصبح اليوتوبيون قادرين على ارتياد كل جزء على الكوكب الذى يعيشون عليه، وأثمرت تلك الاستكشافات فى العثور على مناطق عذراء ضخمة تم تعميرها وزراعتها. وزادت بقدر هائل ثرواتهم الحقيقية وأوقات فراغهم وحريتهم. وتم تسامى الكثير من الآلاف من القذارة والفساد والبؤس التى تتسم بهم الحياة البشرية إلى مراتب أو وظائف يمكنهم منها - إذا أرادوا - أن يفكروا أو يتصرفوا بحرية غير مسبوقة. والحقيقة أن قليلاً منهم فقط هوالذى فعل ذلك.

وبدأ عصر من البحث والتطور العلمى الهائل، وتبعه عدد وفير من الاختراعات المبدعة التى حققت اتساعاً ضخماً وفعالية كبيرة للقدرة البشرية الفعلية. وقبل ذلك كانت هناك ثورات سابقة للعلماء والمفكرين فى اليوتوبيا، ولكن لم يحدث أى منها فى مثل تلك

الظروف المواتية أو استمر طويلاً بمايكفى لكى يحقق ثماراً عملية ملموسة على نطاق واسع. والآن وخلال قرنين فقط تمكن اليوتوبيون - الذين كانوا حتى ذلك الوقت يزحفون فى أرجاء كوكبهم كنمل أخرق بطئ، أو يسافرون متطفلين على حيوانات أكبر وأسرع منهم - من الطيران بسرعة أو التحدث لحظياً مع بعضهم البعض فى جميع أرجاء كوكبهم.

كذلك وجدوا أنفسهم مسيطرين على طاقة آلية، على نطاق فاق كل الممارسات السابقة، ولم يقتصر الأمر على الآلات وإنما تطورت جميع العلوم وبخاصة علم النفس وعلم وظائف الأعضاء فى دوامة الثورة التى حدثت فى علمى الفيزياء والكيمياء، ولم يلبث اليوتوبيون أن دانت لهم إمكانات وفرص مروّعة للسيطرة الكاملة على أجسامهم وحياتهم الاجتماعية كلها.

غير أن تلك الأشياء تحققت - وذلك عندما تحققت أخيراً - بسرعة واضطراب شديدين لدرجة أن أقلية قليلة فقط من الناس هى التى أدركت تلك الإمكانات المتوقعة، تفرقة لها عن الإنجازات الهائلة التى تحققت بالفعل، لهذا التوسع الهائل قدر الإمكان لأفكارهم وأنماط حياتهم لكى تتسق وتتكيف مع الضرورات والأحوال الجديدة التى تتطلبها أو تنطوى عليها تلك البدع الحديثة.

أول استجابة لجماهير اليوتوبيا العريضة لإمكانات تلك القوى الآلية الهائلة وأوقات الفراغ والحرية التى تكشفت أمامهم، كان التوالد والتكاثر!.. نعم، لقد تصرفوا بشكل آلى ولا مبالى مثل أى سلالة حيوانية أو نباتية لا أكثر!.. وزاد عددهم كثيراً حتى التهموا واستنفذوا كل الفرص الكثيرة التى لاحت لهم.. لقد أنفقوا كل المنح العلمية التى دانت لهم بنفس بالسرعة ذاتها التى حصلوا بها عليها، من خلال التكالب الأحمق على ماديات الحياة والأمور اليومية التافهة فيها. وذات مرة فى آخر عصور الفوضى وصل تعداد سكان اليوتوبيا إلى ما يزيد على ألفى مليون نسمة".

سال السيد (بيرليه): "ولكن ما عددهم الآن يا ترى؟".. فأخبره اليوتوبيون بأنه حوالى مائتين وخمسون مليوناً فقط. وهذا أكبر عدد من السكان يمكنهم أن يعيشوا حياة رغدة طيبة على سطح كوكبهم "اليوتوبيا".. ولكن الآن مع زيادة المصادر والإمكانات، بدأ التعداد يزداد مرة أخرى.. وهنا صدرت شهقة ذعر من الأب (إمرتون).. فقد كان يخشى من حدوث ذلك لبعض الوقت.. وصدم ذلك الأسس والمبادئ الأخلاقية لديه.. وقال: "وهل تجرؤون على تنظيم تلك الزيادة!.. أى تنظيم النسل أو تحديده!.. أى هل توافق نساؤكم على حمل الأطفال بحسب الطلب أو تمتنع عن ذلك؟!".. فقال (أورثريد): "بالطبع.. ولم لا؟".

فقال الأب (إمرتون) وهو يستند إلى الأمام ويغطى وجهه بيديه، بصوت خفيض أقرب إلى الغمغمة: "كنت أخشى ذلك كثيراً.. لقد أحسست بذلك فى الهواء هنا!.. مزرعة تربية البشر!.. رفض خلق أرواح!.. إن الشر كامن هنا.. أوه.. يا إله السماوات،".. وحدق السيد (بيرليه) بإمعان فى العاطفة الجياشة للسيد الموقر من وراء نظارته وعلى وجهه يرتسم تعبير بالصدمة.. كان يكره الشعارات.. غير أن الأب (إمرتون) كان يمثل المحافظين من ذوى الشأن فى المجتمع.

استدار السيد (بيرليه) إلى اليوتوبى من جديد وقال له: "هذا مثير للغاية بالفعل، وحتى فى وقتنا الحالى فإن أرضنا تدبر لحمل تعداد من البشر يصل على الأقل إلى خمسة أمثال هذا العدد".. فقال اليوتوبى: "لكن مائتى مليون من الناس سوف يجوعون فى هذا الشتاء.. كما قلتم لنا منذ قليل.. فى مكان يسمى روسيا.. ونسبة صغيرة جداً فقط من الباقين تعيش حسب قولكم فى رغد وبحبوحة من العيش.. أليس كذلك؟".

قال السيد (بيرليه): "نعم ولكن التباين هنا مزعج للغاية".. وقال الأب (إمرتون): "إن هذا أمر رهيب".. غير أن أولئك اليوتوبيين أصروا على أن التكديس الشديد على سطح الكوكب فى آخر عصور الفوضى، كان هو الشر الرئيس الذى انطلقت منه الشرور الأخرى

التى أمسكت بتلابيب الجنس بأكمله.. فقد تدفق شلال مروّع من القادمين الجدد فى العالم والتهموا كل جهد وفرته الأقلية العاقلة لتعليم نسبة كافية منهم، لمواجهة احتياجات وظروف ومتطلبات الحياة الجديدة التى لازالت تتغير بسرعة ولم تثبت على حال بعد.

لم تكن الأقلية العاقلة فى موقف يمكنها من السيطرة على مصير الجنس البشرى والتحكم فيه وتوجيهه.. فقد كانت تلك الأعداد الغفيرة من الناس تتدفق إلى الوجود وتهيمن عليها التقاليد المتزمتة البالية والأفكار الحمقاء السائدة، مما جعلها صيداً سهلاً بل نصيراً لكل أفاّق، ومغامر أخرق، تلاقى أفكاره الفجة عن النجاح والسعادة صدى لديها.. وأصبح النظام الاقتصادى – المنظم بشكل أخرق وعشوائى لمواجهة الظروف الجديدة للإنتاج والتوزيع الآليين – قاسياً ومستغلاً طائشاً للجموع الغفيرة من الناس العاديين، لصالح قلة نهّابة تبحث عن المكسب السريع.

وهكذا أصبح الإنسان العادى يعانى من البؤس والشقاء والحرمان من المهد إلى اللحد، وهناك دائماً من يتملقه ويكذب عليه.. وبات يباع ويشترى وتتحكم فى مصيره أقلية حمقاء شريرة تفوقه قوة ونشاطاً ولكنها ليست أذكى منه. وقال (أورثريد)أنه من الصعب على اليوتوبى فى هذه الأيام أن يصل إلى تلك الحماقة الوحشية والضياع

والفظاظة السوقية، التى حققها أولئك البشر الأثرياء والأقوياء من آخر عصور الفوضى.

وقال السيد (بيرليه): "إننا لن نثقل عليكم.. وياللأسف، نحن نعلم.. نحن نعلم ذلك علم اليقين.. بعد كل هذا الفساد وتلك المعاناة، هبط على البشرية عدد مروع من الكوارث أخيراً، مثلما تنقض الدبابير على كومة من الفاكهة العفنة.. كان ذلك المصير الطبيعى المحتوم لهم. ونشبت حرب طالت تقريباً كل أركان الكوكب ودمرت نظامه المالى الواهى، وفسخت آلياته الاقتصادية، بحيث انعدمت أى امكانية لإصلاحه وإنعاشه من جديد. واستمرت الحروب الأهلية فى الاندلاع والمحاولات الخرقاء للثورة الاجتماعية، مما زاد وعمق من تشويش المجتمع وتقويض أركانه.

وجاءت سلسلة من سنوات الطقس السيىء والجدب، مما زاد من القصور أو العجز العام. وكان المغامرون المنتهزون للفرص من الحماقة بمكان بحيث لم يدركوا ما يحدث واستمروا فى خداع العامة واستغلالهم، واحباط أية محاولة أو مبادرة يقوم بها رجال أمناء.. تماماً مثلما تستمر الدبابير فى التهام الطعام حتى بعد تعرض أجسامها للجروح والكدمات. وتدنت قدرة الحياة اليوتوبية على العطاء والإنتاج وسيطرت عليها تماماً محاولات الأخذ والاستهلاك.. وتناقص الإنتاج تدريجياً حتى كاد ينعدم.. وبددت الثروات الكبيرة.. وساد نظام من

الديون الضخمة ومجموعات من الدائنين القساة القلوب الذين لا يمكنهم أخلاقياً مساعدة أحد أو الرأفة بأى شخص، والذين حطموا كل المبادرات الإصلاحية.

أما الازدهار الطويل فى الحياة اليوتوبية، الذى بدأ مع الاكتشافات العظيمة، فقد تحول إلى مرحلة من الانحسار السريع والكساد.. وكل ما تبقي من متع ومسرات فى العالم سرقها أولئك المغامرون الماليون ورجال الأعمال المضاربون. العلم المنظم الذى ساد منذ وقت طويل، ولم يعد يطبق إلا أساساً لتحقيق براءات اختراعات مكسبة مالياً واحتكار المؤن والإمدادات الضرورية للحياة.. ولم تلبث أن خفتت تماماً شعلة العلم الحقيقية المهملة.. وأخذت ترتعش وتكاد تختفى تماماً من الوجود تاركة اليوتوبيا لكى تواجه سلسلة جديدة من عصور الجهل والظلام مثل تلك التى سادت قبل بداية عصر العلم والنهضة.

قال السيد (بيرليه): "إن هذا تشخيص سوداوى يشبه تشخيصاً لحياتنا.. نعم هناك تشابه غريب!.. ترى كم كان "إينج"[١] سوف يستمتع بهذا كله!".. وقال الأب (إمرتون): "بالنسبة إلى ملحد كهذا،

(١) ويليام إينج (١٨٦٠ – ١٩٥٤) قسيس أنجليكانى (الكنيسة الإنجليزية) وأستاذ علم اللاهوت بجامعة كيمبردج (المترجم)

فبلاشك سوف يجده شيئاً ممتعاً للغاية". وضايقت تلك الملاحظات السيد (بارنستابل) الذى لم يكن يريد أن يسمع المزيد.. ولم يلبث أن قال لأورثريد: "وبعد ذلك.. ما الذى حدث بالضبط؟".

(٥)

اعتقد السيد (بارنستابل) ان ما حدث كان تغيراً أكيداً فى التفكير اليوتوبى.. عدد متزايد من الناس يفهمون أنه وسط تلك القوى الآثمة المسلطة على الناس التى وضعها العلم والنظام بين أيديهم، فإن الفكرة القديمة عن الحياة الاجتماعية فى الدولة، باعتبار أنها صراع محدود وقانونى بين الرجال والنساء للحصول على أكثر ما يمكنهم من بعضهم البعض، أصبح من الخطر الشديد تقبلها.. تماماً مثلما أن الخوف المتزايد من الأسلحة الحديثة، بدأ يجعل السيادة المستقلة للدول أمراً يمثل قبوله خطراً داهماً.. لابد إذن من وجود أفكار جديدة ومعاهدات حديثة تربط بين البشر، إذا كنا لا نريد أن ينتهى التاريخ بمأساة وانهيار مروّع.

كل المجتمعات تأسست على القيود التى تفرضها القوانين والمحرمات ومعاهدات الصراعات الوحشية بين الآباء الأوائل البدائيين.. أما اهتمام المرء القديم بذاته، فقد بات عليه الآن أن يتحمل

ضوابط جديدة تتفق مع كل القوى والمخاطر التى يواجهها الجنس البشرى. إن فكرة التنافس على التملك، مثل الفكرة السائدة عن التعامل بين الناس، كانت تشبه فرناً فقد الإنسان السيطرة عليه بحيث أصبح يهدد بابتلاع الآلة التى كانت تمده بالطاقة أصلاً.

كان لابد لفكرة الخدمة المبدعة أن تحل محلها.. وكان من الضرورى أن يتحول إليها عقل وإرادة الإنسان إذا كان يريد إنقاذ حياته الاجتماعية.. والتصورات التى بدأت فى العصور السابقة، كانت مجرد مثاليات مبالغ فيها أدرك الإنسان الآن ليس أنها فقط حقيقة نفسية واقعية ومتزنة، بل إنها أصبحت حقيقة ضرورية وملحة. ولكى يعبر (أورثريد) عن هذا فقد ظهر فى صورة ذكّرت عقل السيد (بارنستابل) ببعض العبارات المألوفة جداً له.. وبدا أنه يقول: إن من سينقذ حياته، فسوف يخسرها.. وأن من سيهب حياته فسوف يكسب العالم كله.

بدا أن أفكار الأب (إمرتون) تستجيب بنفس الطريقة.. إذ أنه قاطعه فجأة قائلاً:"لكن ما تقوله هو فى الحقيقة اقتباس[1]!".. واعترف (أورثريد) بأن اقتباساً ما كان فى ذهنه بالفعل.. فقرة من تعاليم رجل من كبار الشعراء عاش منذ وقت طويل فى أيام الكلمات المنطوقة..

---

(١) إعادة أو نسخ كلمات شخص ما (المترجم)

وكان سيواصل حديثه.. غير أن الأب (إمرتون) كان منفعلاً؛ لدرجة أنه لم يسمح له بذلك وسأله: "لكن من كان ذلك المعلم؟ وأين كان يعيش؟.. وكيف ولد؟.. وكيف مات؟".

ومضت صورة في وعي السيد (بارنستابل) لشخص شاحب الوجه ومنفرد ووحيد ومنعزل عن الناس، وقد تعرض لضرب مبرح ودمه يسيل.. ويحيط به مجموعة من الحرس المدججين بالسلاح.. وسط حشد مندفع وهائج تحت شمس محرقة، يملأ شارعاً ضيقاً له جدران عالية.. وفي الخلف كانوا يحملون آلة كئيبة تهبط وتعلو مع الحركة المندفعة لهذا الجمع الغفير.

صاح الأب (إمرتون): "وهل مات على الصليب في عالمكم هذا أيضاً؟.. هل مات هو الآخر على الصليب؟".. إنهم عرفوا أن هذا النبي مات ميتة مؤلمة جداً، ولكن ليس على الصليب.. فقد تم تعذيبه بطريقة ما.. لكن لم يكن لدى اليوتوبيين ولا الأرضيين أدنى فكرة عن طرق التعذيب المتخصصة للحكم على هذا الأمر.. ثم كان من الواضح أنه ربط على عجلة مسننة تدور ببطء ثم ترك هكذا حتى مات.

كان ذلك عقاباً وحشياً لجنس قاس ومتسلط.. وقد وقع عليه هذا العقاب؛ لأن عقيدته في الخدمة العامة أفزعت الأغنياء والمسيطرين

الذين لا يخدمون أحداً.. وعلى الفور تجلّت فى ذهن السيد (بارنستابل) صورة رجل يدور ويتلوى على عجلة التعذيب تحت أشعة الشمس اللافحة.. ثم رأى النصر العظيم على الموت!.. ومن وسط عالم يستطيع أن يفعل عملاً بشعاً كهذا انبثق هذا السلام العظيم والجمال الكونى فى كل مكان حوله!

إلا أن الأب (إمرتون) ألح على أسئلته: "لكن ألم يدركوا من كان هذا الرجل؟.. ألم يشك هذا العالم في شيء؟".. عدد كبير من الناس اعتقد أن هذا الرجل كان إلهاً، لكنه كان معتاداً على تسمية نفسه بإبن الانسان. ركز الأب (إمرتون) على هذه النقطة وقال: "لكنكم تعبدونه الآن.. أليس كذلك؟".. فقال (أورثريد): "إننا نتبع تعاليمه لأنها رائعة وصادقة".

قال (إمرتون): "لكن هل تعبدونه؟".. فقال (أورثريد): "لا".. فقال (إمرتون): "لكن ألا يعبده شخص ما؟.. لقد كان هناك من عبدوه؟".. نعم كان هناك من عبدوه.. كان ثمة أشخاص يعترضون على المعنى الصارم لتعاليمه، لكنهم يدركون بشكل يعتريه القلق بأنه كان محقاً على نحو لا يمكن إغفاله.. ولذلك احتالوا على ضميرهم القلق المتوجس باعتباره إلهاً مسحوراً بدلاً من كونه إنساناً هادياً لأرواحهم المضطربة.. ومزجوا بين عملية إعدامه والتراث القديم من الملوك الذين كانوا يضحون بالإنسان ككفارة للآلهة.

وبدلا من أن يتلقونه بوضوح وصراحة ويجعلونه جزءاً من فهمهم وإرادتهم، قهروه وسحقوه وحولوا عجلته إلى رمز خارق وخلطوا بينها وبين دائرة الإستواء والشمس ودائرة البروج.. وفى الحقيقة.. فإن كل شيء فى الكون له شكل مستدير. وعندما يصادفهم سوء حظ أو تسوء صحتهم أو يصبح الطقس سيئاً، كانوا يعتقدون أنه من المفيد جداً لهم كمؤمنين به أن يرسموا دائرة فى الهواء بالأصبع السبابة.

ونظراً لأن ذكرى هذا المعلم كانت أثيرة لدى الأغلبية الجاهلة من الناس بسبب رقته ودماثته وإحسانه، فقد استغلها واستفاد منها بدهاء وعدوانية، أولئك الذين اعتبروا أنفسهم أبطالاً وأنصاراً والذين ازدادوا ثراء وقوة تمسحاً باسمه، وقادوا الشعوب إلى حروب طاحنة من أجله واستخدموها كغطاء ومبرر لكل ما لديهم من حقد وحسد وطغيان ورغبات شريرة.. حتى جاء أخيراً رجال قالوا إنه لو فرض أن هذا النبى عاد مرة أخرى إلى اليوتوبيا، فإن عجلته المنتصرة سوف تسحقه وتحطمه من جديد.

بدا الأب (إمرتون) غير منتبه إلى تلك الأفكار والمزاعم، وكان يرى الأمر من زاوية أخرى.. وقال: "لكن من المؤكد أن هناك بقية من المؤمنين به!.. ربما كانوا محتقرين ولم يحظوا بأى احترام، لكن لابد أنهم موجودون فى مكان ما؟".. لكن الحقيقة أنه لا يوجد أى

باقون.. فكل العالم اتبع هذا الرجل باعتباره معلماً للمعلمين، ولكن لم يعبده أحد منهم. وفى أحد المبانى الأثرية القديمة تقبع العجلة فى هدوء، وقد حفر عليها البعض رسوماً زخرفية فنية رائعة.. وفى المتاحف وأماكن التجمع يوجد الكثير من الصور والتعاويذ والتماثيل وما شابه ذلك.. وقال الأب (إمرتون): "إننى لا أفهم ذلك.. إنه شيء مروّع.. أنا فى حيرة من أمرى.. لا أفهم شيئاً قط".

(٦)

عرف السيد (بارنستابل) بعد ذلك أن رجلاً وسيماً ونحيفاً يدعى (ليون) حل محل (أورثريد) فى تحمل مسئولية الشرح للأرضيين والإجابة عن أسئلتهم.. وكان أحد المنسقين التعليميين فى اليوتوبيا.. وقد أوضح جيداً أن تغير الشئون اليوتوبية لم يحدث إثر ثورة مفاجئة.. ولم ينبثق فجأة نظام جديد أو قوانين أو عادات جديدة، ولا أى أسلوب للتعاون الاقتصادى مبنى على فكرة تبادل الخدمات الشاملة للصالح العام إلى الوجود كاملاً ومثالياً.. وطوال فترة زمنية طويلة، قبل وأثناء عصر الاضطراب الأخير، تم وضع أساسات الدولة الجديدة بمعرفة عدد كبير جداً من الباحثين والعاملين بدون أية خطة موضوعة أو أسلوب محدد مسبقاً، ولكن من خلال تعاون لا

واع من جراء قوة دفع عامة لتوفير الخدمات ووضوح الفكر وصدق الفهم.

وفقط قبل الوصول إلى ذروة آخر عصور الاضطراب فى اليوتوبيا عندما بدأ علم الفسيولوجيا (وظائف الأعضاء) فى التطور بمعدل متواضع جداً بالنسبة لتطور علمى الجغرافيا والفيزياء خلال القرون الأخيرة، وعملت الاضطرابات الاجتماعية والاقتصادية – التى كانت تعوق العلوم التجريبية وتشل العمل المنظم فى الجامعات ومراكز البحث – على حفز البحث والاستكشاف فى عملية ارتباط البشر، والعمل على تقويضها وبث الفرقة والخوف فيها.

والانطباع الذى وصل إلى ذهن السيد (بارنستابل) لم يكن بشأن تغييرات عنيفة تعوّد كوكبنا أن يسميها "ثورات".. ولكن كان بشأن ازدياد ضوء المعرفة، فجر الأفكار الجديدة التى سارت عليها منظومات العالم القديم لبعض الوقت بنشاط متناقص، حتى بدأ الناس يعتادون عمل الأشياء الجديدة مكان القديمة.

كانت بدايات النظام الجديد محل بحث ومناقشات مكثفة بين الناس وفى الكتب والمختبرات النفسية.. والتربة التى نمت فيها كانت الكتب والجامعات.. وأعطى النظام القديم مكافآت صغيرة لمديرى المدارس، إلا أن القوى المسيطرة عليه كانت مشغولة بالصراع من

أجل الثروة والسلطة ولم تبال كثيراً بالتعليم.. إذ ترك هذا الموضوع لأى رجل (أو امرأة) يمكنه بذل الفكر والجهد دون أن يأمل كثيراً فى الحصول على مكافآت كبيرة نظير تشكيله لعقول الشباب، وهذا ما نجح فيه المعلمون بالفعل.

وفى عالم يحكمه بشدة السياسيون المغامرون.. فى عالم يصل فيه الناس إلى السلطة من خلال ممارسة مشروعات تجارية متعثرة وأساليب المكر والخداع التجارية، أصبح من المعروف والمفهوم حالياً أن الممتلكات الخاصة الكثيرة أصبحت الآن مشكلة اجتماعية، وأن الدولة لا تستطيع أن تنفذ أعمالها وسياساتها بشكل مرض والتعليم لن يحقق النتائج المرجوة منه مع وجود طائفة من الأثرياء غير المسئولين.. إذ أنهم بطبيعتهم انتقدوا وأفسدوا وقوضوا كل مشروع تقوم به الحكومة. كما أن تباهيهم وغطرستهم شوهت وحرفت كل قيم الحياة.. وأصبح من الضرورى التخلص منهم لمصلحة الجنس بأكمله.

وسأل السيد (كاتسكيل) بمشاكسة: "لكن ألم يقاتلوا دفاعاً عن أنفسهم؟".. وكانت الإجابة: أنهم قاتلوا بعنف ولكن بشكل غير منظم.. والواقع أن القتال من أجل تعطيل أو إيقاف مجيء الدولة العلمية العالمية أو الدولة التعليمية فى اليوتوبيا استمر كصراع واع ومدرك ذهنياً قرابة خمسة قرون تقريباً.. والذين قاوموا هذا الصراع هم

الأشخاص الطماعون الشهوانيون المتحيزون والذين لهم أطماعهم ويهدفون إلى عدم تبلور حقائق تلك الفكرة الجديدة من الارتباط والتكافل فى تقديم الخدمات.. ولقد احتدم هذا القتال كلما انتشرت أفكار جديدة واقترن الكثير من الرفض والتهديدات والمقاطعات وعواصف العنف والأكاذيب والاتهامات الباطلة والدعاوى القضائية وصدور أحكام بالسجن بل وبالإعدام بدون محاكمات قانونية.. وانتشرت القلاقل والفوضى واستخدم البعض كل وسائل الشغب من نيران وهراوات ومسدسات وبنادق وقنابل.

إلا أن صدمة الفكرة الجديدة التى أطلقت فى العالم لم تتوقف، بل سيطرت على الرجال والنساء الذين تحتاج إليهم بقوة شديدة.. وقبل تأسيس الدولة العلمية فى اليوتوبيا سقط أكثر من مليون شهيد فى سبيلها، أما أولئك الذين تعرضوا لظلم أو أذى أقل، فقد كان عددهم هائلاً يصعب حصره. وأخذ النظام الجديد يكسب نقطة وراء أخرى فى التعليم والقوانين الاجتماعية والأساليب الاقتصادية.. ولم يستطع أحد أن يحدد تاريخاً للتغيير.. حتى جاء يوم وجد فيه اليوتوبيون أن نظاماً جديداً حل محل النظام القديم..

وقال السيد بارنستابل كما لو لم تكن اليوتوبيا موجودة فى كل مكان حوله: "نعم هذا ما يجب.. هذا ما يجب".

وتمت الإجابة عن سؤال ما.. فكل طفل يتعلم ممارسة أقصى درجة من تحمل المسئولية، ويتم توجيهه إلى العمل الذى تحدده رغباته وقدراته.. إنه يولد فى أحسن حال ومن والدين يتمتعان بالصحة النموذجية بعد أن قررت أمه أن تحمل به بعد تفكير عميق واستعداد تام.. وينمو وسط أفضل الظروف الصحية.. ويتم تعزيز رغباته الطبيعية فى اللعب والتعلم بأكثر الطرق التعليمية تطوراً وفعالية.. ويداه وعيناه وأعضاؤه الأخرى تتاح لهم كل فرصة ممكنة للتدريب والنمو.. إنه يتعلم كيف يرسم ويكتب ويعبر عن نفسه ويستخدم تنويعة كبيرة من الرموز لمساعدته وتوسيع مجال فكره.. وتغرس فيه سلوكيات الرقة والطيبة واللطف والكياسة، لأن كل شىء حوله رقيق ولطيف.

وتتم بوجه خاص مراقبة نمو قدراته على التخيل وتشجيعها وتطويرها.. ويتعلم الطفل التاريخ الرائع لعالمه وجنسه، وكيف أن الإنسان كافح ومازال، للخروج من ضيق أفقه الحيوانى السابق وغروره وأنانيته، إلى حلم الامبراطورية المثالية الذى ما زال لا يفهمه جيدا أو يخشاه، وبسبب حجب الجهل الكثيفة التى تكتنف عقله. ويتم ترقيق وتحسين كل رغباته.. فهو يتعلم من الشعر، ومن الأمثلة الناجحة ومن حب أولئك الذين يحيطون به لكى يتبدد قلقه وغمه بشأن نفسه فى الحب.. وكل عواطفه الجنسية يتم تحويلها ضد أنانيته.. كما

يتم توجيه فضوله وحب استطلاعه تجاه عالم العلم الواسع.. وتوجيه غريزة القتال لديه إلى مكافحة الشغب.. والكبرياء والطموح الدفين لديه تجاه حصته المحترمة من تحقيق الإنجازات المشتركة.. إنه يعمل فى المجال الذى يحبه ويجذبه، وهو الذى يختار الشىء الذى يريد عمله.

وإذا كان الفرد كسولاً وبطيئاً، فلن يحدث ضرر كبير. إذ أن هناك متسعًا للجميع فى اليوتوبيا.. لكنه عندئذ لن يجد أى شخص يحبه.. ولن ينجب طفلاً قط، إذ لا أحد فى اليوتوبيا يحب أولئك الذين يفتقرون إلى النشاط والحيوية والتفوق فى الأداء، وهناك فخر كبير للزوج أو الزوجة فى الحب اليوتوبى.. ولا يوجد فى اليوتوبيا "مجتمع" ثرى عاطل، ولا ألعاب أو استعراضات يتفرج عليها الناس.. لا يوجد شىء لمجرد مشاهدة الناس له.. وهو عالم رائع فعلاً لقضاء العطلات، ولكن ليس لأولئك الذين لا يفعلون شيئاً أبداً.

وطوال قرون عديدة ظل العلم اليوتوبى قادراً على التفرقة بين المواليد، وكل يوتوبى حى تقريباً تم تصنيفه كنفس مبدعة نشطة فى الأيام الخالية. وهناك فى اليوتوبيا القليل من الكسالى، لكنهم عموماً من الأفراد غير الضـــاريـــن للآخريـــن أو للدولة.. ذلك أن السلالة التى تميزت بالكسل واللامبالاة أو ضعف الخيال والتفكير انقرضت تقريباً، كذلك النوع المكتئب السوداوى فقد أخذ عصاه ورحل.. كما

أن الشخصيات الحقودة والخبيثة فى طريقها إلى الاختفاء من الوجود. وهكذا فإن الأغلبية العظمى من اليوتوبيين نشطون ومتفائلون ومبدعون ومخترعون ومتقبلون للأفكار ومتفتحو الأذهان وحسنو الطباع.

سأل السيد (بيرليه) وهو مازال غير مصدق: "أليس لديكم برلمان؟".. وقيل له إن اليوتوبيا ليس لها برلمان أو سياسات أو ثروات خاصة أو تنافسات تجارية ولا شرطة أو سجون أو مجانين أو مختلين أو عاجزين.. وهى ليس بها أى شىء من ذلك، لأن بها مدارس ومدرسين هم قمة ما يمكن أن تكون عليه المدارس والمدرسون.. أما السياسات والتجارة والمنافسة فهى الأساليب التى يلجأ إليها المجتمع غير الناضج.. وتلك الأساليب تم تجنيبها فى اليوتوبيا لأكثر من ألف عام.. لا يوجد حكم ولا حكومة لليوتوبيين البالغين، لأن كل الحكم والحكومة التى يحتاجونها توفرت لهم فى طفولتهم وشبابهم.

وقال (ليون): "إن تعليمنا هو حكومتنا".

الفصل السادس

بعض انتقادات أرضية

في بعض الأوقات خلال فترة ما بعد الظهيرة والأمسية الرائعة تلك، بدا للسيد (بارنستابل) أنه في محادثة عظيمة وغير عادية عن الحكومة والتاريخ.. وهي محادثة أصبحت بشكل ما ٠ لا يمكن تفسيره – مثيرة ومؤثرة على المشاعر والأحاسيس – وبدا له أن كل ذلك يحدث في عقله فقط.. ثم لا يلبث إدراكه بالحقيقة المؤكدة لمخاطرته أن يعود إليه بقوة طاغية ويضعف اهتمامه الفكري إلى درجة اللامبالاة بالغرائب المذهلة الكامنة في موقفه هذا.

في تلك المراحل الأخيرة وجد بصره ينتقل من وجه لآخر من اليوتوبيين الذين يحيطون به.. واستقر بصره لبعض الوقت على بعض التفاصيل الأنيقة لعمارة المباني.. ثم عاد مرة أخرى إلى تلك الأشكال رائعة الجمال.. ثم عاد بصره – وهو يكاد لا يصدق مـــا يــراه– إلـــى رفاقه الأرضيين.

كل تلك الأوجه اليوتوبية كانت تتميز بالصراحة والصدق والجدية.. كما كانت جميلة مثل أوجه الملائكة فى اللوحات الزيتية الإيطالية.. إحدى النساء كانت تشبه بشكل غريب "كاهنة دلفى" لمايكل أنجلو..(1) كانوا جميعهم يجلسون رجالاً ونساءً معاً فى أوضاع بسيطة ومريحة.. وكانوا مهتمين ومركزين إلى حد كبير على المناقشة، ولكن من وقت إلى آخر واجه السيد (بارنستابل) نقداً مباشراً من زوج من العيون الودية.. ووجهاً يوتوبياً مهتم بثياب الليدى (ستيلا).. أو نظارة السيد (موش).

كان أول انطباع للسيد (بارنستابل) عن اليوتوبيين أنهم من الشباب.. والآن تبين أن الكثير من وجوههم تعبر عن النضج الشديد.. ولا يبدو على واحد منهم علامات العمر كما نراها فى عالمنا الأرضى. غير أن كل من "أورثريد" و"ليون" ظهرت عليهما تجاعيد الخبرة والزمن حول عيونهم وشفاههم وحواجبهم.

كان تأثير هؤلاء الناس على السيد (بارنستابل) يجمع بين الذهول والألفة بشكل غريب.. وكان لديه شعور بأنه عرف دائماً أن مثل هذا الجنس يمكن أن يوجد، وأن هذه المعرفة وفرت له معياراً كامناً لآلاف الأحكام على شئون الناس.. وفى الوقت نفسه تحير إلى

---

(١) مايكل أنجلو (١٤٧٥ – ١٥٦٤) نحات ورسام إيطالى مشهور (المترجم).

درجة أنه لم يصدق أنه موجود فى العالم نفسه معهم.. وفى لحظة كانوا عاديين ورائعين بالمقارنة به ورفاقه، الذين كانوا من ناحيتهم فى الوقت نفسه ، غرباء وغير عاطفيين تماماً.

وجنباً إلى جنب مع رغبة قوية لكى يصبح ودوداً وحميماً مع أولئك الأشخاص الرائعين الحساسين. وأن يتقرب إليهم ويهتم بهم ويرتبط بهم من خلال الخدمات والمساعدات المتبادلة.. كان لديه خوف ورعب منهم جعله يحجم عن الاتصال بهم ويرتعد من لمس أجسادهم، وكان يريد تقديرهم الشخصى له كرفيق وزميل، بشكل ملح إلى درجة أن إحساسه بفظاظته وعدم جدواه سيطر عليه تماماً.. وأراد أن ينحنى أمامهم.. وخلف كل هذا الضياء والحب والجمال الظاهر فى الأشياء التى حوله استقر فى وجدانه هاجس قوى برفض هذا العالم الجديد التام لوجوده به.

كان الانطباع الناجم عن تأثير اليوتوبيين على السيد (بارنستابل) جد قويا.. واستسلامه التام لقبوله السعيد لجمالهم ورشاقتهم وروعتهم البدنية.. لدرجة أنه لم يتبق لديه لبعض الوقت للاهتمام بملاحظة مدى الفرق بين ردود فعل الكثير من رفاقه الأرضيين، عن ردود فعله شخصياً، إن سمو اليوتوبيين فوق صفات الغرابة والتنافر والبشاعة والقسوة التى تتسم بها الحياة الأرضية

العادية، جعله مستعداً لتقبل – بدون تردد – نظم مؤسساتهم وأنماط حياتهم.

كان تصرف الأب (إمرتون) هو أول ما أيقظه على حقيقة أنه من الممكن الاختلاف الشديد مع أولئك الناس الرائعين، بل ومخاصمتهم خصومة شديدة ومعاداتهم. وفى البداية احتفظ الأب (إمرتون) بالدهشة فى وجهه المستدير وعينيه المدورتين فوق ياقته المستديرة. وأبدى رغبته فى أن يعطى زمام المبادرة لمن يريد، ولم يقل أى كلمة حتى روعه جوانب الجمال الرائع لبحيرة "جرينليك" الراكدة وجعلت وجهه يعبر عن الإعجاب الشديد، ولكن خلال الرحلة إلى جانب البحيرة والوجبة الغذائية وترتيبات افتتاح المؤتمر، كان هناك رد فعل. ولم تلبث تلك الدهشة الساذجة الأولى أن تحولت إلى ميل للمقاومة والعداء.

بدا الأمر كما لو أن هذا العالم الجديد الذى بدأ بمشهد مثير قد اتخذ صفة اقتراح مطروح عليه، وشعر أن عليه إما أن يقبله أو يرفضه. ولعل تعوّد ذهنه على القيام بدور الرقيب العام كان بالغ القوة بالنسبة إليه، مما جعله لا يشعر بكونه طبيعيًا مرة أخرى إلا بالشجب والإعتراض.. ولعله صدم فعلاً وشعر بالضيق والغم من ذلك العرى الفعلى لتلك الأجساد الفاتنة من حوله.. لكنه بدأ الآن

يتنحنح ويسعل بشكل غريب، ويغمغم بصوت هامس إلى نفسه وبدا عليه أنه لم يعد فى استطاعته السكوت أكثر من ذلك.

وبدأ بالتدخل المفاجئ مقاطعاً عندما أثير موضوع عدد السكان.. ولبعض الوقت سيطر ذكاؤه على حماسه العاطفى عند مناقشة موضوع نبىّ العجلة الدوارة.. غير أن الهواجس التى كانت تشغله تجمعت وواصلت دفعها له لكى يفعل شيئاً ما.. وسمعه السيد (بارنستابل) يغمغم قائلاً: "يجب أن أتكلم أمام الجميع بدون تردد أو خوف".. والآن بدأ – بغتة – فى إطلاق الأسئلة: "هناك بعض الأشياء التى أحب استيضاحها جيداً.. أريد أن أعرف ما الحالة الأخلاقية التى تسود فى عالمكم هذا الذى تسمونه (اليوتوبيا).. وأرجو المعذرة لمفاجأتى لكم"؟!

وقف ويداه ترتعشان وهو غير قادر للحظة على استكمال حديثه.. ثم ذهب إلى نهاية صف المقاعد وجلس بحيث يمكن له أن يسند يديه على ظهر أحد المقاعد.. وخلّل شعره بأصابعه، وبدا أنه يأخذ أنفاساً عميقة.. وظهرت على وجهه حيوية غير معتادة.. واحمر وجهه وبدأ يتألق.. وعبر ذهن السيد (بارنستابل) شك رهيب فى أن يكون هذا هو حاله عندما يبدأ فى إلقاء عظاته الدينية الأسبوعية.. حيث يشجب ويندد بكل شيء تقريباً.. فى كنيسة (سانت برناباز) فى الغرب.. ولم يلبث هذا الشك أن تحول إلى يقين مروّع.

"أصدقائى وإخوتى فى هذا العالم الجديد.. هناك أشياء معينة أريد أن أقولها لكم ولا أستطيع تأجيلها قط.. أريد أن أسألكم بعض الأسئلة الخاصة بتحليل الذات.. أريد أن أتكلم معكم في بعض الأمور البسيطة والواضحة وفى الوقت نفسه شديدة الأهمية.. وأريد أن أعرض عليكم أفكارى بصراحة وجهاً لوجه.. لأننى لا أحب الكلام المعسول غير المباشر، سواء فى الأمور الملحة أو البسيطة.. والآن دعونى أدخل فيما أريد قوله مباشرة دون الكثير من المقدمات:

"أريد أن أسألكم ما إذا كنتم – فى عالمكم اليوتوبى هذا – تعرفون وتحترمون وتطبقون أكثر الأمور تقديساً فى الحياة الاجتماعية.. هل تحترمون وتقدسون رابطة الزواج؟".

تريث برهة.. وأثناء ذلك التريث جاء رد اليوتوبيين على السؤال إلى ذهن السيد (بارنستابل).. "فى اليوتوبيا لا توجد أى روابط من أى نوع".. وواصل الرجل حديثه بصوت مدو: "أريد أن أعرف إذا كان هذا الرباط المقدس الذى تكشف لآبائنا الأولين فى جنة عدن سارياً هنا أم لا.. وبتعبير آخر، هل ذلك الارتباط المقدس يستمر مدى الحياة بين رجل واحد وامرأة واحدة، على الخير وعلى الشر، مع استبعاد أى شكل آخر من العلاقات الحميمة غير الشرعية، هو القاعدة السارية فى حياتكم هنا أم لا؟.. أريد أن أعرف.....".

ارتفع صوت مقاطعة يوتوبية : "لكنه لا يريد أن يعرف"..

وواصل الأب إمرتون حديثه: "إذا كانت هذه الطهارة المزدوجة المحمية التي تتوفر لها الوقاية.........".. وهنا رفع السيد (بيرليه) يده البيضاء الطويلة وقال محتجاً "يا عزيزى الأب (إمرتون).. من فضلك".. وكانت يد السيد (بيرليه) يداً قادرة.. ولعلها لازالت مرفوعة احتجاجاً.. ومن سوء الحظ أن أموراً قليلة جداً تحت السماء هى التي تستطيع إيقاف الأب (إمرتون) عندما يحج فى أحد انطلاقاته الوعظية العاصفة.. ولكن من حسن الحظ أن يد السيد (بيرليه) كانت من ضمن تلك الأمور.

واصل الأب إمرتون: "... قد تبعتها هدية أخرى أكثر قيمة منها ولكن الناس ألقوا بها وراء ظهورهم وتنكروا لها تماماً؟.. لكن!.. ما الأمر يا سيد (بيرليه)؟".

قال السيد (بيرليه): "أرجو ألا تلح الآن فى هذا الموضوع أكثر من ذلك أيها الأب (إمرتون).. حتى نعرف المزيد من الأمر.. فالواضح أن المؤسسات والأنماط الاجتماعية هنا مختلفة كثيراً جداً عنا.. وحتى رابطة الزواج قد تكون مختلفة أيضاً".

احتقن وجه الواعظ وقال "سيد (بيرليه).. يجب على هذا.. فإذا كانت شكوكى صحيحة، فإننى أريد أن أجرد حالاً هذا العالم من القناع الزائف بالصحة والفضيلة الذى يرتديه".

قال سائق السيد (بيرليه) بصوت عال جداً: "ليس هناك لزوم لأى تجريد".. وهذا أصبح واضحاً فى صوت السيد (بيرليه) بعض نفاد الصبر وقال: "إذن ألق ما تشاء من أسئلة.. سل ما شئت.. لكن أرجوك لا تخطب.. هؤلاء الناس لا يحبون من يخطب ويضيّع وقتهم".. وعندئذ قال الأب (إمرتون) وهو عابس الوجه ويحدق فى (أورثريد) بنظرة متكلفة: "لقد طرحت سؤالى".. وظل واقفاً بعد ذلك.

جاءت الإجابة واضحة وصريحة.. ففى اليوتوبيا ليس هناك إجبار على الرجال والنساء لكى ينخرطن فى أزواج أو ثنائيات لا يمكن فصمها.. معظم اليوتوبيين لا يرتاحون لذلك.. فكثيراً جداً تجمع ظروف العمل بين الرجال والنساء بالقرب من بعضهم البعض.. ويمكنهم أن يمارسوا الحب معاً ويظلوا بجوار بعضهم البعض، مثلما فعل (آردن) و(جرينليك).. لكنهم ليسوا مضطرين لذلك.

ولكن تلك الحرية لم تكن متوفرة من قبل.. ففى أيام الصراع والازدهار القديمة، خصوصاً فيما بين العمال الزراعيين وموظفى اليوتوبيا، كان العشاق من الرجال والنساء يتعرضون لعقوبات شديدة

طوال حياتهم.. كانوا يعيشون معاً فى منزل صغير ترعاه المرأة وتنظفه للرجل وتكون خادمته وتنجب له أطفالاً بأكبر عدد ممكن، وهو مسؤول عن توفير الطعام للأسرة. وكان الأطفال مطلوبين لأنهم يساعدون في الزراعة أو يعملون بأجر.. غير أن الضرورات التى استعبدت النساء – فى هذا النوع من الأزواج أو الثنائيات– اختفت ولم يعد لها وجود.

فالناس يقترنون أزواجاً مع من يريدون بالفعل.. لكنهم يفعلون ذلك بدافع شخصى بحت وليس من جراء أى ضغط أو إكراه خارجي.. واستمع الأب (إمرتون) بنفاد صبر ظاهر.. والآن وثب وهو يقول: "إذن أنا كنت على حق.. وأنكم قضيتم على الأسرة؟".. وأشار بأصبعه إلى (أورثريد) فى شبه اتهام شخصى له.

لا.. إن اليوتوبيا لم تقض على الأسرة.. إنها كبرت ووسعت الأسرة حتى شملت العالم بأسره!.. ومنذ أزمان مضت، كان نبى العجلة الدوارة – الذى يبدو أن الأب (إمرتون) يحترمه للغاية – يخطب ويعظ بهذا التوسيع للمنزل الضيق القديم.. وأثناء وعظه هذا قالوا له: إن أمه وإخوته يقفون بالخارج ويطلبون مقابلته.. لكنه

رفض الذهاب إليهم.. والتفت إلى الحشد الذى ينصت إلى كلامه وقال: "مَنْ أمى وإخوتى؟".[1]

ضرب الأب (إمرتون) ظهر المقعد الذى أمامه بصوت عال ومفاجئ.. وصاح: "إن هذه مغالطة.. إنها اختلاق.. فالشيطان أيضاً يمكنه أن يقتبس من الكتب المقدسة".. وكان واضحاً للسيد (بارنستابل) أن الأب (إمرتون) لم يكن مسيطراً على نفسه تماماً.. وأخافه ما كان يفعله؛ ولكنه كان مضطراً إلى ذلك.. وكان هو أيضاً مهتاجاً بحيث لم يستطع التفكير بوضوح أو السيطرة على صوته بشكل لائق، ولذلك أخذ يصيح ويهدد فى الجمع الذى أمامه.. كان مسترسلاً فى الكلام وواثقاً أن الخبرة فى الوعظ الذى كان يلقيه فى كنيسة (سانت برناباز) سوف تنقذه فى موقفه هذا.

"إننى أفهم الآن كيف تعيشون.. نعم أفهم ذلك جيداً.. ومن الخارج أو الظاهر خمنت كيف تسير الأمور معكم.. وانتظرت حتى أتأكد قبل أن أدلى بشهادتى.. لكن كل شىء أصبح واضحاً الآن.. ملابسكم التى لا تدل على أى حياء.. سلوكياتكم التى تتسم بالحرية الإباحية!.. الشبان والشابات يبتسمون ويشبكون أيديهم فى أيدى

---

(١) عبارة قالها السيد المسيح – إنجيل مرقس ٣: ٣٣ (العهد الجديد) (المترجم).

بعضهم البعض ويكادون يتعانقون.. بينما أن غض البصر هو أقل ما يمكنكم تقديمه من احتشام وذوق.

"وهذا الكلام الحقير الفاسد عن الحب بين العشاق بدون أى روابط أو بركات إلهية وبدون أى قواعد أو قيود أو ضوابط.. ما معنى هذا؟ وإلى أين يقودكم؟ ولا تتخيلوا أنه لكونى قسيساً، أى رجلاً نقيًا وطاهرًا بالرغم من مغريات الحياة الكثيرة جداً، لا تتخيلوا أننى لا أفهم شيئاً!.. هل أنا لا أدرى شيئاً عن أمور القلب؟.. ألا يزحف الخاطئون المجروحون والذين حطمتهم الحياة إلىّ لكى يدلوا باعترافاتهم التى تستحق الشفقة؟.. وسوف أخبركم بصراحة إلى أين تذهبون وما هو حالكم؟!.. إن ما تسمونه حريتكم ما هى إلا انحراف بررتموه لأنفسكم.. وأرى أن يوتوبيتكم هذه ليست سوى جحيم الإباحية الجامحة.. الإباحية الجامحة!".

رفع السيد (بيرليه) يده احتجاجاً.. إلا أن فصاحة الأب (إمرتون) كانت أقوى من هذا الاعتراض.. وضرب على ظهر المقعد الذى أمامه من جديد وصاح: "سوف أدلى بشهادتى.. سوف أدلى بشهادتى.. ولن أتردد فى ذلك قط.. ولتعلموا جميعاً أننى لا ألف أو أدور، بل أتكلم بوضوح وصراحة.. إنكم تعيشون كلكم فى عبث وضلال!. نعم هذه هى حقيقتكم.. نعم، أنتم تعيشون فى ضلال حيوانى!.. انحراف بهيمى!".

وثب السيد (بيرليه) واقفاً على قدميه.. ورفع يديه وأشار إلى الواعظ اللندنى المزعج الصخّاب لكى يجلس.. وصاح قائلا "لا.. لا!!.. يجب أن تتوقف يا سيد (إمرتون).. الحقيقة أنك يجب أن تتوقف فوراً.. إنك تهين الناس وتشتمهم.. أنت لا تفهم الموقف.. أرجوك اجلس.. إننى أصر على ذلك".. وارتفع صوت واضح يقول: "اجلس واصمت واحتفظ برباطة جأشك.. وإلا فسوف نأخذك من هنا".

شيء ما جعل الأب (إمرتون) يشعر بوجود شخص ساكن تماماً بالقرب منه.. وقابل عينىّ شاب رشيق يتفحص جسده كما يتفحص رسام الشخص الذى سيرسم صورته الجانبية.. لم يكن هناك خطر فى هذا الموقف. فالشاب وقف هادئاً.. ومع ذلك فإن ظهوره أثر على الأب (إمرتون) بشكل خارق للعادة بحيث تلاشى أو خمد شيئاً ما لديه..

وبالفعل تلاشى تماماً صوت الواعظ فى حلقه.

ارتفع صوت السيد (بيرليه) الرقيق لكى يحول دون حدوث أى صدام.. وقال "سيدى (سربنتين).. إننى أتوسل لك أن تقبل اعتذارى.. إن هذا الرجل غير مسئول تماماً.. إننا فى حزن لمقاطعته هذه.. بيد أننا نرجوكم ألا تأخذونه من هنا، مهما كان معنى هذا.. وأنا مسئول

شخصياً عن حسن سلوكه بعد ذلك.. والآن أرجوك اجلس يا سيد (إمرتون) من فضلك.. وإلا فإننى سوف أرفع يدى من الموضوع كله".. وتردد الأب (إمرتون)، وقال: "إن مقتى سوف يأتى فيما بعد".. ثم نظر فى عينى الشاب للحظة وعاد إلى مقعده.

تحدث (أورثريد) بهدوء ووضوح: "إنكم أيها الأرضيون ضيوف من الصعب إرضاؤهم.. وهذا ليس كل شىء، فالواضح أن عقل هذا الرجل غير نظيف.. ومن المؤكد أن خيالاته الجنسية مشتعلة ومريضة.. وهو غضبان ومتوتر ويعمد إلى إهانة الناس وتجريحهم.. والضوضاء التى يصنعها مروّعة.. وغداً لابد من فحصه وعلاجه".. وهنا شحب وجه الأب (إمرتون) المستدير وقال: "ما معنى هذا؟.. وماذا تقصد بعلاجه؟".

قال السيد (بيرليه): "الرجا ألا تتكلم.. أرجوك لا تتحدث بالمزيد.. لقد سببت لنا الكثير من الضرر".. وبدا للحظة أن الموضوع وصل إلى نهايته.. لكنه ترك أثراً من الخوف فى قلب السيد (بارنستابل).. فهؤلاء اليوتوبيون كانوا على كثير من الذوق واللطف فعلاً.. غير أنه تخيل لعدة ثوان أن يد السلطة سوف تحلق فوق مجموعة الأرضيين. كان كل شىء يحيط بالزوار من ضوء الشمس والأماكن المجاورة رائعاً.. ولكنهم كانوا غرباء وعاجزين لا حول لهم ولا قوة فى هذا العالم المجهول.

ووجوه اليوتوبيين رقيقة وعيونهم محبة للاستطلاع وودودة بشكل ما.. لكنها تلعب دوراً أهم هو الملاحظة الدقيقة المستمرة.. كان الأمر يبدو كما لو أنهم ينظرون إلى الأرضيين عبر هوة شاسعة من الفروق والاختلافات.. ووسط هذا التوتر المشوب بالقلق التقت عينا السيد (بارنستابل) بعينى (ليكنيس) البنتين اللتين كانتا أرق من عيون اليوتوبيين الآخرين.. فعلى الأقل أدركت مشاعر الخوف الذى اعتراه – كما أحس هو – وباتت تريد طمأنته وأن تصبح صديقته.. ونظر السيد (بارنستابل) إليها.. وشعر للحظة كما يشعر الكلب الشارد الذى يتقرب من مجموعة من الكلاب المشكوك فى صداقتها ثم يرى نظرة ود وتحية ترحيب!

(٢)

كان ثمة عقل آخر يقاوم اليوتوبيين مقاومة عنيفة هو عقل السيد (فريدى موش).. ولم يكن لديه فى الحقيقة خلاف حول الدين أو الأخلاقيات أو التنظيم الاجتماعى لليوتوبيا.. وعرف منذ وقت طويل أنه لا يوجد رجل محترم يهتم فعلاً بالجماليات يبدى اهتماماً بمثل تلك الأمور.. وكانت قدراته على الفهم يفترض أنها جيدة بالنسبة إليهم.. لكن الآن أوضح أن هناك شيئاً موغلاً فى القدم ومثيراً للإحساس

العاطفى والفكرى يسمى "توازن الطبيعة"، دمرته الأساليب العلمية لليوتوبيا. لكن لم يستطع أحد من اليوتوبيين أو السيد (بارنستابل) أن يفهم بوضوح ما هو هذا التوازن للطبيعى وكيف يعمل على الأرض. وعقب استجوابه تورد وجه السيد (موش) غضباً وضجراً ولمعت نظارته وبات فى موقف الدفاع عن نفسه وقال مكرراً: "إننى متمسك بما قلته من ضرورة وجود العصافير.. وإذا كنتم غير قادرين على فهم فكرتى، فأنا لا أعرف ماذا يمكننى قوله".

وبدأ بحقيقة وانتهى بحقيقة، أنه لا تُرى أى عصافير فى اليوتوبيا ولا بعوض ولا هوام ولا ذباب.. فهناك إبادة متعمدة للحشرات فى اليوتوبيا، وأثر ذلك بشدة على كل الكائنات التى تعتمد بشكل مباشر أو غير مباشر على حياة الحشرات. ذلك أنه بمجرد استقرار الأمور الجديدة فى اليوتوبيا وتطبيق سياسة الدولة التعليمية، بدأ الاهتمام فى المجتمع اليوتوبى بفكرة مطروحة منذ وقت طويل للإبادة المنظمة للسلالات الضارة والمؤذية. وإثر ذلك أجريت دراسة دقيقة لحجم الضرر الذى تسببه – على سبيل المثال – ذبابة المنزل والدبابير ومختلف أنواع الفئران والأرانب والنباتات القرّاصة[1]، وإمكانية القضاء عليها تماماً.

---

(١) نباتات ذات وبر شائك (المترجم)

ومن هنا تمت محاكمة عشرات الآلاف من السلالات الحيوانية والنباتية، بدءاً من الجرثومة المسببة للمرض إلى وحيد القرن والضبع، وخصص لكل سلالة محاميًا للدفاع عنها.. وسئل كل محام" "ما نفعها؟.. وما ضررها؟.. وكيف يمكن محوها من الوجود؟.. وما الذى ينمحى وجوده مع انمحاء وجودها؟.. وهل ثمة جدوى حقيقية من إبادتها؟.. أو هل يمكن الإبقاء عليها مع التخفيف من أضرارها؟..وحتى بعد صدور حكم نهائى بالإعدام، كانت اليوتوبيا تنفذ عملية الإبادة بحرص شديد. وتم الإبقاء على عينة احتياطية من كل سلالة تم إعدامها، وفى حالات كثيرة كانت لا تزال موجودة فى مكان معزول تماماً.

وبهذه الطريقة تم التخلص تماماً من الكثير من أنواع الحميّات المعدية والوبائية.. بعضها اختفى بسهولة ويسر، وبعضها تم طرده من حياة البشر بعد إعلان الحرب وإخضاع كل الناس لنظام صارم.. كذلك تم التخلص التام من كثير من الطفيليات الداخلية والخارجية للإنسان والحيوانات.. كما تم تطهير العالم من الحشرات المؤذية والسامة والأعشاب الضارة والهوام والضوارى المتوحشة.. واختفى من الوجود كل من البعوضة وذبابة المنزل وذبابة اللحم، وفى الواقع أنواع كثيرة جداً من الذباب.. وذلك بشن حملات شاملة تضمنت جهوداً واسعة امتدت لأجيال كثيرة.

وبالطبع كان الأسهل التخلص من المضايقات الضخمة مثل الضباع والذئاب، من التخلص من تلك المضايقات الصغيرة الحجم. وتضمن الهجوم على الذباب إعادة بناء عدد كبير من المنازل اليوتوبية والتنظيف الدقيق لها في جميع أرجاء الكوكب.

وكان موضوع الكائنات التي ستهلك لو تمت إبادة سلالات معينة من الكائنات الحيوانية والنباتية من أدق وأصعب المشاكل التي واجهت اليوتوبيا.. فهناك مثلاً حشرات معينة تعتبر يرقاتها(١) في المراحل الأولى من دورة حياتها مدمرة وعدائية، ثم تصبح مؤذية فقط وهي خادرة(٢).. ثم تتحول إلى فراشة أو حشرة جميلة شكلاً، وتصبح ضرورية لتخصيب بعض الزهور الفاتنة الجميلة. وبعض الحشرات الأخرى تكون ضارة في ذاتها وفي الوقت ذاته غذاء ضروري - لا بديل عنه - لبعض المخلوقات الأخرى الرائعة والمفيدة.

لم يكن حقيقياً أن العصافير انقرضت من اليوتوبيا.. لكنها أصبحت نادرة جداً.. وكذلك ندر وجود عدد من الطيور الصغيرة الملتهمة للحشرات، مثل صائد الذباب أو طائر الهواء الملوّن.. لكنها

---

(١) تشبه الدودة وتمثل مرحلة من مراحل نمو الفراشة أو العثة (المترجم).

(٢) حشرة في الطور الانتقالي بين اليرقة والحشرة الكاملة (المترجم)

لم تنقرض تماماً.. إذ لم يصل القضاء على الحشرات إلى هذا الحد.. ولكن بقيت بعض السلالات الكافية لجعل بعض المناطق صالحة لحياة تلك الطيور الجميلة.

كما أن كثيراً من النباتات البغيضة كانت مصدراً مناسباً لمواد كيميائية معقدة لا يمكن تصنيعها إلا بجهد كبير وبتكاليف مرتفعة.. وبالتالى تم الحفاظ على وجودها فى نطاق محدود. والنباتات والزهور التى طالما كانت أكثر بساطة وطواعية فى أيدى المربين ومهجنى السلالات – مقارنة بالحيوانات – تغيرت كثيراً فى اليوتوبيا.. وكان بإمكان الأرضيين أن يعثروا على مئة نوع من أوراق النباتات والزهور الجميلة ذكية الرائحة الغريبة عليهم تماماً.. وعرف السيد (بارنستابل) أن النباتات تم تهيئتها وتربيتها لإنتاج إفرازات جديدة غير مسبوقة كالشمع والصمغ والزيوت الضرورية، وذلك بأفضل جودة ممكنة.

وتم بالفعل الكثير من مصادقة وترويض الحيوانات الكبيرة، خصوصاً آكلات اللحوم الضخمة، وتنظيفها وتمشيطها وتعويدها على تناول الألبان.. مع تهدئة طباعها الشرسة والعدوانية.. حتى أصبحت حيوانات أليفة ومصادر للمتعة فى اليوتوبيا.. وحتى الفيل الذى كان ينقرض ازدادت أعداده مرة أخرى، كما أنقذت اليوتوبيا زرافاتها.. والدب الأسمر أصبح ميالاً إلى الحلوى والتهام النباتات، وازدادت نسبة

ذكائه.. والكلاب أقلعت عن عادة النباح، وأصبحت نادرة الوجود نسبياً.. أما كلاب السباق والرياضة فلم يعد يربيها أحد، كذلك الحيوانات الأليفة الصغيرة.

ولم ير السيد (بارنستابل) أى جياد، ولكن؛ لأنه رجل حضرىّ عصرى فإنه لم يفتقدها كثيراً، ولم يسأل أى سؤال عنها بينما كان فى عالم اليوتوبيا.. ولم يستطع أن يعرف قط ما إذا كانت موجودة أو أنها انقرضت.. كما سمع فى أول فترة ما بعد الظهيرة له، فى هذا العالم المتسم بالتبديل والتنقيح والتطوير.. والتخلص من النباتات التى لا يرغبون فيها وزراعة كل الأنواع التى يريدونها.. فقد بدا له أن هذه أهم مرحلة طبيعية فى التاريخ البشرى.. وقال لنفسه: "على أية حال إنه اختراع رائع أن الإنسان خلق بستانياً.. فالآن يبيد الإنسان أى أعشاب أو نباتات ضارة ويزرع بنفسه ما يشاء من أنواع وسلالات نباتية".

لقد تكلم اليوتوبيون عن بدايات تجاربهم فى مجال تحسين النسل فى الجنس البشرى.. ثم عن قرارهم الجديد الراسخ باختيار الوالدين.. والتوسع فى علم الهندسة الوراثية.. وعندما قارن السيد (بارنستابل) بين الجمال الرائع للوجه والأعضاء الذى يتمتع به اليوتوبيون بالملامح الفظة والتناسبات البدنية غير المتناسقة لرفاقه الأرضيين.. أدرك أنه بعد نحو ثلاثة آلاف من سنوات الرقى والتميز

أوشك أولئك اليوتوبيون على السمو فوق الإنسان الحالى والاقتراب من بشرية أكثر نبلاً وعظمة.. إنهم يتحولون الآن إلى نوع جديد من البشر!

(٣)

نعم إنهم بلا شك نوع مختلف من البشر.. وبعد كل تلك الأسئلة والتفسيرات والأفكار المتبادلة فى عصر ذلك اليوم، أصبح واضحاً أكثر فأكثر للسيد (بارنستابل) أن فروق أجسامهم عن أجسام الأرضيين تعتبر لا شيء، بالمقارنة بفروق عقولهم عن عقول الأرضيين. والأفضل أن نبدأ بالقول بأن عقول الأطفال المثاليين أولئك، قد نمت لا يعوقها أو يضرها شيء من مثل تلك الاحتكاكات والإخفاءات، وأوجه الغموض والجهل الكثيرة التى تعوق نمو عقول الأرضيين.

الأطفال هناك طاهرون صرحاء نزهاء.. لم تتكوّن لديهم قط شكوى فى مدرسيهم أو مقاومة للتعليم. وهذه استجابة طبيعية للتعليم غير العدائى.. إنهم غير حذرين فى اتصالاتهم.. لأن كل جوانب السخرية والإخفاء والنفاق والخداع والزهو والغرور والطموحات التى تجدها فى المحادثات الأرضية تبدو مجهولة لهم.. ووجد السيد

(بارنستابل) أن هذا الوضوح الفعلى لهم فى نفس نقاء وإنعاش هواء الجبل الذى يتنفسه.. وأدهشه أن يجدهم حلماء وصرحاء على هذا النحو مع كائنات غير مهذبة مثل الأرضيين!

كانت كلمة غير مهذبة هى التى برقت فى ذهنه.. وهو نفسه شعر أنه أقلهم تهذيباً.. وكان خائفاً من أولئك اليوتوبيين.. وكان متكبراً ودنيئاً مقارنة بهم، وبدا كأرضى فظ أخرق فى حفلة الاستقبال.. وكان خجلاً للغاية من فظاظته تلك وكل الأرضيين الآخرين، باستثناء السيد (بيرليه) والليدى (ستيلا)، أظهروا شعوراً عدائياً لمخلوقات أدنى درجة، تقاوم إدراكها لهذه الحقيقة.

ومثل الأب (إمرتون) كان واضحاً أن سائق السيد (بيرليه) أصيب بصدمة مروعة وأقلقه حالة العرى السائدة لدى اليوتوبيين.. وعبرت أحاسيسه عن نفسها بالإشارات والإيحاءات والتقطيبات وتعليق ساخر بين وقت وآخر مثل: "لا أظـــن! أو حتى "ياللعجب!".. وقد وجّه تلك الكلمات إلى السيد (بارنستابل) أساساً، الذى اختلطت مشاعره بشكل واضح تجاهه – باعتباره مالكاً لسيارة صغيرة وقديمة – ما بين الاحتقار الشديد والزمالة الاجتماعية.. كذلك فقد لفت انتباه السيد (بارنستابل) إلى أى شىء يراه غريباً من حركة أو مشية أو وقفة.. وذلك بواسطة نظرة خاصة وتقطيبة، علاوة على رفع حاجبيه.. وكانت لديه طريقة فى الإشارة بفمه وأنفه.

كان السيد (بارنستابل) سيجدها فى الظروف الطبيعية أكثر إمتاعاً حقاً.

الليدى (ستيلا)، التى تركت انطباعاً قوياً لدى السيد (بارنستابل) فى البداية كسيدة عصرية راقية، بدأ يشعر الآن بأنها فى موقف دفاعى وأصبحت أكثر أرستقراطية، بيد أن السيد (بيرليه) احتفظ هو الآخر ببعض المهابة الأرستقراطية. وقد كان رجلاً عظيماً طوال حياته على الأرض.. وكان واضحاً أنه لا يرى سبباً يمنع قبوله كرجل عظيم هنا فى اليوتوبيا. على الأرض كان قد فعل القليل، وكان ذكياً واسع الأفق، وحقق نتائج يشار إليها بالبنان.. وهنا اتخذ عقله الواعى، المتسائل المتحرر من كل القيود والمزاعم والمعتقدات والرغبات المتطرفة، موقف الشخص المهم الذى يريد معرفة الحقيقة ببساطة شديدة وبأسلوب متعاطف ولكن غير محدد المعالم ومتحرر الفكر، وبخاصة أنظمة ومؤسسات دولة غريبة تماماً عنه، واتسمت كل محادثاته بعبارة جذابة هى: "هلا أخبرتنى".

كان المساء يحدق بهم، والسماء اليوتوبية الصافية تتألق بالشمس الغاربة ذهبية الأضواء، وكتلة ضخمة من السحب فوق البحيرة تخفت من اللون القرنفلى وتحوله إلى لون أرجوانى داكن. وفى ذلك الوقت فرض السيد (روبرت كاتسكيل) نفسه على اهتمام

السيد (بارنستابل).. وكان قلقاً ومتوتراً للغاية.. وقال له: "هناك شىء مهم أريد أن أقوله لك.. نعم شىء بالغ الأهمية".

الآن وثب – واقفاً – وسار إلى منتصف الدائرة النصفية التى تحدث منها السيد (بيرليه) من قبل فى فترة ما بعد الظهيرة.. وقال "السيد (سربنتين).. السيد (بيرليه).. هناك أشياء قليلة يسعدنى أن أقولها.. إذا تكرمتم بإعطائى الفرصة لقولها".

(٤)

خلع قبعته الرمادية العالية وعاد إلى مقعده ووضعها عليه، ثم اتجه إلى مركز الدائرة النصفية.. وأرجع ذيول سترته ووضع يديه على ردفيه.. ورفع رأسه إلى الأمام ونظر إلى الحضور للحظة، وعلى وجهه يرتسم تعبير يدل على شىء من المكر والتحدى.. وغمغم ببعض كلمات غير مسموعة ثم بدأ حديثه..

كانت مقدمته غير جذابة.. واتسم حديثه بلفظ الحروف بشكل خاطئ.. وأكثر من التلعثم، وخرج الكلام من حلقه بصعوبة، وأول جمل قليلة نطق بها كانت متشنجة ومهزوزة، ثم أصبح واضحاً للسيد (بارنستابل) أن السيد (كاتسكيل) يعبر عن وجهة نظر محددة للغاية، كان يطرح رأياً ذكياً مقنعاً فى اليوتوبيا. واختلف السيد (بارنستابل)

مع هذا النقد ولم يوافق عليه بالمرة، بل عارضه بعنف، لكن كان عليه أن يدرك أنه يعبر عن موقف عقلانى معقول.

بدأ السيد (كاتسكيل) حديثه بالاعتراف الصريح بجمال ونظام اليوتوبيا، وأثنى على "الصحة والعافية" التى رآها على "كل وجنة" وعلى الثراء والهدوء والراحة فى جميع جوانب الحياة اليوتوبية.. وعلى أنهم "روضوا قوى الطبيعة وأخضعوها كلها إلى هدف واحد ينبغى تحقيقه.. ألا وهو راحة الجنس الموجود".

غمغم السيد (بارنستابل) قائلاً: "لكن ماذا بشأن (آردن) و(جرينليك)؟".. لكن لم يسمع السيد (كاتسكيل) أو ينتبه إلى هذه المقاطعة، وواصل: "التأثير الأول سيدى الرئيس.. السيد (سربنتين).. الواجب أن أقول: إن التأثير الأول على العقل الأرضى كاسح.. أليس هذا عجيباً" – وحوّل بصره إلى السيد (بيرليه) والسيد (بارنستابل) – "أليس عجيباً أن الانبهار جعلنا نكاد نفقد صوابنا من فرط الحماس؟.. أليس عجيباً أن جمالكم الساحر خلب ألبابنا لبعض الوقت بحيث نسينا الكثير من طبائعنا، نسينا الدوافع والرغبات والضرورات الملحة والقوية والخفية.. وأصبحنا مستعدين لأن نقول: "لقد وجدنا هنا أخيراً أرض الأحلام.. دعونا نعش هنا ونكيف أنفسنا وفقاً لتلك الروعة المنظمة والمخططة ونقضى عمرنا كله هنا ونموت فى هذا المكان الرائع. وأنا أيضاً يا سيد (سربنتين) تأثرت بهذا السحر لبعض الوقت،

لكن لبعض الوقت فقط، الحقيقة يا سيدى أن لدى الكثير جداً من الأسئلة".

وأمسك ذهنه المتألق المتسرع بحقيقة أن كل مرحلة من مراحل تطهير وتنظيف اليوتوبيا من الآفات والطفيليات والأمراض، صاحبها إمكانية حدوث قصور أو خسائر غير مباشرة . أو لعل الأصوب القول بأن تلك الحقيقة هى التى أمسكت بتلابيب ذهنه واستحوذت عليه، وتجاهل التروى والاحتياطات التى صاحبت كل خطوة فى عملية صنع عالم صحى آمن للنشاط البشرى. وافترض وجود خسائر مع كل مكسب، وبدأ يضخم تلك الخسائر، وانطلق عفوياً إلى الاستعارات اللغوية[1]. وهذا شىء حتمى لبرلمانى بريطانى.. وأعلن أن اليوتوبيين يعيشون حياة سهلة للغاية وآمنة تماماً، وأضاف: "ويمكننى القول.. وبإباحية" (وقال السيد بارنستابل "إنهم يعلمون هذا").. ولكن مع ذهاب آلاف المضايقات والمنغّصات، ألم يذهب معها أيضاً شىء أكبر وأهم؟

"واعترف بأن الحياة على الأرض خطرة وغير آمنة ومليئة بالآلام والتوترات.. ونمتلئ فعلاً بالمحن والمشاكل والأحزان والكروب.. ولكن بسبب تلك الأشياء فإن بها لحظات من القوة والآمال

---

(١) التى يتم بها استخدام الكلمة أو العبارة لتدل على شئ غير المعنى الظاهر (المترجم) .

والمفاجآت السعيدة والهروب من الأخطار وتحقيق الإنجازات، التى لا يمكن لحياة اليوتوبيا المنظمة أن توفرها.. "هل تمكنتم من التخلص من الصراعات والأحزان والمخاطر؟.. ألم تبتعدوا عن الحياة وحقائقها المتغيرة؟".

وبدأ يمدح الحياة الأرضية، وأخذ يطرى على حيوية ونشاط الحياة على الأرض، كما لو لم تكن هناك علامات على الحيوية والنشاط فى كل تلك الروعة التى من حوله.. وتحدث عن "هدير مدننا المزدحمة" و"دوافع ملايينا المحتشدة" و"المد والجزر واسعا النطاق فى الأنشطة التجارية والصناعية والحروب".. التى "تتأرجح وتأتى وتذهب فى خلايا وملاذات جنسنا البشرى".

كان الرجل يتمتع بموهبة الخطابة واختيار الجمل المناسبة واللمسات المبدعة التى تحقق البلاغة.. ونسى السيد (بارنستابل) تلك العقبة البسيطة وغلاظة الصوت الذى قال هذه الأشياء.. واعترف السيد (كاتسكيل) بشجاعة بكل الشرور والمخاطر الأرضية التى أجملها السيد (بيرليه).. كل شىء قاله السيد (بيرليه) كان صحيحاً.. كل ما قاله لا يعبر عن الحقيقة تماماً.. فقد عرفنا المجاعة والطاعون.. وعانينا من آلاف الأمراض التى قضت عليها اليوتوبيا.. كابدنا ألف نوع من المنغّصات والمتاعب التى تعرف الآن فى اليوتوبيا تحت اسم "أحداث من الماضى".. فالفئران تقرض وذباب

الصيف يضايق ويغضب، فى بعض الأحيان الحياة تكون مقززة وفظيعة.. أعترف بذلك يا سيدى.. أعترف بذلك.. إننا نهبط كثيراً تحت مستوى خبراتكم المتطرفة إلى أعماق المشقة والقلق والبؤس والشقاء وعذاب النفس والبدن، إلى أعماق المرارة والحسرة والخوف واليأس.

"نعم.. لكن ألم نذهب لما هو أكثر من ذلك؟.. إننى أتحداكم فى هذا.. ما الذى يمكنكم معرفته فى هذا الأمان الواسع لقوة وحدة جهودنا التى يدفع إليها الذعر والخوف والهياج؟.. ماذا يمكنكم أن تعرفوه فى الإنقاذ المؤقت والفترات الفاصلة والهروب؟.. فكروا فى جوانب التعاسة الكثيرة التى لا يصل إليها عالمكم.. ماذا تعرفون هنا عن الأيام الأولى الحلوة للنقاهة؟ وعن الذهاب لقضاء إجازة بعيداً عن البيئة السيئة المحيطة بالمرء؟.. وعن المخاطر بالجسم أو الثروة من أجل الإنقاذ؟.. وعن كسب الرهان؟ وعن الخروج من السجن؟".

"سيدى، لقد قيل إن هناك فى عالمنا من ينبهر حتى بالألم ذاته!.. ولأن حياتنا مروّعة يا سيدى، فإن هناك – ولابد أن يكون هناك – لحظات أكثر إشراقاً منكم.. إن هذا أمر ذو مدى وتأثير كبير يا سيدى، ونحن تعودنا على المكاره وقويت أبداننا على تحملها.. لقد تمت معالجتنا إلى حد دقيق.. وهذه هى النقطة التى سوف أجىء إليها.. اطلبوا منا أن نوقف تلك الفوضى أو الأسى والكرب..

ومعدلات الوفاة العالية لدينا وأمراضنا البشعة.. وعند أول سؤال سوف يقول كل رجل وامرأة فى العالم: "نعم!.. بكل سرور!.. عند أول سؤال يا سيدى!".

استطاع السيد (كاتسكيل) أن يستأثر باهتمام الحضور.. ثم قال: "وعندئذ يجب أن نبدأ فى الكلام مع بعضنا البعض.. ويجب أن نسأل، كما تقولون إن علماءكم الطبيعيين سألوا عن ذبابكم والحشرات الأخرى الضارة، ما الذى سيضار ويهلك معها؟.. وما الثمن؟.. وعندما علمنا أن السعر هو الاستسلام لقوة الحياة وطاقة التعذيب والعنف والمصائب والنكبات اللعينة الخبيثة التى يسببها صراعنا الدائم، لم يكن يسعنا سوى أن نتردد، يجب أن نتردد. وفى النهاية يا سيدى أعتقد، أتمنى وأعتقد وأبتهل أن نقول "لا!.. يجب أن نقول لا!".

وقتئذ كان السيد (كاتسكيل) فى حالة شديدة من الانفعال والإثارة وتحفيز العقل.. وأخذ يقوم بحركات استفزازية قصيرة بقبضته المقفلة.. وارتفع صوته وانخفض وهدد بقوة.. وتأرجح يميناً ويساراً ثم استدار إلى رفاقه الأرضيين طلباً لموافقتهم.. وافتر ثغره عن ابتسامات متفرقة باتجاه السيد (بيرليه).

الحقيقة: أن فكرة أن عالمنا المتشاحن والواهن والذى تحركه الصدف هو منظومة عنيفة ومحبوكة من ردود الفعل القوية مقارنة بالصفاء والسكون الليليين لتلك اليوتوبيا سيطرت تماماً على عقله.. وأردف: "ولم يحدث قط من قبل، يا سيدى، أن أدركت كما أدرك الآن المصير المروع والمحفوف بالمخاطر الذى ينتظر جنسنا الأرضى.. وأنا أنظر إلى أرضكم هذه، أو أرض الأحلام، تلك الأرض المثالية التى اختفت من على ظهرها جميع أنواع الصراعات والمشاحنات...".

لمح السيد (بارنستابل) ابتسامة خافتة على وجه امرأة ذكرته بكاهنة دلفى[١].. وواصل الرجل: "وأنا أعترف ومعجب بالنظام والجمال هنا، مثلما قد يتوقف الحاج المصمم على أداء مناسك الحج والمغبر بالتراب، فى سعيه السامى والعجيب.. وأعترف كذلك بأننى معجب بنظام وجمال الحدائق الغناء لبعض المترفين والأثرياء.. ومثل ذلك الحاج فإننى أرجو الانصراف يا سيدى لكى أستفهم عن الحكمة الكامنة فى أسلوب حياتكم.. إذ إننى أفهم يا سيدى أن القاعدة المؤكدة الآن أن الحياة وكل طاقتها وروعتها تتحقق من خلال الصراع والكفاح والتنافس..

---

(١) فى لوحة مايكل أنجلو التى سبق الإشارة إليها (المترجم) .

"لقد تشكلنا وتقولبنا فى المتاعب والمصاعب.. وهكذا كنتم أيضاً يا سيدى.. ومع ذلك فأنتم تحلمون هنا أنكم قضيتم على الصراع إلى الأبد.. وأنا أتصور أن نظامكم الاقتصادى هو شكل ما من أشكال الاشتراكية، إذ إنكم قضيتم على التنافس فى جميع موضوعات السلام.. فدولتكم السياسية كيان عام واحد.. وأنتم قضيتم تماماً على مصادر الخطر وتطهرتم من جميع الحروب والأعمال القتالية المروّعة.. كل شيء هنا مرتب ومنظم ومجهز.. كل شيء آمن ومصون.. نعم يا سيدى، كل شيء آمن ومصون.. باستثناء شيء واحد..".

"ويؤسفنى إقلاق هدوئكم يا سيدى.. لكن يجب أن أتفوه باسم شيء واحد منسى.. هو الإنحطاط.. ترى ما هو الشيء الموجود هنا ويمنع حدوث الإنحطاط؟.. هل تمنعون الإنحطاط؟..".

"وما المقومات السارية هنا للكسل؟ وما مكافآت الطاقة المفرطة أو الجهد غير العادى؟.. وما الشيء الموجود هنا لجعل الإنسان مثابرًا ومجدًا ويقظًا، عندما لا توجد أى خسارة شخصية سوى بعض الخطر البعيد أو أمر يهم الرأى العام قليلاً؟.. ولبعض الوقت يمكنكم ببعض طاقة الدفع الذاتى أن تستمروا فى حياتكم.. وربما يبدو أنكم تحققون نجاحاً فى الأمور المختلفة.. نعم أنا أعترف بأنه يبدو أنكم تحققون نجاحاً فى كل المجالات.. إنه مجد الخريف!.. ازدهار الغروب!..

بينما تجدون حولكم فى الكون أجناساً موازية لكم.. أجناساً مماثلة لكم مازالت تتعب وتكد وتعاني.. وهى ليست كاملة وتقضى على ما تشاء وتجمع قوتها وطاقتها!".

ولوّح (كاتسكيل) بيده إلى اليوتوبيين مبدياً علامة النصر.. ثم استطرد: "ولكنى لا أحب أن تظن يا سيدى أن تلك الانتقادات لعالمكم أطرحها بدافع الكره والعداء لكم.. على العكس إننى أطرحها بشكل ودى للغاية وبروح متعاونة معكم تماماً.. إننى مجرد شخص يطرح عليكم فكرة.. لكن القضية كلها بين أيديكم أنتم.. وأنا أطرح تساؤلاتى هذه، حتى لو كنتم ترونها غير مناسبة؛ لأنه يجب علىّ ذلك.. لكن المهم هو هل الحكمة هى ما اخترتموه؟ إن لديكم اللطف والجمال والنور والفراغ.. موافق.. لكن إذا كان هناك ذلك العدد الكبير من الأكوان التى حدثتمونا عنها يا سيد (سربنتين)، بوضوح وإثارة.. وإذا كان أحد تلك الأكوان يمكنه أن ينفتح فجأة على كون آخر، كما فعل عالمنا وانفتح على عالمكم، فإنه يجدر بى أن أسألكم بصدق ما حدود الأمان لطاقتكم وجمالكم ونوركم وفراغكم؟.. إننا نتحدث هنا بينما نعلم أن ما يفصلنا ليس سوى حاجز رقيق، عن أكوان كثيرة لا يمكن حصرها".

"وانطلاقاً من هذه النقطة يا سيدى، يبدو لى أثناء وقوفى فى القاعة الذهبية العظيمة لهذا المكان.. أنه يمكننى سماع وقع أقدام أعداد

ضخمة جائعة وشرسة ودؤوبة مثل الفئران أو الذئاب.. والأصوات الغاضبة المتداخلة التى اعتادت على الألم والقسوة والتهديد ببطولات رهيبة واعتداءات بشعة لا رحمة فيها". وتوقف الرجل عن حديثه فجأة.. وابتسم ابتسامة خافتة.. وبدا للسيد (بارنستابل) أنه انتصر على اليوتوبيا.. ثم وقف ويداه على ردفيه وانحنى بتصلب، وقال كمن يتعمد هذا الوضع وعينه على السيد (بيرليه) وقال بلثغة بسيطة: "سيدى.. لقد انتهيت من كلمتى".

استدار ونظر إلى السيد (بارنستابل) للحظة.. ووجه مقطب تقريباً إلى حد الغمز.. وأومأ برأسه كما لو كان يدق مسماراً بمطرقة.. وتحرك بخفة عائداً إلى مكانه المخصص له.

(٥)

لم يرد (أورثريد) على السيد (كاتسكيل).. وإنما جلس واضعاً مرفقه على ركبته وذقنه على يده، ويفكر بصوت مسموع فيما قاله الرجل.. وقال وهو مستغرق فى تفكير عميق:"قوة القضم للفأر ومطاردة الذئب التى لا تهدأ لفريسته.. والمثابرة الآلية للدبور والذبابة والجراثيم المسببة للأمراض.. اختفت كلها من عالمنا.. نعم، هذا حقيقى.. لقد محونا ذلك الجانب من قوى الافتراس الموجودة فى

الحياة.. ولم نفقد شيئاً مهمًا يعادل ما كسبناه.. فمثلاً الألم والقذارة والبذاءة والإهانات سواء لذاتها أو أى كائنات أخرى، ذهبت كلها بلا رجعة..".

"لكن ليس صحيحاً أن المنافسة اختفت من عالمنا.. لكن لماذا يقول: إنها انقرضت؟.. كل إنسان هنا يعمل بأقصى طاقة له لتوفير الخدمات وتحقيق التميز.. لا أحد هنا يخدع نفسه ويتوقف عن بذل الجهد وأداء الواجب مثلما كان يفعل الناس فى عصر الفوضى.. حيث كان اللئيم والمولع بالمكسب يعيش ويترعرع فى رفاهية بسبب غفلة وإهمال الأجناس الأكرم والأنبل منه.. ولماذا يرى أننا نتفسخ وننحط؟.. لقد قيل له ما هو أفضل من ذلك فى الحقيقة..".

"إن الكسول والردىء لا ينجبان هنا.. ولماذا ترى يهددنا بأوهام اقتحام عالمنا من قبل عوالم أخرى شرسة وبربرية؟ إننا نحن الذين نستطيع أن نفتح أبواباً نلج منها إلى تلك الأكوان الأخرى أو نغلقها كما نشاء.. والسبب أننا نعرف ما نريد.. إذ يمكننا أن نذهب إليهم – عندما نعرف أننا سوف نفعل ذلك – لكنهم لا يستطيعون المجىء إلينا.. لا توجد طريقة سوى المعرفة للخروج من أسر الحياة.. ما الذى دهى عقل هذا الرجل؟..".

"هؤلاء الأرضيون مازالوا فى بدايات العلم.. إنهم غارقون حالياً - من الوجهة العملية - فى مرحلة الخوف والمحرمات، التى مرت بها اليوتوبيا أثناء تطورها قبل أن تصل إلى مرحلة الثقة والفهم.. ولقد كافح عالمنا أثناء عصر الفوضى الأخير للخروج من هذه المرحلة.. إذن عقول أولئك الأرضيين ممتلئة بالمخاوف والممنوعات.. ورغم أنه تبدى لهم أنه بمقدورهم السيطرة على الكون، إلا أن تلك الفكرة رهيبة ومازالوا غير قادرين على مواجهتها.. لذلك فقد حولوا تفكيرهم بعيداً عنها..".

"لكنهم مازالوا يريدون أن يفكروا، كما فعل آباؤهم من قبلهم، فى أن الكون يتم تدبيره بشكل أفضل مما لو سيطروا عليه بأنفسهم.. لأنه لو كان ذلك صحيحاً، فإنهم أحرار فى تلبية دوافعهم الفردية الوحشية.. وهم يصيحون قائلين "دع الخلق للخالق.. أو أخضعوا كل شىء للمنافسة".

وهنا قال السيد (بارنستابل) وهو مهتم للغاية: "النشوء والارتقاء[1] هى كلمتنا المباركة".. واستطرد (أورثريد): "إنه نفس الشىء نفسه. الله أو النشوء.. أو ما تريد.. طالما أنك تعنى القدرة التى

---

(١) النظرية القائلة بأن مجموعات الكائنات الحية تتغير بمرور الوقت بشكل أساسى نتيجة للانتقاء الطبيعى للعالم تشارلس داروين (١٨٠٩ - ١٨٨٢) (المترجم) .

تفوق قدرتك وتعفيك من تنفيذ واجبك.. واليوتوبيا تقول: "لا تترك الأشياء قط.. سيطر دائماً عليها".. بيد أن أولئك الأرضيين تنقصهم عادة النظر إلى الحقيقة المجردة.. إن هذا الرجل ذا القيد الكتانى الأبيض حول عنقه خائف حتى من أن ينظر إلى الرجال والنساء حسبما يكونون..".

"إنه مبتهج إلى حد كبير من الجسد البشرى العادى.. وهذا الرجل ذو العدسات الزجاجية أمام عينيه يناضل لكى يعتقد بأن هناك طبيعة أم عجوز حكيمة وراء ما يظهر من الأشياء، لخلق توازن فى الطبيعة.. وكان من الغريب أن نسمع عن هذا التوازن فى الطبيعة.. ترى هل يرى بعينيه والعدسات أفضل من ذلك؟.. وهذا الرجل الذى تحدث أخيراً بشكل مؤثر ومثير، يعتقد أن هذه الطبيعة الشمطاء مصدر لا ينتهى من الإرادة والطاقة، ولكن فقط إذا استسلمنا لنزواتها وقسوتها وقلدناها فى أكثر حالاتها بدائية وهمجية.. فقط إذا تهجمنا وقتلنا وسرقنا ونهبنا بعضنا البعض.. كما أنه يعظ بمبدأ الجبرية (القضاء والقدر) ويعتقد أنه يعلمنا علماً نافعاً..".

"وهؤلاء الأرضيون مازالوا لا يجرؤون على رؤية أمنا الطبيعة.. ففى مؤخرة عقولهم لازالت تكمن الرغبة فى ترك أنفسهم لها.. إنهم لا يرون أنها – باستثناء عيوننا وإرادتنا – ليس لا قيمة أو هدف.. إنها ليست مخيفة.. إنها رهيبـــة.. إنهـــا لا تبالى بمعاييرنا ولا

بأى معايير للجودة.. لقد صنعتها بالصدفة.. كل أولادها أبناء سفاح.. غير مرغوب فيهم.. إنها سوف تقدرهم أو تهتم بهم.. تدللهم أو تجوعهم أو تعذبهم بدون أى نظام أو منطق.. إنها لا تبالى لا تأبه قط.. إنها سوف ترفعنا إلى السلطة والذكاء والفهم.. أو تحقرنا إلى درجة العجز والوهن، مثل الأرانب أو القذارة البيضاء الموحلة التى تميز الآلاف من الطفيليات التعسة التى خلقتها..".

"ولابد أن هناك خيراً فيها.. لأنها خلقت كل ما هو طيب فينا.. لكن أيضاً هناك شر لا ينتهى.. ألا ترون أيها الأرضيون قذارتها وقسوتها والحقارة الجنونية لكثير من أعمالها؟".. وهنا غمغم السيد (فريدى موش):"ياللهول!.. أسوأ من "الطبيعة تكشر عن أنيابها ومخالبها".. فقال (أورثريد) وهو مستغرق فى التفكير: "هذه الأشياء بسيطة وعادية.. إذا كانت لديهم الجرأة لرؤيتها".

"وكذلك نصف السلالات الحية فى كوكبنا.. ونصف بل أكثر من نصف كافة الكائنات الحية.. كانت قبيحة المنظر وبغيضة وتافهة وبائسة وحقيرة.. وتتكالب عليها الأمراض.. وعاجزة وغير متكيفة مع الظروف الطبيعية دائمة التغير.. عندما سيطرنا على أمنا العجوز هذه.. وبعد قرون من الصراع تمكنا من قمع خيالاتها وقلقها البغيض، وغسلناها وسرحنا شعرها، وعلمناها أن تحترم وأن تعتنى بآخر طفل لعوب لها.. الإنسان..".

"ومع الإنسان جاء العقل والكلام والإرادة فى كوننا لأول مرة.. وذلك لملاحظتها والخوف منها وفهمها ثم التوقف عن الخوف منها.. لكى يعرفها ويفهمها ويسيطر عليها.. ومن هنا فإننا سكان اليوتوبيا لم نعد أطفال الطبيعة المهزومين والذين يتضورون جوعاً.. لكننا أصبحنا أبناءها الأحرار البالغين.. لقد سيطرنا على كنوز وممتلكات السيدة العجوز.. وكل يوم نتعلم بشكل أفضل كيف نسيطر على هذا الكوكب الصغير.. كل يوم تخرج أفكارنا بوضوح وثقة فى ميراثنا هذا.. كل النجوم.. بل وأعماق الكون التى وراء وتحت النجوم".

صاح السيد (بارنستابل): "لكنكم وصلتم إلى النجوم.. أليس كذلك؟".. فأجابه (أورثريد): "ليس بعد.. ولا حتى إلى الكواكب الأخرى.. لكن من الواضح تماماً أن الزمن الذى سنتوقف فيه تلك المسافات المروّعة عن تقييدنا قد بات وشيكاً.. ثم توقف وأردف: "كثير منا سوف يضطرون إلى الخروج هناك إلى أعماق الفضاء.. ولن يعودوا أبداً.. إنهم سوف يهبون حياتهم.. وفى ذلك الفضاء الجديـد.. أعـداد لا تحصى من الرجال الشجعان....". والتفت تجاه السيد (كاتسكيل) وأردف: "لقد وجدنا أن صراحتكم تعبر عن أفكار مهمة ومفيدة جداً لنا اليوم.. إنكم تساعدوننا على فهم ماضى كوكبنا..

وتساعدوننا على التعامل مع مشكلة ملحة سوف نشرحها لكم حالاً.. ونقدم حلاً لها".

"هناك أفكار وتصورات مثل ما لديكم موجودة فى كوكبنا القديم منذ ألفين أو ثلاثة آلاف عام مضت.. نفس التبشير بالعنف الأنانى كما لو كان إحدى الفضائل.. وحتى عندئذ فإن الأذكياء كانوا يعرفون أفضل، وأنتم أنفسكم كنتم ستعرفون أكثر ما لم تكونوا منغمسين فى أفكار خاطئة.. لكن من السهل أن نرى من أسلوبكم وطريقتكم أنكم متمسكون تماماً بأفكاركم".

"لكن يجب أن تدركوا أنكم لستم جميلى المنظر.. وربما أنكم لستم رائعين فى مسراتكم وأعمالكم.. لكن لديكم طاقة أكثر من وافرة، ولذلك من الطبيعي أن تتجهوا إلى الأخطار والهروب.. وأن تعتقدوا أن أفضل شيء فى الحياة هو الإحساس بالصراع والفوز.. وكذلك فى الفوضى الاقتصادية لمثل عالمكم هذا، هناك قدر من العناء الهائل الذى لابد أن تكابدوه.. عناء شاق لدرجة أنه يجعل كل إنسان متلهفاً للتخلص من أكبر قدر منه والزعم بإعفائه منه بسبب نبل أصله أو شجاعته أو ثروته الطائلة..".

"الناس فى عالمكم لابد أنهم يقنعون أنفسهم بسهولة بالغة بأنهم مستثنون عن جدارة، وأنتم متأثرون فعلاً بهذا الاقتناع.. إنكم تعيشون

فى مجتمع متعدد الطبقات.. وعقولكم سيئة التدريب لم تجد ما يضطرها إلى اختراع أعذار لها، فالطبقة التى تولدون فيها تقدم لكم كل الأعذار جاهزة.. ولذلك فإنكم تأخذون الأفضل من كل شيء بدون تحرج.. وأنتم تغامرون بحياتكم على حساب الناس الآخرين أساساً.. بينما عقولكم مدربة فى جميع الظروف على مقاومة فكرة أن هناك طريقة ما ممكنة لحياة الإنسان بحيث تكون مستقرة ومنظمة وفى نفس الوقت نفسه نشطة ومليئة بالسعادة.

"إنكم جادلتم كثيراً ضد هذا الاقتناع طوال حياتكم، كما لو كان عدوكم الشخصى.. إنه بحق عدوكم الشخصى.. وهو يدين تماماً طريقتكم في الحياة.. إنه يدينكم بشدة بسبب مغامراتكم ومجازفاتكم.. والآن عندما وجدتم عالماً يعيش فيه الناس فى نظام وجمال وروعة، لازلتم تقاومون.. تقاومون للهرب من الرعب والخوف.. وتجادلون بأن عالمنا هذا غير عاطفى وتعوزه القوة ومتدهور ومتدنٍّ. والآن من حيث القوة المادية أو البدنية.. هلاّ قبضت بيديك على يد الشاب الجالس بجوارك".

لمح السيد (كاتسكيل) اليد الممدودة إليه وهز رأسه عن معرفة، وقال "استمر فى الكلام.." فواصل (أورثريد): "ومع ذلك فعندما أخبرك بأن لا إرادتنا ولا إحساسنا أضعف منكم، فإن عقولكم تنكر ذلك بعناد.. وأنتم لن تصدقوا ذلك.. فإذا اعترفت عقولكم بذلك

للحظة، فإنها تعود بعد ذلك إلى منظومة الإقناعات التى تحمون بها غروركم واعتدادكم بأنفسكم.. ويوجد شخص واحد منكم فقط هو الذى يتقبل عالمنا كما هو عليه.. وهو إنما يفعل ذلك ضجراً من عالمكم وليس حباً فى عالمنا.. هذا هو ما أعتقده حقاً..".

"إن عقولكم تنتمى إلى عصر الفوضى.. وهى مدربة على الصراع والقلق وعدم الاستقرار والأنانية.. وفى هذا الإطار علمتكم الطبيعة ودولتكم كيف تعيشون وتلبون احتياجاتكم حتى تموتوا.. وهذه الدروس لا يتم تعلمها إلا فى عشرات الآلاف من الأجيال.. من خلال التعليم البطىء طوال ثلاثة آلاف عام".

"ونحن حائرون فى موضوع ماذا نفعل معكم؟.. إننا سوف نبذل أقصى جهدنا لكى نتعامل معكم بصداقة وود، طالما أنكم تحترمون قوانيننا وأساليب حياتنا.. ولكننا نعرف أن ذلك سيكون صعباً جداً عليكم.. وأنتم لا تدركون إلى الآن كيف ستصعب عليكم عاداتكم وأفكاركم المسبقة هذا الأمر.. إن مجموعتكم تصرفت بطريقة معقولة ومناسبة حتى الآن.. من حيث التصرف وليس الفكر.. لكن لدينا تجارب سابقة مع الطرق والأساليب التى يتبعها الأرضيون ذات طبيعة أكثر مأساوية إلى حد كبير.."

"وأما قولكم باحتمال حدوث هجوم عنيف بربرى علينا من عوالم أخرى فقد كان له نظير غريب فى واقعنا الآن.. نعم، من الحقيقى أن ثمة شيئاً مخيفاً ومقززاً وخطراً فى الأرضيين.. أنكم لستم الوحيدين الذين أقبلوا إلى اليوتوبيا من خلال تلك البوابة التى انفتحت للحظة أمامكم اليوم.. فهناك آخرون.....".

قال السيد (بارنستابل): "بالطبع!.. كان لابد أن أستنتج ذلك.. تلك المجموعة الثالثة!".. وقال أورثريد: "كما أن هناك تلك الآلات القاطرة العجيبة التى قدمت من عندكم إلى اليوتوبيا".. فقال السيد (بارنستابل): للسيد (بيرليه): "السيارة الرمادية! ياللعجب!.. إنها كانت أمامك بمسافة لا تزيد على مائة ياردة".. فقال سائق السيد (بيرليه): "لقد سابقتنا من (هاونسلو).. إنها سيارة رائعة!".

وهنا التفت السيد (بيرليه) إلى السيد (فريدى موش) وقال له: "أظن أنك قلت إنك تعرفت على شخص ما.. أليس كذلك؟.. فقال السيد (فريدى موش): "إنه اللورد (بارالونجا) يا سيدى.. أنا واثق من ذلك تماماً.. وأظن أيضاً الآنسة (جريتا جراى)".. فقال السيد (بارنستابل): "لكن كان هناك رجلان آخران".. فقال السيد (بيرليه): "إن ذلك سوف يعقد الأمر تماماً".. فأجاب (أورثريد): "هؤلاء الآخرون – وهم خمسة أشخاص على وجه التحديد– الذين يبدو أنكم تعرفون أسماءهم جاءوا إلى اليوتوبيا أمام سيارتكما مباشرة.. وبدلا من أن يتوقفوا، مثلما فعلتم

أنتم، عندما وجدوا أنفسهم على طريق جديد وغريب.. فقد زادوا من سرعتهم عندئذ بدرجة هائلة..".

"ومروا ببعض الرجال والنساء وأشاروا إليهم بإشارات عجيبة وأصدروا ضجيجاً هائلاً بواسطة أداة أو وسيلة مصممة لهذا الغرض.. وفى طريقهم بعد ذلك قابلوا فهداً فضياً وهجموا عليه وصدموه وساروا فوقه بالسيارة وكسروا ظهره.. ولا يوجد أى دليل على أنهم توقفوا لكى يعرفوا ما حدث.. وأقبل شاب يسمى (جولد) على الطريق يطالبهم بالتوقف.. لكن آلتهم المتحركة مصممة بطريقة عجيبة ومعقدة وحمقاء للغاية.. إنها لا تستطيع أن تتوقف فوراً.. وهى لا تدار بمحرك واحد توجد سيطرة كاملة عليه".

"نعم، يوجد فى داخل الآلة المحركة صراع داخلى.. إذ يوجد بها محرك من نوع غريب يدفعها إلى الأمام بواسطة ترس مسنن معقد مركب على محور العجلتين الخلفيتين.. ولها أدوات توقف خرقاء بواسطة قوى الاحتكاك فى نقاط معينة.. ومن الواضح أنه يمكنكم قيادة تلك الآلة المتحركة بأقصى سرعة، وفى الوقت نفسه تثبتون العجلات بحيث تحولون دون دورانها..

وعندما خطا هذا الشاب على الطريق أمامهم، لم يتمكنوا قط من الوقوف.. ولعلهم حاولوا الوقوف.. وهم يقولون إنهم حاولوا ذلك.. وتأرجحت آلتهم المتحركة بقوة بشكل خطر وصدمته بجانبها".

قال السيد (بيرليه): "وهل قتلوه؟" .. فأجاب (أورثريد): "لقد قتلوه على الفور وأصيب جسده إصابات هائلة.. ولكنهم حتى لم يتوقفوا إثر هذا الحادث.. لقد تناقصت سرعتهم وتشاوروا بسرعة مع بعضهم البعض.. ولما وجدوا الناس يقبلون عليهم، أداروا آلتهم الجهنمية مرة أخرى وانطلقوا لساعتهم.. ويبدو أنهم أصيبوا بذعر مروع وخافوا من إلقاء القبض عليهم".

"ومن الصعب علينا للغاية فهم دوافعهم.. عموماً لقد انطلقوا لحال سبيلهم.. وطافوا داخل دولتنا لبضع ساعات.. وحلقت طائرة لمتابعتهم وطائرة ثانية لإخلاء الطريق أمامهم.. ولكن واجهنا صعوبة كبيرة فى إخلاء الطريق.. لأنه لا شعبنا ولا حيواناتنا تفهم تلك السيارات ولا تصرفاتها العجيبة.. وفى فترة العصر وصلوا إلى منطقة جبلية، وهناك أدركوا أن طرقنا ملساء للغاية ويصعب على آلتهم التحرك فوقها".

"أصدرت آلتهم المتحركة ضجيجاً هائلاً.. كما لو كانت تصر على أسنانها.. وأطلقت بخاراً أزرق ذا رائحة كريهة جداً.. وعند أحد

الأركان التى كان يجب أن تتوقف عندها، تزحلقت جانباً وانقلبت من فوق جرف صخرى وسقطت من على ارتفاع قامتى رجلين تقريباً فى شلال".

سأل السيد (بيرليه) بنبرة بدت للسيد (بارنستابل) أنها تتسم بالتوتر والقلق "وهل قتلوا من جراء ذلك؟".. "ولا واحد منهم".. قال السيد (بيرليه): "حسناً!.. ولكن ماذا حدث بعد ذلك؟".. "أحدهم كسر ذراعه، والثانى أصيب بقطع فى وجهه.. والرجلان الآخران والسيدة لم يصابوا بأى ضرر.. باستثناء الذعر والصدمة.. وعندما وصل إليهم شعبنا، رفع الرجال الأربعة أيديهم فوق رؤوسهم. ويبدو لنا أنهم خافوا من أن يقتلوا لفورهم وأنهم فعلوا هكذا طلباً للرحمة والإبقاء على حياتهم".

"وماذا سوف تفعلون معهم".. "إننا سوف نحضرهم إلى هنا.. إننا نفضل أن تجتمعوا أيها الأرضيون كلكم هنا.. وفى الوقت الحالى لا نستطيع أن نتصور ماذا يجب أن نفعل معكم.. فنحن نريد أن نتعلم منكم ونريد أن نكون ودودين معكم، إذا كان ذلك ممكناً.. واقترح البعض ضرورة إعادتكم إلى عالمكم.. وفى النهاية؛ فإن ذلك سوف يكون أفضل الأشياء.. لكن فى الوقت الحالى لا ندرى.. ماذا يجب أن نفعل معكم بالضبط".

"وعندما حاول (آردن) و(جرينليك) أن يديرا جزءاً من مادتنا خلال البعد (ف)، كانا يعتقدان أنهما سيديرانه فى فضاء خال فى ذلك البعد.. لكن حقيقة وجودكم هناك ثم احتجازكم داخل عالمنا هو آخر شىء كنا نتوقع حدوثه هنا فى اليوتوبيا طوال ألف عام كاملة".

الفصل السابع

إحضار مجموعة اللورد (بارالونجا)

انفض المؤتمر إثر هذا الإعلان.. غير أنه لم يتم إحضار اللورد (بارالونجا) ورفاقه إلى ساحة المؤتمر إلا بعد حلول الظلام بوقت كاف.. ولم يبذل أحد أى جهد لوقف أو كبح تحركات الأرضيين أو السيطرة عليها.. وسار السيد (بيرليه) إلى البحيرة مع الليدى (ستيلا) والأخصائى النفسى الذى يدعى (ليون).. وهو يسأل ويجيب عن الأسئلة.. وتحرك سائق السيد (بيرليه) وهو حزين.. ولكنه ظل على مقربة من رب عمله.. بينما تأبط السيد (روبرت كاتسكيل) ذراع السيد (موش) وسارا معاً كما لو أنه يوعز إليه ببعض التعليمات.

أراد السيد (بارنستابل) أن يسير بمفرده لكي يستحضر ويستوعب المفاجآت المذهلة التى وقعت عصر ذلك اليوم.. ولكى يتعود على روعة هذا العالم الرائع للغاية.. فالآن أصبح يلفه السحر

والغموض فى ضوء الشفق.. وجثم الظلام على أشجاره وزهوره وشحب لونها.. وبدأت أشكال مبانيه الرائعة والمتناسقة تذوب تدريجياً فى غموض الشفق.

إلا أن دنيوية[١] رفاقه حالت دون اندماجه فى هذا العالم الذى كان يود أن يقبله ويستوعبه كأحد أفراده لو لم يكن أرضياً.. كان داخل هذا العالم، ولكن فقط كغريب ومتطفل متنافر معه.. ومع ذلك فقد أحب هذا العالم بالفعل.. وتمنى بشدة أن يصبح جزءاً منه.. وتولّد لديه إحساس مبهم ولكنه قوى لو تمكن من الهرب من رفاقه.. لو أمكنه بطريقة ما خلع ملابسه الأرضية وكل شىء على جسمه يعلمه بأنه أرضى ويربطه بالأرض، فإنه بمجرد أن يفعل ذلك فسوف يصبح مواطناً فى اليوتوبيا.. وعندئذ يختفى تماماً من عقله ذلك الإحساس المقلق والمؤلم.. وهذه الغربة المزعجة الكئيبة.

وسوف يجد نفسه – فجأة – يوتوبياً طبيعياً وحقيقياً.. وسوف تتحول الأرض عندئذ إلى حلم لا يصدق.. حلم سوف يخبو ويتبدد أخيراً نهائيًا من عقله. ولكن لبعض الوقت حال احتياج الأب (إمرتون) إلى من يسمعه دون مثل هذا الانفصال عن الأفكار والأشياء الأرضية. إذا اقترب كثيراً من السيد (بارنستابل).. وأطلق

---

(١) حب الدنيا (الأرض) والتمسك بها (المترجم)

عليه وابلاً من الأسئلة والتعليقات التى أعطت لمشهده اليوتوبى صفة معرض (إيرل كورت) وبأن كليهما يزور هذا المعرض وينتقد محتوياته.

كان ذلك بالتأكيد مؤقتاً وقابلاً للمناقشة وغير حقيقى بالنسبة له. لدرجة أن السيد (بارنستابل) شعر بأنه لن يندهش إذا أدخل فجأة فى المشهد الطبيعى، قعقعة وضجيج محطة السكة الحديدية (إيرل كورت) أو أظهر البرج القوطى[1] التقليدى المدبب لكنيسة (سانت برناباز) فى الغرب.

فى البداية كان عقل الأب (إمرتون) مشغولاً أساساً بحقيقة أنه فى الغد سوف يتعاملون معه على ضوء المشهد الذى حدث بالمؤتمر.. وحدّث نفسه للمرة الرابعة قائلا: "ولكن كيف سيتعاملون معى؟". وقال السيد (بارنستابل) "معذرة.. ماذا قلت؟".. وفى كل مرة تحدث فيها الأب (إمرتون) مع نفسه، قال له السيد (بارنستابل): "معذرة.. ماذا قلت؟".. كان الأب (إمرتون) يقول له: "يجب أن تستشير طبيباً بخصوص سمعك".. ثم يواصل ما كان عليه..

---

(١) الطراز القوطى الذى ساد فى غرب أوروبا من القرن ١٢ إلى ١٥ ويتميز بالأقواس المستدقة والقناطر والنتوءات (المترجم)

وسأل الأب (إمرتون) السيد (بارنستابل) والغسق يكتنفهما معاً: "كيف يمكنهم أن يتعاملوا معى؟.. نعم كيف سيتعاملون معى؟".. فقال له السيد (بارنستابل): "أوه.. عن طريق التحليل النفسى أو أى شىء من هذا القبيل".. وقال الأب (إمرتون): "إن الأمر يحتاج إلى اثنين للعب هذه اللعبة".. لكن بدا للسيد (بارنستابل) من نبرة صوته نوع ما من الارتياح.. واستطرد: "لكن مهما كان ما سيسألوننى عنه.. ومهما اقترحوا أو أوحوا إلىّ.. فإننى لن أفشل.. وسوف أدلى بشهادتى".

قال السيد (بارنستابل) بمرارة: "ليس لدىّ شك فى أنهم سيجدون أنه من الصعب عليهم الضغط عليك".. وسارا معاً فى صمت بين الشجيرات الطويلة ذكية الرائحة ذات الثمار البيضاء.. ومن وقت إلى آخر يسرع السيد (بارنستابل) أو يبطئ خطواته بهدف زيادة المسافة التى تفصله عن الأب (إمرتون).. غير أن الأب (إمرتون) استجاب آلياً لهذه المحاولات وحذا حذوها.. وبدأ يتكلم مرة أخرى: "الإباحية.. هل هناك كلمة أخرى يمكنك استخدامها؟".. قال السيد (بارنستابل): "المعذرة.. ماذا قلت لتوك؟".. قال: "ما الكلمة الأخرى التى كان يمكننى استخدامها بدلاً من الإباحية"؟.. ما الذى يمكن أن يتوقعه المرء من أناس يجرون هنا وهناك بمثل هذه الملابس الفاضحة.. سوى أخلاقيات القرود والحيوانات؟.. إنهم يعترفون بأن نظام الزواج لدينا غير معروف لهم!".

قال السيد (بارنستابل) بإنفعال: "إن هذا عالم مختلف يا عزيزى.. عالم مختلف".. فقال الأب (إمرتون): "ولكن القوانين الأخلاقية تصلح لكل عالم تتصوره"..: "إلا فى عالم تكاثر فيه الناس بالانقسام ولا يوجد فيه جنس؟".. "يمكن أن تكون الأخلاقيات أكثر بساطة، ولكنها على أية حال تظل أخلاقيات".. وهنا طالبه السيد (بارنستابل) بمعذرته مرة أخرى، فقال الأب (إمرتون): "كنت أقول: إن هذا عالم مفقود".. فقال السيد (بارنستابل): "إنه لا يبدو لى مفقوداً.."ولكنه ترك الخلاص[١] ونسيه تماماً"..

وضع السيد (بارنستابل) يديه فى جيبه وبدأ يصفر بلحن موسيقى أغنية "البر كارول"[٢]، من قصة "حكايات هوفمان"، بصوت منخفض لنفسه.. ترى هل سيتركه الأب (إمرتون) فى وقت ما؟.. ألا يمكن عمل شيء للأب (إمرتون)؟.. مثلا فى المعارض القديمة فى (إيرل كورت) كان يوجد عادة سلال من السلك لإلقاء المخلفات الورقية وأعقاب السجائر والفضلات بها.. فهل يمكن لأحد أن يفقد الأب (إمرتون) الوعى ويلقيه فجأة فى أحد تلك السلال؟

---

(١) الخلاص من الخطيئة كما فى اللاهوت (المترجم)

(٢) اغنية ينشدها بحارة الجندول فى مدينة البندقية بإيطاليا (المترجم)

"لقد طُرح الخلاص من الخطايا عليهم ولكنهم رفضوه ونسوه تماماً وراء ظهورهم.. وهذا هو السبب فى أننا أُرسلنا إليهم.. لقد تم إرسالنا إليهم لكى نذكرهم بأهم شىء.. بالشىء الذى نسوه.. ومرة أخرى علينا أن نرفع رمز الشفاء كما رفعه موسى فى البرية. ومهمتنا ليست بسيطة.. لقد أرسلنا إلى هذا الجحيم من المادية الحسية...".

قال السيد (بارنستابل) وهو لازال يصفر بلحن الأغنية "يا إله السماوات!".. ثم أردف "معذرة.. ماذا قلت؟".. "يا إلهى! أين النجم القطبى؟.. وما الذى حدث لكوكبة الدب الأكبر؟"(١)

نظر السيد (بارنستابل) إلى أعلى.. لم يفكر فى النجوم من قبل.. لكنه نظر إلى أعلى فى هذا الكون الجديد لكى يرى أغرب الكوكبات النجمية.. ولكن لأن الحياة وحجم الكوكب الذى كانا عليه كانا متقاربين جداً لنظيريهما الأرضيين، فقد نظر إلى فوق ليجد قبة مزدانة بنجوم ذات أشكال مألوفة.. ومثلما فشل الكوكب اليوتوبى فى أن يتطابق تماماً مع شقيقه الأرض.. فإن تلك المجموعات النجمية كانت مختلفة أيضاً فى أشكالها.. واعتقد أن كوكبة الجبار (الجوزاء) انتشرت وازداد عرضها.. ولها سديم ضخم غير مألوف فى أحد

---

(١) تقع فى المنطقة القطبية الشمالية وكان العرب يسمونها "بنات نعش الكبرى" (المترجم)

أركانها.. وكان ذلك حقيقياً.. كوكبة الدب الأكبر تسطحت تماماً، وأشار المؤشران[1] إلى فراغ مروع فى السماء.

قال الأب (إمرتون): "لقد اختفى النجم القطبى!.. انظر إلى المؤشرين.. الدب الأكبر منحرف عن مكانه المألوف.. إن هذا يرمز إلى شىء ما.. كان واضحاً جداً أن ذلك يرمز إلى شىء ما.. وأدرك السيد (بارنستابل) أن عاصفة جديدة من الفصاحة والبلاغة على وشك أن تنطلق من الأب (إمرتون).. وعلى أية حال، فقد شعر أنه يتعين إبعاد أو إضعاف هذا الإزعاج الذى لا لزوم له.

(٢)

على الأرض كان السيد (بارنستابل) ضحية مستسلمة للإزعاجات والمضايقات من كل نوع.. بينما هو يراعى باهتمام وقلق القيود العقلية التى جعلت ضغطها اللاشعورى ممكناً.. بيد أن المظهر الحر لليوتوبيا ازداد وقعه فى عقله، وأطلق مبادرات حال إدراكه- الذى يحترم للغاية رغبات الغير - دون انطلاقها قبل ذلك.. وقد ناله ما يكفيه من الأب (إمرتون).. وأصبح من الضرورى التخلص من الأب (إمرتون).. وبدأ يفعل ذلك الآن بأسلوب مباشر أدهشه شخصياً.

---

(١) نجمان فى كوكبة الدب الأكبر تشيران إلى النجم القطبى (المترجم)

قال: "أيها الأب (إمرتون).. لدىّ اعتراف أود أن أدلى به إليك".. فصاح الأب (إمرتون): "آه!.. من فضلك.. قل ما تريد".. :"لقد صحبتنى للسير وأخذت تصيح فى أذنى.. حتى قويت لدى الرغبة فى قتلك".. "لو كان ما قلته قد صدمك....".. "إنه لم يصدمنى.. لقد كان مجرد ثرثرة مزعجة حمقاء كادت تصم أذنىّ.. إنها تضايقنى بشكل لا يوصف.. وتحول دون ملاحظتى لكل تلك الأشياء الرائعة من حولنا والتمتع بها.. وأعرف بالضبط ماذا تقصد عندما تقول إنه لا يوجد نجم قطبى هنا.. إن هذا يرمز إلى شىء ما".

"لكنك أحد تلك النفوس العنيدة التى تؤمن رغم كل الدلائل والأدلة أن التلال الأبدية مازالت أبدية وأن النجوم الثابتة تظل ثابتة إلى الأبد.. أريدك أن تفهم أننى غير مهتم بكل تلك الموضوعات التى تشغل بالك وغير متعاطف معها.. ويبدو لى أنك تجمع فى نفسك كل ما هو خطأ وقبيح ومستحيل فى التعاليم الكاثوليكية.. وأنا متفق مع أولئك اليوتوبيين فى أن هناك خللاً فى عقلك بشأن الجنس.. هو بكل الاحتمالات انحراف كريه فى مفهومك له منذ باكورة حياتك.. وأن ما تصر على قوله والإشارة إليه مراراً وتكراراً عن الحياة الجنسية هى أفكار كريهة وشائنة"..

"وأنا ضدك تماماً وساخط عليك ورافض لما تقوله عن جوهر الدين.. إنك تجعل الدين مقززاً تماماً مثلما تجعل الجنس مقززا.. إنك

قسيس قذر.. والمسيحية التى تفهمها عبارة عن خرافات كريهة مظلمة.. ومجرد عذر للخبث والمضايقات.. إنك تسيء إلى السيد المسيح.. وإذا كنت مسيحياً، فإننى أقول بكل اقتناع بأننى لست مسيحياً.. ولكن هناك معانى أخرى للمسيحية غير تلك التى تقحمها عليها"..

"وبمعنى آخر فإن هذه اليوتوبيا هنا هى المسيحية وراء كل حلم أو وهم.. وبما يتعدى كل فهمنا وتصورنا.. لقد جئنا إلى هذا العالم العظيم.. الذى لو قارناه بعالمنا لقلنا إنه كأس من الكريستال بالمقارنة بعلبة صفيح قديمة.. وأنت تجد لديك الوقاحة التى لا تحتمل لكى تقول: إننا حضرنا إلى هنا الآن كمبشرين لتعليمهم.. والله فقط هو الذى يعلم ما سنعلمه لهم"..

بهت الأب (إيمرتون) قليلاً مما سمعه.. لكنه جمع أفكاره بشجاعة وقال: "نعم.. الله هو الذى يعلم".. فصاح السيد (بارنستابل): "أوه.. يا إلهى!".. ووقف لحظة لا يستطيع فيها أن ينطق بكلمة.. وقال الأب (إمرتون) وهو يمسكه من معصمه "إصغ إلىّ يا صديقى....".. فصاح السيد (بارنستابل) وهو يتراجع مبتعداً: "لا.. لا جدوى من المحاولة معى!.. انظر!.. هناك فى هذا المشهد.. بعيداً عند شاطئ البحيرة.. أولئك الأشخاص هم السيد (بيرليه) والسيد (موش) والليدى (ستيلا).. هم الذين أُحضروا إلى هنا.. إنهم ينتمون

إلى مجموعتكم وأنت تنتمى إليهم.. وإذا لم يكونوا يرغبون فى صحبتك لما كنت ركبت معهم فى سيارتهم.. والآن اذهب إليهم. لن أصحبك بعد الآن قط.. إننى أمقتك وأرفض كل ما تقوله أو تفكر به.. هذا شأنك أنت.. أما هذا المكان الذى به المبنى الصغير فيخصنى أنا فقط.. لا تحاول أن تتبعنى إلى هناك وإلا فإننى سوف أمسك بك وأطلب لك اليوتوبيين لكى يتصرفوا معك.. وأطلب منك أن تعذرنى على صراحتى هذه يا سيد (إمرتون).. ولكن هلا انصرفت من أمامى!.. اغرب عن وجهى!".

استدار السيد (بارنستابل).. ولما رأى أن الأب (إمرتون) يقف متردداً فى مفارق الطريق.. أسرع فى سيره ولاذ بالفرار منه. هرب من خلال ممر خلف السياجات الشجرية.. ثم استدار بزاوية حادة إلى اليمين، ثم إلى اليسار، وعبر جسراً عالياً يمر أمام شلال صغير ينطلق منه الرشاش والرذاذ ليسقط على وجهه.. وتعثر فى اثنين من العشاق يتهامسان بصوت خافت فى الظلام.. ثم ركض بشكل مراوغ عبر مرج مزدان بالزهور.. وأخيراً ألقى بنفسه لاهثاً على درجات السلم الذى يفضى إلى المدخل الذى يطل على البحيرة والجبال، والذى كان مزيناً – كما بدا له فى الضوء الخافت – بأشكال حجرية جاثمة لحيوانات وبشر يقظين وجالسين..

صاح السيد (بارنستابل): "ما أروعك أيتها النجوم الرحيمة!.. أخيراً أصبحت بمفردى".. وجلس على الدرجات لفترة طويلة من الزمن وعيناه مشدودتان إلى المنظر المحيط به فى انبهار.. وأسعده أن يدرك عدم وجود أى أرضىّ ليعكر عليه صفو تلك اللحظة.. حيث يجلس مع اليوتوبيا وجهاً لوجه.. ولو لفترة من الزمن.

(٣)

لم يستطع أن يسمى هذا العالم "عالم أحلامه".. لأنه لم يجرؤ من قبل على أن يحلم بأى عالم يقترب كثيراً من شكل رغبات وخيالات وتصورات قلبه.. لكن هذا العالم كان بالطبع كذلك.. أو أقرب ما يكون إلى ذلك.. وهو عالم ظل كامناً تحت أفكار وأحلام آلاف الرجال والنساء العقلاء والمضطربين فى عالم الاضطرابات الذى أتى منه.. إنه ليس عالماً لسلام وأمان خاويين.. وليس عالماً للتفسخ والإباحية، كما حاول السيد (كاتسكيل) تصويره.. بل إنه – كما تصور السيد (بارنستابل) – عالم يموج بالصراع والقتال، حيث عليك دائماً أن تكتسب وتنتصر على قسوة وعناد القوة والمادة.. وعلى الانفصالات المقفزة للفضاء الخالى جميع أسرار الوجود العدائية.

وفى اليوتوبيا فى الماضى، حيث الإنجازات والبطولات السطحية التى تعوق التقدم الفكرى للسياسيين مثل (بيرليه) و(كاتسكيل) ومنافسات التجار والمستثمرين والقذرين والسوقيين من رفاقهم الأرضيين، على الأعمال الدؤوبة للمفكرين الهادئين والصبورين والمدرسين وجميع الأساسات التى شيدت فوقها كل تلك الأنشطة المكثفة.. وما أقل أولئك الرواد الأوائل الذين أحسوا بأكثر من ومضة عابرة من الفتنة الصحيحة للعالم الذى جعلته حياتهم ممكناً وحقيقة واقعة.

ومع ذلك فحتى وسط الكراهية والعذاب والمحن فى أيام الاضطراب، لابد أنه كان هناك اهتمام كاف بإمكانيات الحياة الرائعة والفاتنة.. ففوق الأحياء الفقيرة القذرة نجد أن غروب الشمس يدعو الإنسان إلى الخيال.. ولابد أن صخور الجبال عبر الوديان الواسعة.. والجروف الصخرية وجوانب الجبال والتلال.. وروعة وسحر وغموض البحار.. كانت بمثابة لمحات خاطفة عن روعة وجمال الوجود الذى لا يصدق، وفى الوقت نفسه يمكن تحقيقه.. كل تويجة زهرة وكل ورقة شجر مضاءة بنور الشمس وقوة ونشاط الكائنات الغضة ولحظات سعادة عقول البشر تتفوق على نفسها فى الفن.. كل هذه الأشياء لابد أنها كانت بالغة الأهمية لكى يوجد الأمل والدافع إلى بذل الجهد.. ثم أخيراً... هذا العالم!

رفع السيد (بارنستابل) يديه كمن يتعبد للنجوم الكثيرة المبهجة من فوقه.. وهمس "لقد رأيت.. لقد رأيت".. وكانت أضواء صغيرة ووهج رقيق مضيء تنبعث هنا وهناك فوق الحديقة الكبيرة للمبانى التى تشبه الأزهار والأماكن الخالية بالحدائق التى تنحدر تجاه البحيرة.. وفوق رأسه تطن طائرة تدور، هى نفسها تبدو مثل نجم فى السماء.

اقترب فتاة رشيقة بجواره وهبطت على الدرجات وتوقفت عندما شاهدته.. وسألته "هل أنت أحد الأرضيين؟".. وفى نفس الوقت سطع شعاع من ضوء رقيق على السيد (بارنستابل) من السوار الموجود حول ذراعها.

قال السيد (بارنستابل) وهو يحدق فيها: "لقد جئت اليوم".. فقالت: "إذن أنت الرجل الذى جاء بمفره فى آلة صغيرة من الصفيح.. وبها أكياس هواء مطاطية حول عجلاتها.. ومن أسفل صدئة للغاية.. وذات طلاء أصفر.. لقد كنت أنظر إليها". قال السيد (بارنستابل): "إنها لست سيارة صغيرة سيئة".. فى البداية ظننا أن القسيس جاء معك بها".. "إنه ليس صديقى كما قد تتصورين".. :"كان هنا فى اليوتوبيا منذ سنوات مضت قساوسة مثله تماماً.. وسببوا أذى كبير للناس". قال السيد (بارنستابل): "لقد جاء مع المجموعة الأخرى.. أعتقد أن مجيئه معهم فى عطلة نهاية الأسبوع كان خطأ".. وجلست على إحدى

الدرجات الأعلى منه، وقالت: "من المدهش أنكم جئتم من عالمكم إلى هنا.. لكن هل وجدتم كوكبنا هذا رائعاً بالنسبة إليكم؟.. إننى أفترض أشياء كثيرة لعلها تبدو مألوفة لى، لأننى ولدت بينهم ولكن هل تبدو رائعة بالنسبة إليكم".. :"إنك لست متقدمة فى السن.. أليس كذلك؟".

قالت الفتاة : "أنا فى الحادية عشرة. وأدرس التاريخ الخاص بعصور الفوضى.. وهم يقولون أن عالمكم مازال فى عصر الفوضى.. يبدو لى كما لو أنكم جئتم إلينا من الماضى.. من التاريخ.. لقد كنت فى المؤتمر ولاحظت وجهك.. إنك تحب عالمنا الحالى.. على الأقل أنت تحبه أكثر مما يحبه رفاقك الآخرون".. :"إننى أريد أن أقضى ما تبقى لى من عمر هنا".. إننى أتساءل عما إذا كان ذلك ممكناً؟".

قال السيد (بارنستابل): "ولماذا لا يكون ممكنا؟.. إن ذلك سيكون أسهل من إعادتى إلى عالمى. ويجب أن أكون فى طريقى لتحقيق ذلك.. وسوف أقضى هنا فترة لا تزيد على عشرين أو ثلاثين عاماً على الأكثر.. وسوف أتعلم كل شىء يمكننى عمله وأعمل كل شىء يقال لى".. "لكن ألا يوجد فى عالمك عمل عليك القيام به؟".. فلم يجب السيد (بارنستابل)على هذا السؤال.. بل يبدو أنه لم يسمعه.. ثم كانت الفتاة هى أول من كسر الصمت الذى ران بينهما..

"إنهم يقولون إنه عندما كنا نحن اليوتوبيين شباباً، قبل أن تتشكل وتنضج عقولنا وشخصياتنا.. كنا نشبه تماماً الرجال والنساء من عصر الفوضى.. ويقولون إننا كنا وقتئذ مغرورين وأنانيين.. وأن الحياة من حولنا لازالت مجهولة لنا.. وأننا مغامرون وخياليون.. وأظن أننى مغرورة ومغامرة فعلاً.. ولكن يبدو لى كذلك، أنه بالرغم من كثير من الأشياء الرهيبة والمروعة التى حدثت.. لابد أن هناك أشياء كانت مثيرة ومرغوبًا فيها فى الماضى، والتى لازالت تشبه حاضركم.. مثل قائد عسكرى يدخل مدينة مهزومة.. أو أمير يتم تتويجه ملكاً؟.. أو أن تكون ثرياً وقادراً على إدهاش قومك بتصرفات قاهرة أو ببعض أعمال الخير والإحسان.. أو أن تكون شهيداً تموت من أجل قضية رائعة أسيىء فهمها؟"..

قال السيد (بارنستابل) بعد تفكير ملىّ: "إن مثل هذه الأشياء تبدو جميلة فى القصص والتاريخ وليس فى الحقيقة.. هل سمعت السيد (روبرت كاتسكيل)، آخر من ألقى خطبة من الأرضيين؟.. "إنه رجل يفكر بطريقة رومانسية.. غير أن مظهره لا يبدو كذلك".. "لقد عاش حياة رومانسية بالفعل.. وقاتل بشجاعة فى الحروب.. وأُسر فى أحد تلك الحروب ثم هرب بطريقة بارعة من سجنه.. وخيالاته العنيفة الجامحة أدت إلى موت الآلاف من الناس.. والآن سوف نرى مغامراً رومانسياً آخر هو اللورد (بارالونجا) الذى سيحضرونه هنا..

إنه ثرى جداً ويحاول إدهاش الناس بثروته.. مثلما حلمت أنت بإدهاش الناس. أليس كذلك؟".

"نعم.. ولكن ألم يندهشوا؟".. قال السيد (بارنستابل): "الرومانسية ليست حقيقية.. إنه واحد فقط من عدد من الأثرياء الفاسدين المتخبطين الذين يتعبون أنفسهم ذاتها، وفى الوقت ذاته يضايقون بقية الناس في كل مكان من العالم بشكل لا يحتمل.. إنهم يهدفون إلى عمل أشياء سوقية ومبهرجة.. وهذا الرجل (بارالونجا) كان مساعداً لمصور فوتوغرافى وممثلاً أو نحو ذلك عندما ظهر إلى الوجود اختراع يسمى الصور المتحركة أو السينما.. ثم أصبح متخصصاً وباحثاً مرموقاً فى مهنة عرض تلك الصور المتحركة.. جزئياً بالصدفة وجزئياً بغش وخداع مختلف المخترعين والمعنيين بالأمر بشكل مجرد من القيم الأخلاقية ثم انطلق فى مجال المضاربات فى الشحن والتجارة التى تتم فى عالمنا للحوم المتجمدة التى تنقل لمسافات طويلة..

"وبسببه أصبح الطعام مرتفع الثمن بالنسبة إلى بعض الناس، ومستحيلاً بالنسبة للبعض الآخر.. وهكذا ازدادت ثروة الرجل زيادة هائلة.. ففى عالمنا تزداد ثروة المرء عندما يتحكم فى الخدمات التى تقدم للناس بدلاً من توفيرها وتيسيرها لهم.. وبعد أن أصبح من كبار الأثرياء وتوطدت صلاته بالسياسيين من كوكبنا، الذين قدم لهم

خدمات كلما احتاجوا إليها.. كافأوه بأن منحوه لقب "لورد".. لكن هل تفهمين كل الأشياء التى أحدثك عنها؟.. هل كان عصر الفوضى لديكم مشابهاً لما يحدث عندنا؟.. إنك لم تعرفى بالطبع كم كان سيئاً وبشعاً".

"ومعذرة إذا كنت قد خيبت آماللك وبددت الوهم الذى فى خيالك بشأن عصر الفوضى وتداعياته الرومانسية.. لكننى خرجت لتوى الآن من الغبار والفوضى والأحزان التى يتسم بها نظامه الغير المنضبط.. ونأيت عن قيوده وقسوته ومضايقاته ابتعدت عن تعبه وضجره وجوه الخانق الذى تموت فيه الآمال.. وإذا كان عالمنا يجذبك ويثير فضولك، فلعله تتاح لك فرصة المغامرة بترك كل هذا الجمال والنظام. والفوضى فى قلاقله واضطراباته. وسوف تكون هذه مغامرة حقيقية لك.. ترى من يعلم ماذا يمكن أن يحدث بين عالمينا؟.. غير أننى أخشى أنك لن تحبينه.. إذ لا يمكنك أن تتصورى مدى قذارة عالمنا.. نعم، فلن تجدى هناك سوى القذارة والسفالة والمرض.. وأظن أن هذه الأشياء ليست إلا ذيولاً للرومانسية".

سادت فترة من الصمت بينهما.. وسرح هو فى أفكاره وتصوراته.. بينما جلست الفتاة وأخذت تتأمله ملياً.. وأخيراً تحدث مرة أخرى: "هل أخبرك بما كنت أفكر فيه عندما تحدثت إلى؟".. "نعم".. :"عالمكم هذا هو غاية أو منتهى مليون حلم قديم. فهو رائع

للغاية، أو لنقل أنه فردوس على الأرض.. وما يحزننى جداً الآن هو عدم وجود صديقين حميمين لى معى هنا الآن لكى يشاهدا ما أشاهده.. ومن الغريب اشتداد تفكيرى فيهما الآن.. أحدهما تجاوز الآن كل حدود العوالم وياللأسف.. ولكن الآخر مازال موجوداً فى عالمى"..

"من المؤكد أنك طالبة يا عزيزتى.. لأننى أعتقد أن كل شخص فى عالمكم طالب.. لكن فى عالمنا الطلاب فئة مخصوصة من الناس.. وكنا نحن الثلاثة سعداء لأننا كنا طلبة ولم ندخل بعد فى دوامة العمل الفنى الذى لا معنى له.. وعلى الرغم من ذلك فلعلنا كنا سعداء لأننا كنا فقراء للغاية، ودائماً جوعى نشتهى الطعام.. ودأبنا على الحديث والمناقشة مع بعضنا البعض ومع غيرنا من أفراد المجتمع الدراسى.. نناقش اضطرابات وفوضى عالمنا.. وكيف يمكن تحسينها يوماً ما.. ترى هل كان فى عصر الفوضى بعالمكم هذا النوع من الحياة الدراسية التى طحنها الفقر وتتوق إلى الخلاص منه؟".

قالت الفتاة وعيناها مركزتان على جانب وجهه :"استمر أرجوك.. لقد قرأت فى الروايات القديمة عن عالم الطلبة الذين طحنهم الجوع ويحلمون بمستقبل أفضل".. :"اتفقنا نحن الثلاثة على أن الاحتياج الأعظم لزماننا هو التعليم.. وأنه أفضل خدمة يمكن أن

نلتحق بها لكى نُدلى بدلونا.. وشرعنا نحن الثلاثة ننفذ هذا المخطط، ولكن كل بطريقة مختلفة عن الآخرين. وكنت أنا أقلهم إنجازاً".

"افترقنا أنا وصديقاى عن بعضنا البعض قليلاً.. هما حررا نشرة دورية شهرية كبيرة تعمل على لم شمل العلماء والطلبة وكل العاملين فى المجال العلمى.. ونظراً؛ لأن صديقى كان يعمل بشركة نشر ناجحة، فقد حرر كتباً مدرسية لها وأجرى بحثاً تعليمياً، وقام بالتفتيش على مدارسنا لصالح جامعتنا.. وكان صديقى هذا لا يهتم بالراتب والربح، ولا أن يصبح ثرياً ولو بقدر معقول، على الرغم من أن أولئك الناشرين استفادوا مالياً كثيراً من عمله لديهم.. وكانت حياته كلها عبارة عن تعب وخدمات متواصلة من أجل التعليم.. ولم يحصل على أجازة كافية، شهر مثلاً أو نحو ذلك، فى أى عام طوال حياته".

"وأثناء حياته لم أهتم كثيراً بما كان يفعله.. ولكن منذ أن مات سمعت، من المدرسين الذين قام بالتفتيش على مدارسهم، ومن مؤلفى الكتب الذين قدم لهم نصائحه، عن الجهد الخلاق عالى الجودة الذى كان يبذله.. ومدى الصبر وروح التعاون والتعاطف التى كان يتحلى بها فى عمله.. وعلى حياة مثل هذا الرجل وأمثاله تأسست تلك اليوتوبيا التى يعيشون عليها أروع حياة.. واعتماداً على حياة هذا

الرجل وأمثاله، فإن عالمنا الأرضى سوف يبنى عالم اليوتوبيا الخاص به".

"غير أن حياة صديقى هذا انتهت فجأة بطريقة قطعت نياط قلبى.. فقد كان يعمل بجد واجتهاد وطوال ساعات كثيرة فى وقت عصيب لم يكن من المناسب أن يحصل فيه على إجازة لكى يستريح من عناء العمل.. وأصيب الرجل بانهيار عصبى مفاجئ وطار عقله.. ومر بمرحلة من الاكتئاب الشديد، ثم لم يلبث أن مات.. ذلك أنه حقيقى تماماً أن الطبيعة لا هى صائبة ولا رحيمة.. وحدث ذلك منذ بضعة أسابيع مضت.. ووقفت أنا وصديقنا الثالث العجوز وزوجته – الذين ساعدناه بلا توقف طوال حياته – ضمن المعزين فى جنازته.. وفى تلك الليلة تعود إلىّ ذكريات تلك الأحداث بوضوح غير عادى.. أنا لا أعرف كيف تتخلصون من موتاكم هنا، لكن على الأرض يتم غالباً دفن الموتى تحت سطح الأرض..".. فقالت الفتاة: "يتم حرق جثثنا هنا".

"أولئك ذوو العقول المتحررة فى عالمنا يتم حرقهم أيضاً.. وصديقنا هذا تم حرقه.. ووقفنا فى الجنازة واشتركنا فى القداس طبقاً لطقوس ديننا القديم الذى لم نعد نؤمن به الآن.. ورأينا نعشه المغطى بأكاليل الزهور يتحرك أمامنا بعيداً عن أنظارنا من خلال بوابات تفضى إلى أفران المحرقة.. وأثناء سير النعش، آخذاً معه الكثير من

ذكريات شبابى، رأيت صديقى الآخر العجوز وهو ينتحب.. كنت أنا الآخر أغالب دموعى وأفكر فى انقضاء حياة هذا البطل المخلص المجتهد بهذا الشكل المؤسف والمؤلم والمجحف".

"كان القسيس يقرأ موعظة مملة طويلة كتبها كاتب لاهوتى يسمى (بول)، مليئة بمزاعم وحجج سيئة بالتشبيه، والتمثيل والتأكيدات المشكوك فى صحتها.. وودت - بدلاً من طرح أفكار كل هذا الماضى العظيم المبدع - أن يقال بعض الشىء عن نبل وخلق صديقنا المتوفى.. ومدى روعة وعظمة عمله واحتقاره للأشياء الجشعة والاحتيالية.. وطوال حياته كان يعمل مكرساً كل جهوده لعالم مثل هذا.. ومع ذلك فإننى أشك فى أنه نجح فى تحقيق أى حياة أفضل للإنسان، فى مستقبل الأيام القادمة".

"عاش هذا الرجل بإيمانه، نعم كان مؤمناً حقاً، لكنه لم يكن هناك أى ضوء للشمس أو للأمل فى حياته.. ولو كان بإمكانى إحضاره إلى هنا الآن، وكذلك صديقنا الثالث الذى انفطر قلبه بموته، لو أمكننى إحضارهما هنا.. لو كان بإمكانى أن أتنازل لهما عن مكانى هنا بحيث يمكنهما أن يريا عظمة حياتهما منعكسة ومترجمة فى هذه النتائج العظيمة التى تولّدت عنها.. وعندئذ فقط يمكننى أن أسعد وأتمتع باليوتوبيا حقاً.. بيد أننى أشعر الآن كما لوأننى استوليت على مدخرات صديقنا العظيم وأننى أنفقها على نفسى هنا".

تذكر السيد (بارنستابل) فجأة مدى صغر سن مستمعته.. ولذلك أسرع يقول لها: "معذرة يا طفلتى العزيزة.. أعرف أننى أطلت عليك الحديث.. غير أن صوتك كان جميلاً وودوداً".. وأجابت الفتاة بالإنحناء له وتقبيل يده الممتدة إليها بشفتيها.. ثم فجأة انتفضت واقفة على قدميها، وقالت :"انظر إلى هذا الضوء المنطلق هناك بين النجوم!".. ووقف السيد (بارنستابل) بجوارها.. وأردفت: "هذه الطائرة تحضر اللورد (بارالونجا) وجماعته.. اللورد (بارالونجا) الذى قتل رجلاً اليوم!.. لكن هل هو رجل قوى ضخم.. رائع شديد المراس؟".

وقف السيد (بارنستابل) مشدوهاً من المفاجأة والسؤال.. ونظر بتمعن فى الوجه العذب المجاور له والمرفوع إليه.. وقال: "إننى لم أر هذا الرجل قط.. لكننى أعتقد أنه رجل أصلع شاب صغير الجسم، يعانى بشدة من اضطرابات في الكبد والكليتين.. وحال ذلك المرض دون تبديد طاقته على الرياضات الشبابية والمتع الدنيوية، مما مكنه من تركيز طاقته على اكتساب واكتناز الأموال والممتلكات.. وهكذا أصبح قادراً على شراء لقبه النبيل الذى يداعب أوتار خيالك.. والآن هيا معى لكى نلق نظرة عليه".

وقفت الفتاة بلا حراك وعيناها تنظران في عينيه.. كانت فى الحادية عشرة من عمرها.. وفى مثل طوله تقريباً.. وقالت :"ألم يكن

هناك أية رومانسية فى الماضى؟".. :"فقط فى قلوب الشباب.. ثم ماتت".. :"لكن أليست هناك أية رومانسية؟".. "رومانسية لا تنتهى.. سوف تبزغ شمسها قريباً جداً.. من أجلك".

(٤)

كانت عملية إحضار اللورد (بارالونجا) وجماعته أمراً مخيباً للآمال مقارنة مع هذا اليوم الرائع الذى قضاه السيد (بارنستابل).. كان متعباً.. وكره بدون أى سبب معقول غزو أولئك الناس لليوتوبيا.

تم إحضار مجموعتى الأرضيين معاً إلى قاعة ذات إضاءة شديدة بالقرب من المروج التى هبطت عليها طائرة (بارالونجا) وحضر الزوار الجدد فى مجموعة واحدة.. قلقين ومجهدين من السفر وعليهم علامات الإرهاق والاكتئاب.. لكن كان واضحاً أنهم فرحوا للغاية بمقابلة أرضيين آخرين فى تلك التجربة التى مازالت بالنسبة إليهم عجيبة ومحيّرة.. إذ لم يكن لديهم شىء يقارنونه بالمناقشة الصافية الراقية فى مكان عقد المؤتمر.. والفترة البسيطة التى قضوها فى هذا العالم الغريب مازالت تشكل لغزاً غير مفهوم بالنسبة إليهم.

اللورد (بارالونجا) كان هو صاحب الوجه الذى يشبه القزم الخرافى[1] الذى حدق فى السيد (بارنستابل) عندما تجاوزته السيارة الرمادية الضخمة على طريق "ميدنهيد".. جمجمته كانت منخفضة جداً وعريضة فوق حاجبيه، حتى أنه ذكر السيد (بارنستابل) بالفتاحة المسطحة للزجاجات!.. وبدا سريع الاهتياج ومجهداً.. أشعث الشعر متغضن الملابس بشكل واضح كما لو كان خارجاً من شجار أو نحو ذلك.. وإحدى ذراعيه مقيدة.. وعيناه البنيتان الصغيرتان يقظتان وحذرتان مثل عينى قنفذ البحر الشرس.. وكان يقتاده أحد رجال الشرطة.

وبجواره مباشرة يسير رجل مألوف له، هو سائق صغير الجسم يشبه فارس سباقات الخيول، كان يناديه باسم "ريدلى".. وقد اتسم وجه (ريدلى) بإصرار وحزم رجل، وجد نفسه فى موقف صعب فقرر ألا يستسلم له أبداً.. وجنته وأذنه اليسرى قطعتا فى اصطدام السيارة وعليهما ضمادة لاصقة كبيرة.. وكانت الآنسة (جريتا جراى)، وهى السيدة الوحيدة فى المجموعة، شقراء رائعة الجمال تلبس رداء أنيقاً من قماش "الفانيلا" الصوفى الأبيض.. وبدت هادئة للغاية وغير مبالية بالظروف التى وجدت نفسها فيها، كما لو

---

(١) قزم خرافى فى الأساطير يعيش تحت الأرض يحرس الكنوز فى باطنها (المترجم)

أنها لم تشعر قط بغرابتها.. ووقفت شامخة منتصبة البدن بنفس الغطرسة المعتادة لفتاة جميلة.. وهى معرضة لخطر أية تعليقات جائرة من أى مكان.

الشخصان الآخران فى المجموعة كانا أمريكيان شاحبى الوجه يرتديان ملابس رمادية.. حذرى العينين.. كان الأول اسمه – كما عرف السيد (بارنستابل) من السيد (موش) – (هنكر)، ملك السينما، والشخص الثانى فرنسى منفوش الثياب يرتدى ملابس داكنة أنيقة .. ويتحدث الإنجليزية بغير طلاقة.. وبدا كما لو كان قد وقع بالصدفة فى مجموعة اللورد (بارالونجا) وأنه ليس تابعاً لها.

قفز عقل السيد (بارنستابل) إلى النتيجة.. ولم يحدث بعد ذلك أى شيء يغير رأيه.. بأن مصلحة ما فى السينما هى التى دفعت بهذا السيد إلى ضيافة اللورد (بارالونجا).. وأنه أُلقى القبض عليه بشكل غير لائق أثناء رحلة عطلة نهاية الأسبوع.

عندما تقدم اللورد (بارالونجا) والسيد (هنكر) لتحية السيد (بيرلنيه) والسيد (كاتسكيل).. قدم الفرنسى نفسه إلى السيد (بارنستابل) سائلاً إياه عما إذا كان يتحدث الفرنسية.. وقال له: "إننى لا أفهم.. لقد كنا ذاهبين إلى (فيلتشاير) ثم وقع حادث رهيب.. لكننى لا أعرف ماذا حدث وما نوع الناس أولئك الذين يتحدثون الفرنسية بفصاحة؟..

هل هذه إحدى نكات اللورد (بارالونجا).. أم أنها حلم.. قل لى بربك ما الذى حدث لنا؟"..

حاول السيد (بارنستابل) أن يقدم إليه بعض التفسيرات.. وقال الفرنسى: "بعد ثان، وعالم ثان!.. ياللعجب.. ومع ذلك فلا بأس.. لكن لدى أعمال مهمة يجب أن أقوم بها فى لندن.. وليس هناك داع لكى أعود بهذه الطريقة إلى فرنسا.. أقصد فرنسا أخرى فى عالم آخر.. إن الأمر ليس أكثر من مزحة سخيفة".

حاول السيد (بارنستابل) أن يطرح مزيداً من الشرح والتفسير.. ولكن كان واضحاً من الحيرة البادية على وجه محدثه أن العبارات التى استخدمها صعبة الفهم بالنسبة إليه.. والتفت يائساً إلى الليدى (ستيلا) ووجد أنها مستعدة للقيام بتلك المهمة.. وقال: "هذه السيدة سوف تساعدك بقدر إمكانها لجعل الأمور سهلة بالنسبة إليك.. عزيزتى الليدى (ستيلا).. هذا هو السيد....".. فانحنى الفرنسى قائلاً: "(إميل ديبونت).. وأنا ما يمكنكم أن تطلقا عليه صحافى وإعلامى.. أنا مهتم بالسينما من حيث التعليم والدعاية.. وهذا هو السبب فى أننى هنا مع فخامة اللورد (بارالونجا)".

كانت المحادثة الفرنسية أهم إنجازات الليدى (ستيلا).. ولم تلبث أن انطلقت تتحدث بها بمنتهى السهولة.. وتولت مهمة شرح كل

شيء للسيد (ديبونت).. ولم تتوقف إلا لتخبر الآنسة (جريتا جراى) بمدى سعادتها بوجود امرأة أخرى معها فى هذا العالم الغريب.

بعد أن تخلص السيد (بارنستابل) من السيد (ديبونت)، تقهقر وتفحص مجموعة الأرضيين الصغيرة فى مركز القاعة ودائرة اليوتوبيين اليقظين والحذرين طوال القامة المحيطين بهم والمنعزلين عنهم.. ولم يبد السيد (بيرليه) ترحيباً ودياً باللورد (بارالونجا).. بينما قال السيد (هنكر) أنه أسعده للغاية مقابلة "أعظم السياسيين البريطانيين".. ووقف السيد (كاتسكيل) بطريقة ودية جداً بجوار (بارالونجا) ، فقد كانا يعرفان بعضهما جيداً.. وتبادل الأب (إمرتون) التعليقات مع السيد (موش) وبدأ السيد (ريدلى) و(بينك) – بعد فترة من البرود – يناقشان أحداث اليوم بصوت خفيض.. أما (بارنستابل) فلم يهتم به أحد.

كان ذلك أشبه ما يكون بمقابلة بين مجموعة من الناس فى محطة سكة حديدية.. بعضهم يستقبل بعض.. كان مثل شيء عادى ومألوف للغاية.. كان مرهقاً ومكتئباً.. وقد أنهكته تماماً المفاجـآت العجيبة.. وتثاءب فجأة وقال: "أوه! إننى ذاهب إلى مخدعى!.. نعم أريد أن أنام فى سريرى الصغير".

شق طريقه خلال اليوتوبيين ودودى الأعين حتى خرج إلى السكون المضاء بنور النجوم.. وأومأ برأسه إلى السديم[1] الغريب الموجود بركن كوكبة الجوزاء، مثلما يومئ الأب المرهق إلى أحد أولاده المزعجين.. وسوف يفكر فى ذلك مرة أخرى فى الصباح.. وترنح وهو شبه نعسان وسط الحدائق متجهاً إلى المسكن الخاص به.. ثم خلع ملابسه وألقى بنفسه فى سريره حيث أخلد لتوه فى نوم عميق كطفل متعب للغاية.

---

(١) جرم فضائى على شكل سحابة رقيقة تمتد لمسافات شاسعة (المترجم).

المقر الصخرى للحجر الصحى

الفصل الأول

الوباء[1]

ألقى الوباء العظيم فى اليوتوبيا بظله على مجموعتنا الصغيرة من الأرضيين، وفى اليوم الثانى لتوافدهم من كل حدب وصوب، إذ لأكثر من عشرين قرناً تحرر اليوتوبيون تماماً من أى مرض معدٍ أو إلتهاب جرثومى. ولم تنته فقط كل أنواع الحميات الوبائية البالغة الصعوبة، والأمراض الجلدية بجميع أنواعها من حيوات البشر والحيوانات، ولكن أيضاً كل الأمراض البسيطة مثل نزلات البرد والسعال والإنفلونزا وما شابهها، قد تمت السيطرة والقضاء عليها. بالعزل والتحكم بناقلى المرض وهلم جرا، كذلك أمكن حصار الجراثيم المميتة وأجبرت على الفناء، وبعد ذلك بدأ تغير مواز فى فسيولوجيا[2] اليوتوبيين.

---

(١) مرض منتشر بشكل سريع وكثيف عن طريق العدوى مؤثراً على الكثير من الأفراد فى الوقت ذاته (المترجم).

(٢) علم وظائف الأعضاء (المترجم).

فالإفرازات والتفاعلات، التى كانت تعطى الجسم القوة لمقاومة المرض، قد بدأت فى النقصان. وسحبت الطاقة التى كانت تنتجها، للقيام بخدمات أخرى أكثر أهمية للجسم. وهكذا تم إعفاء فسيولوجيا اليوتوتبيون من تلك الضروريات الدفاعية، وأصبحت أشد بساطة وأصبح النشاط العضوى أكثر مباشرة وفاعلية. إن هذا التخلص التام من الأمراض، كان تاريخاً قديماً فى اليوتوبيا، لدرجة أن المتخصصين فقط فى تاريخ علم الأنسجة، هم الذين يدركون أى شىء عن البؤس الذى عاناه الجنس البشرى من الأمراض، وحتى هؤلاء المتخصصون لا يبدو أن لديهم أى فكرة، متى أمكن للجنس البشرى فقد تلك المقاومة السابقة للأمراض.. ويبدو أن أول شخص فكر فى هذه القوة المقاومة المفقودة، هو السيد (روبرت كاتسكيل). تذكر السيد (بارنستابل) هذا عندما اجتمعوا مبكراً فى صباحِ أول يوم من إقامتهم فى حدائق المؤتمر، وكان قد لمّح إلى أن الطبيعة كانت - بطريقة لا يمكن شرحها - فى صف الأرضيين. وعلى الرغم مما حدث لهم من أمور بغيضة، إلا أن الطبيعة بالتأكيد، كانت إلى جانبهم.

وفى مساء اليوم الثانى من وصولهم، فإن كل شخص تعامل مع الأرضيين - باستثناء (ليكنيس) و(سربنتين) وثلاثة أو أربعة آخرين الذين حافظوا على شىء من الأجسام المضادة[١] المتوارثة

---

(١) القدرة على معالجة الأمراض الناتجة عن السموم البيولوجية أو إحداث مناعة ضدها (المترجم).

عن أسلافهم – أصابتهم حمى مع سعال وإلتهاب فى الحلق وألم موجع فى العظام وصداع، وحالة من الاكتئاب والبؤس الجسدى، التى لم يعرفها سكان اليوتوبيا منذ عشرين قرناً. وكان أول سكان اليوتوبيا، الذين تعرضوا للوفاة هو ذلك الفهد، الذى راح يتشمم السيد (روبرت كاتسكيل) عند بداية وصوله. وقد تم العثور عليه ميتاً فى الصباح التالى، بعد هذه المواجهة. وفى عصر اليوم ذاته، مرضت فجأة – إحدى الفتيات التى ساعدت ليدى (ستيلا) فى تفريغ حقائبها – ثم ماتت.

كانت اليوتوبيا أقل استعداداً لاستقبال جراثيم الأمراض هذه، أكثر من استعدادها لاستقبال الأرضيين الذين أتوا بها.

أما الكم الهائل من المستشفيات العامة ومستشفيات الحميات، والأطباء والصيدليات وما شابهها، والتى كانت موجودة فى العصر الأخير للفوضى، فقد مر عليها وقت طويل بحيث لا يتذكرها أى شخص، حقاً كانت هناك خدمات جراحية لمن أصيبوا فى الحوادث ومراكز لمتابعة صحة الصغار، وأماكن لرعاية الطاعنين فى السن، ولكن نادراً ما تجد أى شىء له علاقة بمنظمة الوقاية الصحية التى نشأت – فى السابق – لمقاومة الأمراض.

فجأة أصبح على اليوتوبيين إعمال ذكائهم، لمواجهة مشكلات شديدة التعقيد، كان قد تم حلها ووضعها جانباً منذ وقت طويل،

ولكنها عادت للظهور من جديد فى مضمار التوصل إلى الآليات والمنظمات - التى تم نسيانها - والمتعلقة بالتعقيم[١] وعلاج الأمراض، ولكى يعودوا مرة أخرى لإحياء كل وسائل الحرب ضد الأمراض، والتى كانت معروفة فى عصر ما من تاريخها، منذ عشرين قرناً مضت.

ومن بين أشياء أخرى، حققت هذه الحرب لليوتوبيا مزايا دائمة ومحددة. وتم القضاء - تقريباً - على كل الحشرات الناقلة للأمراض وكذلك الفئران والجرذان[٢] وأنواع الطيور الصغيرة.

فقد تم التخلص منها خشية أن تسبب مشاكل صحية، وقد أدت هذه الإجراءات القاسية إلى الحيلولة دون انتشار أى أمراض جديدة أو أى التهابات جرثومية معدية.

وعلى الرغم من أن أحداً منهم لم يكن مصاباً بأى مرض على الإطلاق، فقد بدا واضحاً أن شخصاً ما بينهم نقل جرثومة الحصبة[٣] المستترة إلى عالم اليوتوبيا، وأن ثلاثة أو أربعة منهم، قد تخلصوا من مرض الإنفلونزا الذى ظل كامناً لمدة طويلة. وكانوا من شدة

---

(١) التطهير لمنع تطور المرض الناقل للجراثيم (المترجم).

(٢) أى من القوارض من فصلية الفأريات لها ذيل طويل ومشابهة للفئران لكنها أكبر (المترجم).

(٣) مرض معد تسببه فيروسات الحصبة ويصاحبه ظهور طفح على الجسم (المترجم).

البأس بحيث لم يعانوا بل ظلوا فى بؤرة هذين الوبائين، بينما ضحاياها يسعلون ويعطسون عبر كوكب اليوتوبيا بأكمله. ولم يتمكن سكان اليوتوبيا من إدراك ما حدث، إلا فى عصر اليوم الثانى لقدوم الأرضيين، فهيئوا أنفسهم، للتعامل مع هذه الانتكاسة[١] المروعة.

(٢)

قد يكون السيد (بارنستابل) آخر الأرضيين الذى سمعوا بالوباء. إذ كان بعيداً عن باقى المجموعة، يقوم بحملة استكشافية خاصة به. فقد كان واضحاً له – في خلال مرحلة مبكرة – أن اليوتوبيين ليست لديهم النية لتكريس أى قدر ملحوظ من الوقت أو كمية من الطاقة لتثقيف زوارهم الأرضيين. وبعد محاضرة التنوير التى ألقيت بعد ظهر يوم وصولهم، لم تكن هناك أية محاولات إضافية لتعريف الزائرين بدستور وأساليب الحياة فى اليوتوبيا. ولم توجه سوى أسئلة – مختصرة إلى حد كبير – حول الأوضاع الإجتماعية السائدة فى كوكب الأرض. وقد تم ترك الأرضيين مع بعضهم البعض ليتناقشوا فيما بينهم، وليكتشفوا بأنفسهم، كل الأمور الأخرى. وبدا واضحاً أن العديد من اليوتوبيين كانوا راضين

---

(١) يعود إلى المرض بعد الشفاء الجزئى منه (المترجم).

برفاهيتهم ورغد عيشهم، ولكنهم لم يلوح أنهم يفكرون بأن أعمالهم تمتد لتشمل تثقيف الآخرين. وعندما وجد السيد (بارنستابل) الكثير مما أقلقه فى آراء وتعليقات كثر من زملائه، امتثل لنزعته الطبيعية، لإكتشاف اليوتوبيا بنفسه. فقد كان ثمة شىء أثار خياله، فى السهل المنبسط الشاسع، فيما وراء البحيرة، والذى لمحه قبل أن تهبط طائرته في قرية المؤتمر، وفى صباح اليوم التالى استقل قارباً صغيراً وجذف عبر البحيرة، ليتفحص السد الذى يحتجز مياهها، وليلقى نظرة على السهل العظيم، من عند حاجز السد.

كانت البحيرة أكثر اتساعاً مما تصور، كما كان السد أكثر ضخامة مما كان يتصور، كان الماء صافياً كالبللور وبارداً للغاية، ولم يكن هناك إلا قليل من السمك يسبح فيه. لقد خرج السيد (بارنستابل) مباشرة بعد تناوله لوجبة الإفطار، لكن الوقت كان قرب الظهيرة عندما اعتلى حاجز السد العظيم، واستطاع أن ينظر إلى أسفل، حيث الوادى المنخفض والسهل المنبسط الشاسع. كان السد مشيداً بكتل هائلة من الصخور الحمراء والتى تتخللها عروق ذهبية، والسير على فواصل بينها، يوصّل إلى الطريق العام، الذى يمتد على طول أعلى السد.

وكانت الأشكال، المتخذة وضع الجلوس والتى ترقد ساكنة عند السهل البعيد، قد وضعت هناك – كما يبدو – لإضفاء شىء من القيم

الجمالية ولكن فى قالب مرح. جلست التماثيل كأنها تُمعن النظر أو تُعمل الفكر، أشكال هائلة بدائية، نصفها جبلى والنصف الآخر يشبه البشر. وقدر السيد (بارنستابل) ارتفاع الواحد منها، بنحو مئتى قدم[١]. وعندما حسب المسافة بين كل اثنين منها وبعدها أحصى عددها، استنتج أن طول السد ما بين سبعة إلى عشرة أميال[٢]. وعند طرفه الأقصى، ينحدر عمودياً لحوالى خمسمائة قدم، وكانت تدعمه سلسلة من الدعامات الهائلة المثبتة فى الصخور الطبيعية. وفى الفسحات بين هذه الدعامات. تطنّ بطاريات جبارة لتوربينات[٣] مياه، وما أن تؤدى مهمتها الأولى، حتى تتساقط المياه فى شكل رغوىّ ثم تتبعثر وتتجمع فى بحيرة واسعة أخرى، ويحجزها سد عظيم ثان يبعد نحو ميلين وربما ينخفض عن السد الأول، بحوالى ألف قدم.

وإلى مسافة بعيدة للغاية، كانت ثمة بحيرة ثالثة وسد ثالث ويعقبهما السهل المنبسط. ولم يكن هناك سوى ثلاثة أو أربعة من اليوتوبيين يمكن رؤيتهم. وهم يبدون صغيرى الحجم وسط كل تلك التجهيزات الهندسية العملاقة.

---

(١) القدم يساوى نحو ٣٠ سنتيمتراً (المترجم).
(٢) الميل يساوى نحو ١,٦ كيلو متر (المترجم).
(٣) محركات تدار بقوة المياه أو البخار أو الهواء (المترجم).

توقف السيد (بارنستابل) – وهو يشعر بضآلته البالغة – في ظل دعامة جبارة، وراح يمعن النظر في تلك الأشياء الأكثر قرباً، من خلال ضباب يغطي السهل البعيد.

وتساءل عن نوعية الحياة التى يمكن أن تجرى هناك؟ إن علاقة السهل المنبسط بالجبل، دفعت إلى ذهنه بقوة شديدة، بمنظر جبال الألب والسهل العظيم في شمال إيطاليا. ولطالما سار في هذه الأماكن الخلابة، في كثير من إجازات الصيف عندما كان شاباً، وكان يعلم أنه في تلك المواقع البعيدة، تمتد المدن والقرى المتناثرة. وبالقرب منها تروى وتزرع الحقول بعناية. ويكدح عدد كبير من السكان – وكأنهم في خلية للنحل – في صناعة إنتاج الطعام. ويتزايد عدد البشر إلى أن تحدث النتائج المحتومة للاحتشاد معاً وبشكل زائد عن الحد، ألا وهي الأمراض والأوبئة، وبذلك يعود من جديد نوع من التوازن بين مساحة الأرض وعدد العائلات القاطنين فيها. والذين يتدبرون أمورهم بصعوبة، من أجل الحصول على القوت الضروري. وحيث أن الرجل الكادح يمكنه أن ينبت طعاماً أكثر مما يمكنه أن يأكل بالفعل. وبما أن النساء تستطعن أن تنجبن أطفالاً أكثر من قدرة الأرض على إيجاد أعمال لهم، فإن هذه الزيادة في عدد السكان الذين ليس لهم أرض، سوف يتجمعون في البلدان والمدن، ليمارسوا أعمالاً قانونية ومالية ضد مصالح المزارعين أو في صناعة

مجرد سلع يحتاجها الآخرين – على مدار حياتهم، من طفولتهم إلى شيخوختهم – فى المهمة الشاقة، المعروفة بإسم "الحصول على لقمة العيش". وينتشر بينهم – مدعومة بذريعة إسترضاء قوى غيبية – ضرائح للقديسين والمعابد التى تضم حشداً متطفلاً من الكهنة والرهبان والراهبات. إن تناول الطعام والتناسل، هو روتين الحياة العادية منذ أن بدأت المجتمعات الإنسانية، وكذلك تعقيدات الحصول على الطعام، وبذل غاية الجهد للتكسب والتملك، ودفع الإتاوات للتخلص من الخوف، كل هذا سوف يكون المشهد الحياتى المتكرر، الذى يمكن أن يظهره للعيان.

وكانت ثمة لمحات من الضحك والمرح هناك، وفترات قصيرة فاصلة من الإجازات، وشباب مفعم بالنشاط والحيوية والحماس، قبل أن يخبو هذا كله فى فترة النضج، وعلى الرغم من كراهية نمو عدد السكان بشكل زائد عن الحد، والحياة بهاجس عدم التأكد المستمر، وخشية البطالة والفقر المدقع، فإن العمل يسير بإضطراد ويسيطر على مجريات الأمور. ويكون الوهن والتوقف عن العمل فى الستين للرجال، أما النساء فإنهن يصبحن منهكات ومتقدمات فى السن عند بلوغهن الأربعين. ولكن هذا الوادى المنبسط بالأسفل فى اليوتوبيا التى تغمره أشعة الشمس يظل خصيباً على الرغم من أنه يخضع لقانون آخر. وهنا تراجعت واختفت إلى الأبد كل مظاهر الحياة

العادية للجنس البشرى، وتقاليده القديمة المتوارثة وأساطيره وحكاياته التى تتكرر جيلاً بعد آخر. واحتفالاته الموسمية وآماله الطفولية التى تتضمن الكثير من العبثية والتفاهة، وتؤدى إلى البؤس والشقاء.

على الرغم من أن التربة لازالت خصبة ومنتجة، ومازالت الشمس تشرق. لقد انتابت السيد (بارنستابل) دفقة من شعور جارف يشبه الرعب، وعندما أدرك كيف تم محو كل ما هو متعلق بمظاهر الحياة المعتادة، فى غضون عدة قرون فحسب. يا له من أمر مروع أن تتم السيطرة على أذهان البشر، وكل ما هو خاص بالروح والجسد والمصير، مصير الحياة وقدر الجنس البشرى.

وعرف الآن حقيقة نفسه، إنه مجرد مخلوق فى مرحلة إنتقال لازال متعلقاً بأوثق الوشائج بتقاليد الأقدمين، وكذلك مؤيداً لتلك الأفكار الجديدة التى مازالت موجودة بشق النفس، فى الأرض. ولمدة طويلة، أدرك إلى أى مدى كان يشمئز ويستخف بهذه الحياة القروية الكريهة، التى تمثل الماضى، وتحقق الآن – لأول مرة – أنه يخاف فى قرارة نفسه، من تلك الحياة اليوتوبية الصارمة والقاسية التى تتراءى أمامه. لقد بدا له هذا العالم الذى يتطلع إليه بالغ النظافة ولكنه فى الوقت ذاته مفزع جداً. تراهم ماذا يفعلون هناك فى تلك السهول البعيدة؟ وما نوع الحياة اليومية التى يمارسونها؟ لقد أصبح يعلم عن اليوتوبيا ما فيه الكفاية، لأن يعرف بأن الأرض كلها سوف تتحول

إلى ما يشبه الحديقة، مع الاهتمام بكل ما هو جميل، ذلك الجمال الذى استطاعوا تطويره وتفعيله، أما أى نوع متأصل من القبح فقد تم تصحيحه والتغلب عليه. إن هؤلاء اليوتوبيين يعملون ويناضلون من أجل أن تنتشر المحبة فى ربوعهم، وأن يسود الجمال الأخاذ الذى يأخذ بمجامع القلوب فى عالمهم. هذا ما توصل إليه السيد (بارنستابل) بعد طول تفكير.

أما الذين كانوا مسئولين عن توفير الطعام والإسكان واحتياجات الحياة الضرورية فقد ذهبوا إلى غير رجعة، ومن ثم أصبحت العجلة الاقتصادية تسير بمنتهى السلاسة. حتى أنه لا توجد أية صراعات أو صدامات أو انهيارات داخلية، تلك التى كانت تهيمن على علاقاتنا فوق كوكب الأرض. كما انتهت عصور النزاعات والتجارب الاقتصادية، وتم التوصل إلى الطريقة المثلى لممارسة الأعمال. أما سكان اليوتوبيا – الذين تقلص عددهم فى وقت ما ليصبح مئتى مليون فحسب – فقد تكاثروا من جديد، لمواكبة الزيادة الدائمة فى الموارد. وبعد أن حرروا أنفسهم من آلاف الشرور، التى كانت من الممكن أن تتفاقم مع الزيادة فى عدد السكان، استطاعوا أن ينموا دون عوائق.

وهناك فى السهول المنبسطة حيث المنطقة الضبابية ذات اللون الأزرق الشاحب، يوجد كل هؤلاء الغير مشغولين بأمور توفير

الطعام والتشييد المعمارى والصحة والتربية وخلق ترابط بين الأنشطة المختلفة، إنهم منهمكون إلى حد كبير فى عمليات الخلق الفنى الإبداعى، ويضيفون إلى قوتهم المجمعة تلك، المعرفة بالحياة وإدراك مدى قيمتها.

لقد كان السيد (بارنستابل) معتاداً على التفكير فى كوكبنا الأرضى، على أنه عالم من الاندفاع الطائش لتحقيق الاختراعات والمعرفة، بيد أن كل ما أنجزته البشرية عبر مئات السنين، لا يمكن مقارنته بالحركة الناشطة المطردة، لهؤلاء الملايين بذكائهم المترابط والموحد فى سنة واحدة فقط: إن المعرفة المتدفقة للأمام فى اليوتوبيا، دفعت بظلمة الجهل بعيداً، مثل ظل سحابة تمرق فى يوم عاصف.

وهناك فى الأسفل عند السهول المنبسطة والوادى، كانوا يقومون بتحليل المعادن الكامنة فى مركز كوكبهم، وينسجون شبكة لكى يستفيدوا من أشعة الشمس، ومراصد لدراسة الكواكب والنجوم. كانت الحياة تسير هنا بمعدل سريع، وكان أمراً مفزعاً أن نتصور إلى أى مدى يقود هذا التسارع. لأن فى خلفية ذهن السيد (بارنستابل) – كما فى خلفيات أذهان عدد كبير من الأذكياء فى عالمنا – لازال هناك اقتناع يسود بأنه، عما قريب، سوف تتم معرفة كل شئ. وأن التقدم العلمى سيصل إلى منتهاه، وعندئذ سيكون سكان الأرض سعداء إلى الأبد.

لم يكن السيد (بارنستابل) متأقلماً مع هذا التقدم فى اليوتوبيا. إذ كان يعتقد دائماً أن اليوتوبيا مكان هادئ تم استقرار كل شيء فيه إلى الأبد. وحتى فى هذه اللحظات، يبدو أن الأمور ساكنة هناك عند مستوى الضباب الذى يغشى الوادى المنبسط، ولكنه كان يعرف أن هذا السكون توقف مؤقت للجنس اليوتوبى عن الصراع، إنهم يظهرون كما لو كانوا لا يتحركون قيد أنملة، ولكن إذا حدث شيء بسيط يعكر صفو ذلك السكون، فإن الصراع بينهم سوف يحتدم من جديد.

وتساءل السيد (بارنستابل) فى نفسه، عما يشعر به الإنسان الذى يعيش فى اليوتوبيا؟ إن حياة الشعب اليوتوبى، لا تزيد على أن تكون كحياة الفنانين الذين حققوا نجاحاً باهراً أو العاملين فى المجالات العلمية فى هذا العالم، إنها تماثل اكتشاف مستمر ومتجدد لأشياء عصرية. مغامرة دائمة فى رحاب المجهول، والأمور التى لم تكن معروفة من قبل، وعندما يرغبون فى الاستجمام فإنهم يتجولون فى كوكبهم. وفى اليوتوبيا كان هناك الكثير من الحب والمرح والصداقة، وحياة اجتماعية سهلة وغير تقليدية تتوفر فى كل مكان. ولم تعد من أنشطة الحياة، القيام بالأعمال التى تستلزم بذل جهد جسمانى متوافق تمارسه كل أجهزة الجسم معاً، وتلك التى تستوجب

تصف قدرة على البحث والعمل الذهنى. ولكن كانت هناك ألعاب يؤدونها بهدف المتعة والتنشيط الجسدى.

لابد أن حياة اليوتوبيين تتسم بالروعة، بعد أن تم تدريبهم عليها، وهى حقاً حياة يُحسدون عليها.

ولابد أن المحافظة على هذه الأنماط الحياتية السائدة، كانت بسبب تلك السعادة الناشئة عن ممارستها، ولهذا فقد استمرت محققة نتائج لا حدود لها، ولكن ربما شابتها بعض الصعوبات عند تطبيقها. ولعله لم يكن ثمة اهتمام بالغ أو إحساس مرهف. حقاً لقد كان اليوتوبون أناس أذكياء ومرحين، ولكنهم لم تنتابهم الشفقة على الآخرين، فلا حاجة لمثل هذه الأحاسيس فى نظرهم.

وعلى الرغم من هذا فقد كانت السيدة (ليكنيس) تبدو طيبة القلب وتشعر بالشفقة على الآخرين.

هل يجب أن يكون المحب مخلصاً لحبيبه كما يفعل الأرضيون؟ ماذا كان شكل الحب فى اليوتوبيا؟ ألا زال المحبون يتهامسون فى الغسق(١).. وماذا كان جوهر الحب فيها؟ تفضيل شخص بذاته، نوع من الفخر بأن شخصاً ما يحبك، هدية جميلة يتم الحصول عليها، أكثر الأحاسيس المبهجة التى تشيع الطمأنينة فى الجسم والعقل.

---

(١) ظلمة أول الليل (المترجم).

ماذا يعنى أن تحب أو تحبك إحدى نساء اليوتوبيا؟ هل أن يكون وجهها الضارب للحمرة الخفيفة قريباً من وجهك، وأن تشعر بعنفوان الحياة بقبلة منها؟

جلس السيد (بارنستابل) مرتدياً بنطلوناً من الصوف الناعم، حافى القدمين فى ظل هذا المبنى الحجرى العملاق، وشعر كأنه حشرة ضئيلة شاردة تجثم فوق السد الهائل. وبدا له أنه من المستحيل على هذا الجنس المبتهج بالنصر بإنجازاته العظيمة، يمكن أن يتراجع إلى الوراء ثانية، من ذلك المستوى الذى استطاع فيه – بقدرة فتالية رائعة – أن يسيطر ويتسلط على كل الأشياء. كما تمكن اليوتوبيون من ارتقاء سلم الحضارة بجهد ولكن بسرعة كبيرة، وما يزالون. وهم فى الوقت الحاضر – بكل تأكيد – ينعمون بالسلام فى ظل كل ما حققوه. وعلى الرغم من ذلك، فإن هذا السلام المدهش والسيطرة بإقتدار على قوى الطبيعة، قد تحققت فى مدى زمنى قصير نسبياً، يقدر بثلاثة آلاف سنة.

لقد أمكن لهذا الجنس اليوتوبى أن يتغير بشكل جوهرى، فى هذه الفترة الفاصلة. لقد ساد العصر الحجرى منذ نحو عشرين ألف سنة، ولم يكونوا يعرفون شيئاً عن المعادن، كما لم يمكنهم القراءة ولا الكتابة. وفى داخلهم، تكمن بذور مشاعر بدائية، كالغضب والخوف واختلاف الرأى. ومما لا شك فيه أن هناك العديد من اليوتوبيين

الذين يتسمون بالتمرد والقلق. ولا يمكن أن تكون عمليات تحسين النسل قد بدأت هنا. وراح السيد (بارنستابل) يتذكر الفتاة ذات الوجه الجميل دقيق الملامح، التى جاذبته أطراف الحديث فى ضوء النجوم فى ليلة وصوله، وملاحظته للشوق الرومانسى الذى كان ينم عنه صوتها، عندما سألته عما إذا كان لورد (بارالونجا)، ليس رجلاً بالغ القوة وقاسياً.

ألا تزال الروح الرومانسية تثير الخيالات هنا؟ ربما كان هذا لخيالات المراهقة فحسب. ألا يمكن أن تحدث صدمة مروعة أو مرحلة ما من الفوضى. لتعكر صفو هذا الاستقرار الشامل؟ أو ربما تسأم منظومة التعليم من العمل الشاق للانضباط، ومن ثم تسقط فريسة الإدراك الروحى التجريبى؟ ألا يمكن أن يكون هناك أمور مجهولة تتربص بهذا الجيل اليوتوبى؟ فلنفترض أنه قد ثبت وجود ثمة إفساد فى التعاليم الدينية المتقدة حماسة للأب (إميرتون)، أو رغبة (روبرت كاتسكيل) الملحة لإنشاء مشروعات خيالية! كلا! إن هذه أمور لا يمكن تصورها. إذ أن ما حققه عالم اليوتوبيا يعد إنجازاً رائعاً ومستقراً. استوى السيد (بارنستابل) على قدميه، وراح ينزل على سلالم السد العظيم، إلى أسفل حيث يطفو على البعد قاربه الصغير ذو المجاذيف – مثل بتلة زهرة ضئيلة – فوق المياه الصافية للبحيرة.

(٣)

أدرك أن ثمة حركة مضطربة فى أماكن المؤتمر. كانت هناك حوالى ثلاثين طائرة تحوّم فى الهواء وتهبط ثم ترتفع من جديد فى ساحة الانتظار. وكانت أعداد كبيرة من الآليات الكبيرة البيضاء، تسير جيئة وذهاباً على طريق الممر. كما بدا أن الأشخاص يتحركون بنشاط ما بين المنازل، ولكنهم بعيدون جداً عنه، ليتحقق مما يفعلون. حدق فى هذه المشاهد لبعض الوقت، ثم ارتقى قاربه الصغير. لم يمكنه أن يتبين ما الذى كان يجرى وهو يعبر البحيرة، لأن ظهره كان فى اتجاه المنحدرات، ولكن ما أن اقتربت منه إحدى الطائرات إلى حد كبير، حتى رأى راكبها ينظر إليه وهو يجذف. وعندما استراح من التجذيف وجلس فوق قاربه يحدق فيما حوله. شاهد ما خيل إليه أنها محفة يحملها رجلين.

وما أن اقترب من الشاطئ حتى اندفع قارب فى الماء ليقابله. اندهش عندما رأى ركاب القارب يرتدون ما بدا له أنها خوذات زجاجية للرأس، وبها حواف بارزة بيضاء. ثم ازدادت دهشته وحيرته.

وبينما كانوا يقتربون رنّت رسالتهم في ذهنه: "الحجر الصحي[1]، يجب أن تذهب للحجر الصحي. لقد سببتم أيها الأرضيون بداية وباء، ومن الضروري وضعك في الحجر الصحي".

عندها أدرك أن هذه الخوذات الزجاجية، لابد أن تكون نوعاً من الأقنعة الواقية من الغازات السامة والجراثيم، وما أن اقتربوا منه وصاروا إلى جانبه، حتى تبين له صحة استنتاجه.

كانت الخوذات مصنوعة من مادة شديدة المرونة ونصف شفافة بالكامل.

(٤)

واقتيد السيد (بارنستابل) إلى أن مر أمام بعض أروقة مسقوفة مفتوحة الجانب، بها أسرّة يرقد فوقها عدد من اليوتوبيين، وهناك مجموعة أخرى منهم يرتدون أقنعة الغازات، يسهرون بجانبهم. ولاحظ أن كل الأرضيين وممتلكاتهم – فيما عدا السيارات – قد تم تجميعهم في ردهة المؤتمر، التي شهدت اليوم الأول للاجتماع. وأبلغ أنه سوف يتم نقل الأرضيين إلى مكان جديد، حيث يعزلون ويعالجون. كان مع

---

(١) المدة التي تفرض على البشر خوفاً من أن يكونوا حاملين لمرض معد (المترجم).

مجموعة الأرضيين اثنان فقط من اليوتوبيين المرتدين قناعى غاز، يسترخيان فى الرواق المفتوح ولم يكن يبدو عليهما أنهما حارسان أو مشرفان.

كان الأرضيون يجلسون فى مجموعات صغيرة بين المقاعد، إلا السيد (روبرت كاتسكيل) – الذى كان يذرع الجزء الناتئ نصف الدائرى من المبنى جيئة وذهاباً – أخذ يتحدث إليهم. لم يكن يرتدى قبعته وكان مهتاجاً ومثاراً، وشعره غير مرتب إلى حد ما.

وراح يكرر: "لقد كان هذا ما تنبأت به طوال الوقت.." ثم تريث لبرهة وأضاف:

– ".. ألم أقل لكم إن الطبيعة فى صفنا؟ ألم أقل لكم هذا؟".

– كان السيد (بورليه) مصدوماً ونزاعاً للجدال فأخذ يعترض قائلا: "بالنسبة لحياتى الشخصية، فإننى لا أرى أى منطقية فيما تقول. هانحن أولاء هنا – الوحيدون من بين كل البشر المعافين تماماً من هذا المرض – ومع هذا فسوف يتم عزلنا".

قالت ليدى (ستيلا): "يقولون بأن ميكروبات المرض انتقلت منا نحن".

رد السيد (بورليه) مؤكداً وجهة نظره بإشارة من يده الطويلة البيْضاء: "حسن جداً! حسن جداً، إذن عليهم أن يُعزلوا أيضاً! إننى لا أفهم شيئاً! فالموضوع برمته قد انقلب رأساً على عقب! لقد خيبوا أملى فيهم".

قال السيد (هنكر): "أظن أن هذا عالمهم، ولهذا يجب أن نفعل الأشياء بأسلوبهم".

ركز السيد (كاتسكيل) نظره على لورد (بارالونجا) والسائقين وقال: "أنا أرحب بهذه المعاملة. حقاً أرحب بها" قال فخامة اللورد: "روبرت! ما وجهة نظرك؟ أترى أننا فقدنا حريتنا على التصرف؟".

رد السيد (كاتسكيل) قائلاً: "كلا على الإطلاق، لقد حصلنا عليها! سوف يتم عزلنا، ووضعنا منفردين فى إحدى الجزر أو فوق أحد الجبال. هذا أمر جيد وطيب. هذه هى مجرد بداية لمغامرتنا".

- "ولكن كيف؟".

- "انتظر قليلاً حتى يمكننا التحدث بحرية أكبر.. إنها وسائل تدعو للفزع. إن الوباء مازال فى مرحلة البداية ولم ينتشر بعد. إن كل شىء فى بدايته. ثق فيما أقول" جلس السيد (بارنستابل) عابساً بجانب حقيبة سفر، متفادياً عين السيد (كاتسكيل) المتحدية.

الفصل الثانى

قلعة فوق قمة الصخرة

لابد أن يكون مقر الحجر الصحى الذى أخذوا إليه الأرضيين، على مسافة بعيدة من مكان مقر المؤتمر، لأن رحلتهم استغرقت نحو ست ساعات، طوال هذا الوقت كانوا يطيرون عالياً وبسرعة كبيرة. كانوا جميعاً داخل طائرة رحبة ومريحة، وربما يمكنها أن تقل أربعة أمثال عدد من كانوا فيها. وكان يصحب الأرضيين فى الرحلة حوالى ثلاثين من اليوتوبيين الذين يرتدون أقنعة الغازات الواقية، بينهم امرأتان.

وكانت أردية الطيارين من نسيج أبيض صوفى، أثار اهتمام وحسد كل من الآنسة (جراى) وليدى (ستيلا). مرقت الطائرة على طول الوادى وفوق السهل العظيم وعبر بحر ضيق وأرض أخرى ثم نحو شاطئ صخرى وغابات كثيفة وأعلى بحر بالغ الاتساع، يكاد أن يكون خالياً من السفن التى تمخر عبابه، وخيل للسيد (بارنستابل) أنه

لا يوجد أى محيط على كوكب الأرض، يمكن أن تكون الحركة البحرية به ضعيفة على هذا النحو. وقد شاهد مرة أو مرتين، عبّارات ضخمة للغاية تبحر فى هذا البحر. لا تبدو مثل أى من السفن الموجودة على كوكب الأرض، بل أشبه بالطوافات أو أرصفة الموانئ. كذلك رأى مرة أو مرتين سفينة شراعية لنقل البضائع ذات حبال معدنية لتثبيت الصوارى ودعم وتعديل الأشرعة. ولم تكن ثمة حركة جوية نشطة فى الهواء. فلم ير من بعد إقلاعهم - حتى هبوطهم - سوى ثلاث طائرات.

ثم عبروا فوق شريط ساحلى ذى جمال أخاذ ومكتظ بالسكان، بعده طاروا إلى أعلى ما يمكن اعتباره بلداً صحراوياً لا مطر فيه، أوصلهم إلى منطقة تعدين ومواقع مشروعات هندسية جبارة. وهناك بعيداً، كانت تقع جبال شامخة يغطى قممها الجليد. بيد أن طائرتهم هبطت قبل الوصول لهذه الجبال. ولفترة طار الأرضيون فوق عدد هائل من تكوينات غير منتظمة الأشكال، كان واضحاً أنها مستخرجة من حفرة عملاقة تشبه البئر، تمتد فى الأرض إلى عمق سحيق. وكان يأتى من هذه الحفرة الجبارة صوت مدو كالرعد من معدات آلية مصحوباً بدخان كثيف. كذلك شاهد الأرضيون حشوداً من العمال، يعيشون فى معسكرات بين هذه التكوينات التى تشبه الأطلال. وبدا واضحاً أنهم جاءوا إلى هذا المكان بهدف العمل

المؤقت، إذ لم يكن هناك ما يشير إلى وجود منازل. طوفت طائرة الأرضيين حول هذه المنطقة وواصلت الطيران نحو صحراء صخرية تخلو تقريباً من الأشجار، تم اقتطاع أجزاء منها لتكوين ممرات شديدة الانحدار، تشبه الأودية الضيقة.

كان يمكن رؤية عدد قليل من الناس بجانب العمال، ولكن كان هناك ما يشير إلى وجود العديد من الأنشطة الهندسية. كل تيار ماء وشلال، كان يقوم بتشغيل توربين. وكانت توجد أعلى هذا الساحل الصخرى كبلات[1] جبارة تمتد عبر الصحراء. أما فى الأماكن الأكثر اتساعاً بين الممرات الضيقة، فكانت تنمو غابات أشجار صنوبر وكثير من النباتات المتنوعة.

كانت الصخرة المرتفعة – المكان الذى تنتهى به الرحلة – تكاد أن تكون معزولة تماماً، وتقع فى التشعب ما بين واديين متقاربين. وتعلو إلى ارتفاع نحو ألفى قدم، فوق هذه التيارات المائية المضطربة التى تزبد تحته. كما توجد صخور شاحبة ضاربة إلى الخضرة وأخرى أرجوانية، خشنة للغاية ذات صدوع عميقة، تدعمها وصلات مستوية وعروق معدنية بلورية بيضاء وكان الممر الضيق

---

(١) حزمة من الأسلاك المعزولة عن بعضها البعض ضمن غلاف واق تستعمل لأغراض التمديدات الكهربائية (المترجم).

عند أحد جوانبها أشد انحداراً من الموجود فى الجانب الآخر، وبدت هذه الصخرة معلقة ومظلمة مثل داخل نفق، وفى الطرف العلوى الناتئ للمنحدرا وعلى ارتفاع نحو مائة قدم، امتد جسر معدنى طويل ورفيع، عبر الهاوية. وفى الأعلى بعدة ياردات[١] منه، ثمة بقايا لجسر قديم من الحجارة. أما خلف الصخرة المرتفعة، فهناك منحدر يمتد لبعض مئات من الأقدام مغطى بنباتات متناثرة، صاعدة إلى الكتل الأساسية للجبل، التى تشبه جداراً من النتوءات الصخرية الشاهقة ذات السطوح المستوية.

هبطت الطائرة على هذا المنحدر قرب ثلاث أو أربع آلات أصغر حجماً منها. وكانت تعلوه أطلال قلعة قديمة، وحول جدرانها الدائرية، شيد عدد من المبانى المتشابهة، استعملت فى الآونة الأخيرة كمقر لمجموعة من طلبة الدراسات الكيميائية. وكانت أبحاثهم – المتعلقة بالتركيب الذرى للمادة – غير مفهومة تماماً للسيد (بارنستابل). وقد انتهت هذه الدراسات، الآن، وأصبح المكان خالياً تماماً. ولكن مختبرهم مازال مكتظاً بالأجهزة والمواد، وكان يتم إمداده بالماء والطاقة الكهربائية من الممر الضيق العلوى، بواسطة أنابيب وكبلات. وقد كان هناك أيضاً مخزنا للتموين خاصة الطعام.

(١) الياردة تساوى نحو ٩١ سنتيمتراً (المترجم).

وانشغل عدد من اليوتوبيين بتهيئة المكان وجعله ملائماً ليتناسب مع غرضه الجديد، وهو العزل الصحى وكذلك تعقيمه توطئة لاستقبال الأرضيين. ظهر (سيربنتين) فى صحبة رجل يرتدى القناع الواقى من الغازات، الذى كان يدعى (سيدار)، وهو متخصص فى علم "السيتولوجيا"(١)، وكان مسئولاً عن الترتيبات الخاصة بهذه المصحة التى تم تحسينها وتطويرها. وأوضح (سيربنتين) أنه هو نفسه قد تم حمله جواً إلى هذا المقر الصخرى من قبل، لأنه على دراية بالأجهزة والمعدات فى هذا المكان، وبالأبحاث العلمية التى كانت تجرى فيه، بالإضافة إلى أنه كان على علم بالأرضيين ومنظوماتهم العضوية، وسوف تمنحه مناعته النسبية ضد أمراضهم، إمكانية أن يعمل وسيطاً بينهم وبين الأطباء المكلفين ببحث حالتهم. وقام (سيربنتين) بشرح كل هذه الأمور، السيد (بورليه) والسيد (بارنستابل) ولورد (بارالونجا) والسيد (هنكر). ووقف باقى الأرضيين فى مجموعات صغيرة حول المكان، بجانب الطائرة التى ترجلوا منها منذ فترة، وأخذوا يتطلعون إلى المبنى ذى الشرفات والأبراج فوق قمة الصخرة – والذى كان يبدو كالقلعة – كما لاحظوا وجود شجيرات قزمة متشابكة ومنتشرة فى غير نظام أو اتساق فى الأراضى المرتفعة التى تحيط بهم، بالإضافة إلى المنحدرات الصخرية الشاهقة والأودية

---

(١) فرع من علم البيولوجيا يبحث فى تكوين وبنيتها ووظيفتها الخلية (المترجم).

الضيقة العميقة المتاخمة. لم تكن تعبيرات الأرضيين مشجعة أو مبشرة بالخير.

سار السيد (كاتسكيل) منفرداً إلى قرب حافة الوادى الضيق العظيم، وكان يقف ويداه خلف ظهره كما كان يفعل نابليون بونابرت، شارد الفكر، محدقاً إلى أسفل، حيث الأعماق التى لا يصل إليها ضوء الشمس. وكان هدير المياه التى لا يمكن رؤيتها تحته، يكون أحياناً مدوياً وأحياناً أخرى يتعذر سماعه، ولكنه يختلج فى الهواء طوال الوقت.

أخرجت الآنسة (جريتا جراى) فجأة، كاميرا كوداك – تذكرت وجودها معها عندما كانت تحزم حاجاتها لهذه الرحلة الأخيرة – وأخذت تلتقط الصور الجماعية لكل الموجودين . قال (سيدار) إنه سوف يقوم بشرح طريقة العلاج التى يقترح اتباعها، وعندها صاح لورد (بارالونجا): " أين روبرت؟" وطلب منه أن يحضر السيد (كاتسكيل) ليكون ضمن المجموعة التى تستمع لشرح (سيدار).

كان (سيدار) صريحاً فى تعبيراته وموجزاً، كما كان (أورثريد). وبدا واضحاً – طبقاً لقوله – أن الأرضيين يحملون فى أجسامهم مجموعة متنوعة من الجراثيم المسببة للعدوى بأمراض مختلفة، وهى كامنة داخلهم بتأثير مواد مناعية مضادة، ولكن ليس

لليوتوبيين أية وسائل دفاعية جاهزة لمقاومة هذه الجراثيم المعدية، ويأملون فى اكتساب المناعة بعد تفشى وباء مؤلم وكارثى. والطريقة الوحيدة للسيطرة على هذا الوباء وانتشاره فى كل كوكبهم، وهذا ما تم عمله بالفعل، فقد حولت قاعة المؤتمرات إلى مستشفى كبير. وثانياً، جمع كل الأرضيين وعزلهم تماماً فى مكان بعيد عن اليوتوبيين، حتى يتم القضاء على ميكروباتهم المعدية وتنظيف أجسامهم منها، وقد أقر معترفاً بأن هذا لا يتفق مع أصول الضيافة تجاه الأرضيين. ولكنه – كما يبدو – هو الخيار الوحيد الممكن، ومن ثم تم إحضارهم إلى هذا المكان البالغ الارتفاع ذى الهواء الصحراوى الجاف، لكى يمكن تطوير طرق لتنظيفهم عضوياً من كل الميكروبات. وإذا أمكن تحقيق هذا الهدف، فسوف تمنح للأرضيين فرصة ليكونوا أحراراً يروحون ويجيئون كما يريدون فى اليوتوبيا.

قال السيد (كاتسكيل) فجأة: "ولكن ماذا يحدث لو لم يمكن تحقيق هذا الأمر؟".

– "أعتقد أنه سيتحقق".

– "ولكن ماذا لو فشل؟".

نظر (سيدار) إلى (سيربنتين) مبتسماً: "إن البحث العملى سوف يستمر استكمالاً لمجهودات (آردن) و(جرينليك) فى هذا

الصدد، إذ قطعا شوطاً طويلاً منه. ولن يمضى وقت طويل حتى نستطيع تكرار تجربتهم. وحينئذ يمكننا عكسها".

- "وهل سنكون مادتكم الخام وفئران تجاربكم؟!".

- "ليس قبل أن نكون متأكدين تماماً من توفر هبوط آمن لكم".

قال السيد (موش) الذى انضم للدائرة حول (سيدار) و(سيربنتين): "هل يعنى هذا أنكم سوف تعيدوننا مرة أخرى إلى كوكب الأرض؟".

ابتسم السيد (سيدار) قائلاً: "هذا إذا لم نستطع الاحتفاظ بكم هنا".

قال السيد (موش) بمرارة: "يا له من توقع مبهج! أن يتم قذفنا فى الفضاء على سبيل التجربة".

واشترك الأب (إميرتون) فى الحديث قائلاً: "وهل لى أن أسأل عن طبيعة هذا العلاج الذى تنوى إجراءه، وهذه الاختبارات التى سنكون فيها حقول للتجارب - إذا جاز التعبير - هل هى نوع من التطعيم المناعى؟".

شرح السيد (بارنستابل) الأمر بقوله: "حقن".

قال (سيدار): "لم أقرر بعد على وجه التأكيد، أن المشكلة قد طرحت أسئلة تم نسيانها لعصور طويلة فى اليوتوبيا".

قال الأب (إميرتون): "يمكنني القول على الفور بأنني ضد التطعيم المناعى. إذ أكاد أجزم بأن التطعيم يمثل إفساداً للطبيعة. وكانت قد انتابتنى بعض شكوك، قبل أن آتى إلى هذا العالم من الإفساد لصفات الأشياء، ولكن بعدما رأيته فى اليوتوبيا لم تصبح لدىّ أية شكوك. ولو حتى أدنى شك! ولو كان الله يريد لنا أن نحصل على هذه الأمصال والخمائر فى أجسامنا، فقد كان بمقدوره أن يجعلها تتكون داخلنا طبيعياً، بدلاً من حقننا بها".

لم يناقش (سيدار) هذه النقطة. وراح يوالى اعتذاراته. وطلب من الأرضيين ألا يتعدوا حدوداً معينة، تتمثل فى المقر الصخرى والمنحدرات أسفله، وإلى أقصى المرتفعات الجبلية القريبة. وبالإضافة إلى هذا، فقد تم منع صغار السن من الاندماج معهم كما يحدث الآن. كذلك ينبغى عليهم أن يطبخوا طعامهم، ويعتنو أن – بشكل عام – بأنفسهم. أما عن المعدات فسوف يتم إحضارها إلى قمة الصخرة، وسيقوم مع (سيربنتين) بالشرح اللازم لهم. وسوف يجدون هناك الكثير من المؤونة المتوافرة لهم.

سأل السيد (كاتسكيل): "إذن سوف يتم تركنا وحدنا هنا".

رد عليه السيد (سيدار) قائلاً: "لفترة من الزمن. إذ بمجرد أن تصبح مشكلتنا أكثر وضوحاً، فسوف نحضر من جديد ونخبركم بما ننوى عمله".

قال السيد (كاتسكيل): "حسن. حسن".

قالت الليدى (ستيلا): "يا ليتنى ما أرسلت خادمتى بالقطار".

قال مستر (ديوبونت) بشيء من روح الدعابة: "إننى أستخدم آخر ياقاتى النظيفة. يا لها من عطلة نهاية أسبوع مع لورد (بارالونجا)!".

تحول فجأة اللورد (بارالونجا) إلى قائد يرأس مجموعة وقال: "أعتقد أن (ريدلى) يقوم بطهى الطعام كطباخ غاية فى المهارة".

قال (ريدلى): "لا مانع لدىّ فى أن أحاول إعداد الطعام، لقد قمت بعمل معظم الأشياء خلال حياتى، لدرجة أننى كنت أقوم بصيانة عربة بخارية".

قال السيد (بينك) بإحساس غير عادى: "إن الرجل الذى يستطيع العناية بإحدى هذه العربات البخارية، يمكنه أن يفعل أى شيء. وليس لدىّ أى اعتراض أن أكون مستخدماً مؤقتاً لأداء عدة

أعمال مع السيد (ريدلى). فقد بدأت حياتى العملية فى حجرة لحفظ المؤن وأدوات المائدة، ولم أخجل أننى قمت بهذا العمل".

قال السيد (ريدلى) مشيراً إلى السيد (سيربنتين): "لو أن هذا السيد المحترم يقوم بإرشادنا إلى الأدوات التى سوف نستعملها".

قال السيد (بينك): "بالتأكيد".

قالت الآنسة (جريتا) بشجاعة: "كذلك أرجو ألا يكون أى واحد منا سبباً للمشاكل، على قدر الإمكان".

وجه السيد (بورليه) حديثه إلى السيد (سيدار) قائلاً: "أعتقد أنه سيمكننا تدبر الأمر، لو أسديت لنا – فى البداية – بعض النصيحة والمساعدة".

(٢)

ظل (سيدار) و(سيربنتين) مع الأرضيين حتى وقت متأخر من بعد الظهيرة، فى مقر الحجر الصحى عند الصخرة. فقد ساعدا فى تجهيز وجبة العشاء وحملاه إلى فناء القلعة، ورحلا مع وعد

بعودتهما فى الصباح التالى. وراح الأرضيون يتابعون طائرتهما تحلق إلى عنان السماء.

دهش السيد (بارنستابل) عندما وجد نفسه مكتئباً لرحيلهما. كان لديه إحساس من قبل بأن ثمة أذى يتربص برفاقه. وقد أعاد انسحاب هذين اليوتوبيين، توقع حدوث هذا الأذى من جديد. وساعد الليدى (ستيلا) فى إعداد عُجّة[1]، وكان عليه أن يحمل طبقاً ومقلاة إلى المطبخ بعد ذلك، ومن ثم كان آخر الجالسين إلى مائدة العشاء. ووجد أن الأذى الذى كان يتوقعه، يطل برأسه مرة ثانية.

كان السيد (كاتسكيل) قد أنهى عشاءه بالفعل، واستوى واقفاً، وقدمه على مقعد طويل وأخذ يلقى خطبة على بقية المجموعة، قائلا: "إننى أسألكم أيها السيدات والسادة: ألا ترون أن قدرنا هو الذى دفعنا إلى هذه المغامرة المروعة. فى قديم الزمان، تم تشييد هذه القلعة لسبب ما ثم أهملت، وهاهى ذى تعود لتصبح قلعة من جديد. ويالها من قلعة ! وفى هذه المغامرة التى نحن بصددها، واجهنا ما لم يكن فى الحسبان، وكأننا نعيش أحداثاً أسطورية، لم يسبق لها مثيل!".

صاح السيد (بورليه): "عزيزى (روبرت)! ما الذى يدور برأسك الآن؟".

---

(١) بيض مخفوق مقلى (المترجم).

رفع السيد (كاتسكيل) إصبعين من أصابعه بعلامة النصر بحركة درامية:

- "إنه غزو عالم!".

صاح السيد (بارنستابل): "يا إلهى! هل جننت؟".

قال السيد (كاتسكيل): "كما فعل الغزاة القدماء!".

قال السيد (هنكر): "يبدو أن هذا الاقتراح سوف يأخذ وقتاً طويلاً..". وكان واضحاً أن ذهنه مستعد لتقبل مثل هذه النوعية من الاقتراحات. ثم أردف: "ولكنى مقتنع بأن أعطيه أذناً صاغية. إذ أن البديل الذى أراه أمامنا. هو أنه سوف يتم حقننا وتنظيف أجسامنا داخلياً وخارجياً من كل ما يمكن أن يسبب أى ضرر لليوتوبيين ثم يلى ذلك قذفنا من جديد إلى عالمنا. وبالطبع ثمة احتمال أن نصطدم بأى جرم أو سفينة فضائية فى أثناء رحلتنا هذه. أخبرهم يا سيد (كاتسكيل)".

قال لورد (بارالونجا): "أخبرهم.." وبدا أنه مستعد أيضاً لسماع أية اقتراحات فى هذا الصدد. ثم استطرد: "أعترف بأنها مغامرة. ولكن هناك مواقف ينبغى على المرء أن يُقامِر أو يُقَامَر به. إننى من المؤيدين.".

قال السيد (كاتسكيل): "إنها مغامرة بكل تأكيد، ولكن عبر شبه الجزيرة هذه أو في قطعة الأرض التي تبلغ مساحتها ميلاً مربعًا أو نحو ذلك، فإن قدر ومصير عالمين يتطلب قراراً، يا سيدي. هذا ليس وقت القلب الضعيف ووضع العراقيل أمام حرية التصرف واتخاذ القرار. يجب أن يخطط الأمر بسرعة وينفذ فورياً.." صاحت الآنسة (جريتا جراى)، وقد شبكت يديها على ركبتيها وأخذت تبتسم بمرح في اتجاه السيد (موش): "يا له من أمر يهز المشاعر!".

قاطعها السيد (بارنستابل) قائلاً: "هؤلاء الناس يتقدمون عنا بثلاثة آلاف عام. إننا مثل حفنة من البدائيين يخططون لغزو لندن".

استدار السيد (كاتسكيل) ويداه فوق فخذيه بطريقة مرحة للغاية وغير عادية، ليواجه السيد (بارنستابل) ثم قال: "ثلاثة آلاف عام تفصلنا عنهم – نعم! أما أنهم متقدمون عنا بثلاثة آلاف عام – فلا أوافقك الرأى! وعند هذه النقطة دعنا نتجادل. نقول بأن اليوتوبيين أناس خارقون.." ثم يستطرد قائلاً: ".. يا لهم من أناس خارقين! إن الرأى عندى أنهم قوم تم إفسادهم.. ودعني ألفت انتباهك إلى الأسباب التى أدت بى إلى هذا الاعتقاد، على الرغم من جمالهم وإنجازاتهم المادية والفكرية البالغة الأهمية. أعترف بأنهم مثاليون..ولكن ماذا بعد؟ تقوم فكرتى على أنهم بلغوا بالفعل ذروة التقدم ولكنهم

جاوزوها، وأنهم يواصلون حياتهم بالقصور الذاتى[١]، كما أنهم فقدوا القوة ليس فقط لمقاومة المرض – سوف نرى تداعيات هذا الضعف أكثر فأكثر فيما بعد – ولكن أيضاً أصبحوا غير قادرين على مواجهة الأزمات وحالات الطوارئ المفاجئة التى تسبب المعاناة لهم. إنهم بالفعل مهذبون، وغاية فى الوداعة، ولكنهم غير فعالين. إنهم لا يعلمون حتى ما الذى ينبغى عمله. لقد سبب الأب (إميرتون) قلقاً لهم فى المقابلة الأولى، بشكل مهين للغاية (أنت تعلم أنك فعلت هذا أيها الأب (إميرتون). إننى لا ألومك ولا أعاتبك. فأنت على درجة عالية من الحساسية. وكانت هناك أمور تسبب الغضب الشديد لك). لقد تم تهديده – كما تقوم امرأة عجوز متداعية واهنة بتهديد ولد صغير – كان لابد من اتخاذ إجراء ضده. فهل اتخذ أى إجراء؟".

قال الأب (إميرتون): "لقد جاء رجل وامرأة وتحدثا معى".

- "وماذا فعلت؟".

– "ببساطة دحضت بشكل حاسم آراءهما. رفعت صوتى وأثبت خطأهما".

– "وماذا قالا؟".

---

(١) القوة التى تقاوم بها كتلة ما التغير فى حركتها (المترجم).

- "ماذا يمكنهما أن يقولا؟".

- "لقد تصورنا جميعاً أن ثمة أموراً مروعة سوف تحدث للأب (إميرتون) المسكين. حسناً. والآن دعونا نفكر فى حالة أكثر خطورة. صديقنا اللورد (بارالونجا) قاد سيارته برعونة شديدة وقتل رجلاً. وكما تعلمون؛ فإن الإجراء المتبع - فوق كوكبنا - فى مثل هذه الحالات هو سحب الرخصة وتوقيع غرامة على السائق ومحاكمته.. ولكن هنا؟.. إن الأمر نادراً ما يذكر منذ وقوع الحادث. لماذا؟ لأن اليوتوبيين لا يعلمون ما الذى يجب أن يقال أو يتم إجراؤه بصدد هذا الأمر. والآن، فقد وضعونا هنا وطلبوا منا أو بالأخرى توسلوا إلينا، أن نتصرف بشكل لائق اجتماعياً، حتى يأتوا وهم مستعدون لإجراء تجاربهم علينا ويحقنوننا بمواد لا ندرى عنها شيئاً. ولو رضخنا للأمر - أيها السادة - فسوف نفقد أهم عناصر قوتنا فى مواجهة اليوتوبيين، هذه القوة التى قاومت التوعكات الصحية لحظياً. وبالإضافة إلى هذا، فأنا لا أعلم ما هى أعضاء الجسم الداخلية التى سوف يتعاملون معها وربما يتم استئصالها، وفق مفهومهم لعلم وظائف الأعضاء. فعلى سبيل المثال، قد يستخفون بوظائف غددنا الصماء[١] ومدى أهميتها لأجسامنا. ولكن العلم - على كوكبنا - يفيد

---

(١) نوع من أنواع الغدد كالغدة الدرقية والكظرية والنخامية لها إفرازات هرمونية تمر مباشرة إلى مجرى الدم (المترجم).

بأن هذه الغدد بالتحديد تشكل شخصياتنا. وإذا استسلمنا - أيها السادة - وخضعنا لهم، فسوف ننهار ذهنياً وأخلاقياً.. ولكن ماذا لو لم نستسلم، ما الذى يحدث لنا؟" قال لورد (بارالونجا): "حسناً. ما الذى يحدث لنا؟".

- "لن يعلموا ماذا يمكنهم أن يفعلوا. لا تنخدعوا ببعض المظاهر الخارجية التى تنم عن جمال ورفاهية. إن هؤلاء الناس يعيشون - مثل أهل (بيرو)[1] فى عهد (بيزارو)[2]- فى حلم واهٍ ومخطط تمهيدى ضعيف لتطبيق الاشتراكية.

وكما كان يحدث فى بيرو القديمة، لم تعد لدى اليوتوبيين صحة ولا قوة إرادة. إنهم مجرد حفنة من الرجال والنساء العاقدين العزم، الذين يمكنهم أن يتصدوا بشجاعة - ربما ليس مجرد التصدى بل وتحقيق النصر - فى مواجهة مثل هذا العالم. وبناء على ذلك أطرح خططى أمامكم.".

قال السيد (هنكر): "هل تعنى أن نتولى نحن مقاليد السلطة على كوكب اليوتوبيا بكامله؟".

قال لورد (بارالونجا): "يا له من أمر جلل".

---

(١) جمهورية تقع غرب أمريكا الجنوبية (المترجم).
(٢) فرانسيسكو بيزارو (١٤٧٦ - ١٥٤١) إسبانى وفاتح بيرو (المترجم).

– "أعنى يا سيدى، أن نؤكد حقوق شكل من الحياة الاجتماعية أكثر قوة ونشاطاً وحيوية عن شكل آخر أقل قوة ونشاطاً وحيوية. هانحن داخل قلعة. إنها قلعة حقيقية ويمكن الدفاع عنها. وعندما كان الآخرون يفرغون حقائبهم. كنت و(بارالونجا) و(هنكر)، نفحص هذا المكان عن كثب. ووجدنا أن هناك بئراً فى مكان منعزل يمكن استخدامها للحصول على المياه من الوادى الضيق بالأسفل. إذا دعت الحاجة لذلك. كما كانت الصخرة مجوفة ومنقسمة إلى حجرات وملاجئ، وكان الجدار من ناحية الأرض، راسخاً وعالياً وعليه طبقة ملساء رقيقة ناعمة، حتى لا يمكن تسلقه. أما الممر المقنطر الهائل فيمكن – بسهولة – وضع المتاريس فيه للدفاع عنه، عندما تدعو الحاجة. كما توجد درجات هابطة خلال الصخر إلى الجسر الصغير، الذى يمكن التخلص منه عند الضرورة. إننا لم نستكشف بعد كل الآثار. إن السيد (هنكر) كيميائى – وهو كيميائى قبل أن يصبح خبيراً فى فن الخدع السينمائية – وقد أفاد أن هناك مواد خام فى المختبر، تكفى لصنع عدة قنابل. ويمكن لهذه المجموعة من الأشخاص أن تستخدم – بكفاءة – خمسة مسدسات محشوة بالذخيرة الحية. كما أن لدينا طعامًا يكفى لمدة طويلة".

– صاح السيد (بارنستابل): "أوه! هذا سخف..". ثم قام عن مقعده وجلس من جديد واستطرد قائلاً: ".. إن هذا مخالف للمعقول

ومناف للمنطق والإدراك العام! أن نعادى هؤلاء الناس الودودين! إنه بمقدورهم أن يفجروا هذه المنطقة بما عليها فتذروها الرياح وقتما يشاءون.".

– قال السيد (كاتسكيل) وهو يمد يده مشيراً بسبابته إليه: "أوه! لقد فكرنا فى هذا الأمر. وكان يمكننا أن نقتبس ما فعله (كورتيز)[(١)]، الذى سجن (مونتزوما)[(٢)] فى قلب المكسيك، واتخذه سجيناً ورهينة. إننا أيضاً لدينا رهينتنا. وقبل أن نظهر عداء لليوتوبيين، علينا فى البداية أن نجهز قنابل تنفجر فى الهواء".

– "هل هناك مثل هذا الشيء فى اليوتوبيا؟ أو حتى مثل هذه الفكرة؟ ومرة أخرى أكرر، يجب أن يكون لدينا رهينة".

قال السيد (هنكر): "شخص له أهمية".

قال السيد (بورليه)، بلهجة تنم عن عدم اقتناعه بالفكرة: "إن كل من (سيدار) و(سيربنتين) شخص له أهمية".

صاح السيد (بارنستابل): "إنهم مجرد صبية مدارس سذج".

---

(١) إيرناندو كورتيز (١٤٨٥ – ١٥٤٧) إسبانى وفاتح المكسيك (المترجم).

(٢) إمبراطور عشائر الهنود الحمر التى كانت تسيطر على المكسيك الوسطى زمن الفتح الإسبانى (المترجم).

صرخ الأب (إميرتون): "صبية مدارس! أحدهما وزير والآخر نبيل له مكانة".

قال السيد (بورليه): "سيدى العزيز، إننا نناقش كل الاحتمالات المستقبلية. وبالعمرى، إننى لا أرى لماذا لا يجب أن نقلب الرأى فى هذه الاحتمالات على الرغم من أننى أدعو الله ألا نضطر أبداً لتحقيقها.." تريث لبرهة ثم قال: "ماذا كنت تقول يا (روبرت)؟".

"يجب أن نؤسس لأنفسنا قاعدة هنا، ونؤكد على استقلالنا التام، وأن نجعل اليوتوبيين يدركون هذا الأمر".

قال السيد (ريدلى) بحرارة: "اسمعوا، اسمعوا!".

"علينا أن نحيل هذا السجن إلى عاصمة، تعد بمثابة موطئ قدم للجنس البشرى فى هذا العالم، وتمثل قوة دافعة وباباً لا يجب أن يبقى مغلقاً فى وجه جنسنا".

قال السيد (بارنستابل): "إذا ظل مغلقاً فإننا لن نرى أبداً عالمنا من جديد. وحتى بموافقة اليوتوبيين يمكن أيضاً ألا تتحقق عودتنا إلى وطننا ثانية".

قال السيد (هنكر): "إن هذا الأمر كان يؤرقنى لعدة ليال".

قال السيد (بورليه): "لابد أن هذه الفكرة خطرت ببالنا جميعاً".

رد لورد (بارالونجا) قائلاً: "إنها فكرة بالغة السوء، حتى أن أى شخص منا يجب ألا يهتم بمناقشتها".

قال (بينك): "إننى لم أفكر فى هذا الأمر إلا فى هذه اللحظــة. هــل تعنــى يا سيدى بحق بأننا لا نستطيع العودة؟".

قال السيد (بورليه): "إن الأمور ستتم كما قدر لها. لهذا فإننى أتطلع شوقاً لسماع أفكار السيد (كاتسكيل)".

أراح السيد (كاتسكيل) يديه على فخذيه، وأصبح يبدو شديد الوقار: "لمرة واحدة أتفق مع السيد (بينك)، إذ أعتقد بأننا ربما لن نرى مدننا العزيزة فى عالمنا مرة أخرى!".

قالت الليدى (ستيلا) وقد اصطبغت شفتاها باللون الأبيض: "لقد شعرت بهذا الأمر، وعلمت به منذ يومين".

قال السيد (ديوبونت): "وهكذا تمتد إجازة نهاية الأسبوع هذه إلى الأبد!".

ولبعض الوقت لم يتفوه أحد بكلمة أخرى.

وقال (بينك) أخيراً: "يبدو الأمر وكأنه يمكن لأى واحد منا أن يموت".

فجأة اندفعت الآنسة (جريتا جراى) قائلة، كمن يبعد عن مخيلته فكرة حمقاء: "هذا مناف للعقل، يجب أن أذهب إلى "الهامبرا"(١) فى الثانى من سبتمبر. إنه أمر حتمى. لقد جئنا إلى هنا بمنتهى السهولة، وإنه لأمر مثير للسخرية أن أقول: إننـــى لا يمكننى العودة بالسهولة ذاتها.

رمقها اللورد (بارالونجا) بنظرة حنونة رقيقة وقال: "انتظرى وسوف ترين" قالت هامسة: "لكن يجب علىّ".

"ثمة أمور تدخل فى نطاق المستحيلات حتى بالنسبة للآنسة (جريتا جراى)" قالت: "دعنا نتشارك فى طائرة خاصة أو أى شىء آخر".

افتر ثغره عن ابتسامة عريضة خبيثة وهز رأسه. استطردت قائلة: "... سيدى العزيز! لقد رأيتنى دائماً فى حالة مرحة. أما فى العمل فأنا جادة جداً".

– "فتاتى العزيزة! إن موضوع الذهاب إلى الهامبرا الذى تتطلعين إليه، يعد بعيداً جداً عنا مثل بلاط الملك نبوخزنصر(٢).. إنه أمر مستحيل تنفيذه!".

---

(١) مسرح شهير فى لندن (المترجم).

(٢) ملك بابل (٦٠٥ – ٥٦٢ قبل الميلاد) (المترجم).

ردت عليه بلهجة متعالية: "هذا كل ما سأقوله بخصوص هذا الموضوع".

(٣)

قام السيد (بارنستابل) عن المائدة، وراح يسير وحيداً إلى حيث إحدى الفجوات فى جدار القلعة، والتى كانت تكتنفها الظلمة، جلس هناك، وعيناه تجولان بين المجموعة الصغيرة الجالسة على مائدة العشاء تتجاذب أطراف الحديث، وقممُ المنحدرات الصخرية الشاهقة مغمورة بضوء الشمس، عبر الوادى الضيق، وكذلك منحدرات الجبل الموحشة تحت قمة الصخرة. كم يتمنى أن يعيش فى هذا العــالم ما بقى له من أيام. وربما كانت هذه الأيام قليلة، إذا ما تم الأخذ بفكرة السيد (كاتسكيل). أما مدينة (سيدنهام) وزوجته وأولاده. فقد كانوا بعيدين عن هذا المكان، بقدر بُعد "بلاط الملك نبوخزنصر". بالكاد طرأت عائلته على ذهنه، منذ أن أرسل لهم خطاباً، لو كان يشعر بألم ذهنى ورغبة جامحة أن يرسل إليهم خطاباً، لو كان فى استطاعته. وروعته فكرة أنهم لن يسمعوا منه وعنه أية أخبار بعد ذلك! كيف يمكنهم ممارسة الحياة دونه؟ هل سوف يواجهون مصاعب مع حسابات البنــوك؟ أو مبلغ التأمين المستحق لهم؟ لقد كان دوماً ينوى

أن يفتح حساباً مشتركاً ومتعدداً مع زوجته فى البنك، وإن كان لم يحب أبداً أن يقوم بهذا. حساب مشترك ومتعدد.. إنه أمر على كل إنسان أن يحرص على القيام به. عاد السيد (بارنستابل) ليركز انتباهه من جديد على السيد (كاتسكيل)، وهو يوضح خططه.

"يجب أن نهيئ أنفسنا لما يبدو أنها إقامة طويلة بل إقامة ربما تمتد لمدة طويلة جداً فى هذا المكان. دعونا لا نخدع أنفسنا بما يقوله اليوتوبيون. إننا قد نستمر هنا لسنوات، وربما لأجيال".

أصيب (بينك) بصدمة من هذا القول: "لست أفهم هذا! كيف يمكن أن يستمر هذا الوضع لأجيال؟".

قال السيد (كاتسكيل): "سوف أوضح الأمر".

رد السيد (بينك) وقد راح يفكر بعمق، ومركزاً عينيه على الليدى (ستيلا):

"ياللتعاسة!".

-"يجب أن نبقى كمجتمع صغير غريب، فى هذا العالم اليوتوبى، حتى نحكم سيطرتنا عليه. كما سيطر الرومان على اليونانيين منذ آلاف السنين، وحتى نفهم علومهم فهماً كاملاً، ونخضعها لأهدافنا. إن هذا قد يعنى صراعاً طويل الأمد. إنه صراع

طويل الأمد بالفعل. وفى الوقت ذاته يجب أن نحافظ على أنفسنا كمجتمع، أو كجماعة من المهاجرين أو حامية عسكرية، حتى يأتى اليوم الذى نتحد فيه ثانية مع اليوتوبيين. ويجب أن نحتفظ برهائن وأشياء أخرى. وقد يكون من الضرورى لهدفنا هذا أن يكون لنا دور مع كل اليوتوبيين. وأن نوقع بهم وهم مازالوّا صغاراً، حتى لا تمنحهم معارفهم وتربيتهم، من ألا يتوافقوا مع أهدافنا، عندما يكبرون، ولكى ندربهم ليشبوا على التقاليد والقيم العظيمة لامبراطوريتنا وجنسنا البشرى".

بدا على السيد (هنكر) أنه يريد أن يقول شيئاً ولكنه أحجم. قام السيد (ديوبونت) عن المائدة بحركة مفاجئة وعنيفة، وسار أربع خطوات بعيداً، ثم عاد وتوقف مراقباً السيد (كاتسكيل).

قال السيد (بينك):"أجيال!".

رد السيد (كاتسكيل) قائلاً: "أجل. أجيال، فنحن هنا غرباء. غرباء كمثل هذا الفريق الصغير من المغامرين الذين شيدوا قلعتهم منذ خمسة وعشرين قرناً عند "الكابيتول"(١) على ضفاف نهر "التيبر"(٢).

---

(١) أعلى تلال روما السبعة (المترجم).

(٢) نهر يبلغ طوله نحو ٤٠٠ كيلو متر بوسط إيطاليا (المترجم).

هذا هو مبنى الكابيتول الخاص بنا، كابيتول أعظم – فى مدينة روما الأكثر عظمة – فى عالم أكثر رحابة. وعلى غرار هذا الفريق الرومانى من المغامرين. ربما علينا أيضاً أن نعطى قوة وفاعلية لأعضاء جماعتنا الذين يوفون بحاجاتهم بالكاد، على حساب اليوتوبيين من حولنا، وأن نتخذ لأنفسنا خداماً ومساعدين ورفقاء وأزواجاً وزوجات! وليس ثمة تضحيات أكبر من هذا، من أجل الاحتمالات العظيمة التى تتمخض عنها هذه المغامرة". بدا واضحاً على السيد (ديوبونت) أنه هيأ نفسه لهذه التضحية برباطة جأش. تدخل الأب (إميرتون) فى المناقشة قائلاً بسخرية: "يا له من زواج مناسب!"، اعترض السيد (كاتسكيل) قائلاً: "أجل إنه زواج مناسب! وهكذا يا سيدى، سوف نستمر فى البقاء هنا ونحافظ على أنفسنا، ونتسيد هذه الصحراء المترامية ونفرض هيبتنا ونفوذنا وروحنا الوثابة، على هؤلاء اليوتوبيين الكسولين وعالمهم المتدهور والمتهتك. حتى يحين الوقت أخيراً ونحصل على السر، الذى كان (آردن) و(جرينليك) يجدّان فى البحث عنه، ونعالج شعبنا. ثم نقدم هذا العلاج لملايين اليوتوبيين فى إمبراطوريتنا...".

(٤)

قال السيد (هنكر): "لحظة من فضلك. لحظة من فضلك! بخصوص هذه الإمبراطورية.." قال السيد (ديوبونت) وكأنه يعود فجأة من حلم يقظة رومانسى: "أجل.. بخصوص إمبراطوريتك...".

حدق السيد (كاتسكيل) فيهما، وهو مستغرق فى التفكير ثم قال مدافعاً عن وجهة نظره: "عندما أقول (إمبراطورية)، فإننى أعنى الكلمة بمعناها الأكثر شمولاً" قال السيد (ديوبونت) على حين غرّة: "لقد كنت أفكر - بوجه عام - فى حضارتنا عبر المحيط الأطلنطى..". ثم استطرد وصوته ينم عن مرارة متزايدة: "... قبل أن تواصل الحديث يا سيدى عن الحضارة "الأنجلو سكسونية"[(١)] والجنس المتحدث باللغة الإنجليزية. اسمح لى يا سيدى، أن ألفت نظرك لحقيقة بالغة الأهمية، يبدو أنك تجاهلتها. إن اللغة السائدة فى اليوتوبيا هى الفرنسية. كان يجب أن أذكرك بها. وأن يستدعى ذهنك تلك التضحيات الرائعة والاستشهادات المجيدة التى دفعتها فرنسا وشعبها للوصول إلى هذه الحضارة...".

---

(١) الأنجلو سكسونيون: جماعة جرمانية استوطنوا بريطانيا فى القرنين الخامس والسادس بعد الميلاد (المترجم).

جاء صوت السيد (بورليه) مقاطعاً: "هذا اعتقاد خاطئ عفوى وتلقائى. ولكن إذا سمحت لى يا سيدى، أن أقدم تصحيحاً، فإن الفرنسية ليست لغة اليوتوبيين".

فكر السيد (بارنستابل)، فى أن (ديوبونت) لم يستمع للشرح حول صعوبة لغة اليوتوبيين. قال الرجل الفرنسى بأدب جم: "اسمح لى يا سيدى، أن أصدق أذنى. أؤكد لك، بأن هؤلاء اليوتوبيين يتحدثون الفرنسية وليس غيرها. وهم يتحدثون بلغة فرنسية راقية جداً".

قال السيد (بورليه): "إنهم لا يتكلمون أية لغة".

رد السيد (ديوبونت) قائلاً بازدراء: "ولا حتى الإنجليزية؟".

"ولا حتى الإنجليزية!!".

"ربما ليست إحدى لغات عصبة الأمم[١] ولكن باه[٢]! لماذا أناقش الأمر؟ إنهم يتحدثون بالفعل اللغة الفرنسية. ولا حتى

---

(١) منظمة عالمية تأسست عام ١٩٢٠ لنشر التعاون والسلام العالميين ثم حلت رسمياً عام ١٩٤٦ (المترجم).

(٢) هتاف يفيد معنى السخرية (المترجم).

"البوش"(١) يمكنهم أن ينكروا هذا. يبدو أن الأمر يحتاج إلى رجل إنجليزى...".

فكر السيد (بارنستابل) بأن هذه مناقشة طريفة، ولم يكن هناك أيا من اليوتوبيين حاضراً لكى يكشف الحقيقة ويزيل الوهم عن السيد (ديوبونت)، الذى تشبث بانخداعه اللغوى. وأصر على اعتقاده الخاطئ بكل إباء وشمم. وبخليط من الإشفاق والسخرية والغضب، استمع السيد (بارنستابل) إلى الجماعة الصغيرة من أفراد الجنس البشرى التائهين فى خضم هذا العالم الرحب والغريب، والذى ربما يصبح عدائياً فى أية لحظة. كان الجدل يزداد عنفاً وحدة. والنزاع يدور حول مطالبات دولهم الثلاث "للسيطرة" على اليوتوبيا. واعتمدت هذه المطالبات بشكل أساسى على الأطماع والمفاهيم الخاطئة. وارتفعت الأصوات لتصل إلى حد الصراخ، كما وصلوا فى حدة الطبع إلى درجة مفرطة، نظراً لطول تعودهم على الإحساس بالعظمة القومية التى تصل إلى حد الغرور، الذى يتغلغل فى نفوسهم. لم يسمع السيد (هنكر) أية إشارة إلى "الإمبراطورية"، والسيد (ديوبونت) لا يسمع شيئاً إلا المطالبة القوية بأحقية فرنسا. أما السيد (كاتسكيل) فقد كان يلف ويدور مغيراً اتجاهاته. وبدا للسيد (بارنستابل) هذا

---

(١) كلمة ساخرة أطلقت على الجيش الألمانى فى الحرب العالمية الأولى وتعنى الأغبياء (المترجم).

التعارض القائم على نزعات وطنية، أشبه بصراع كلاب على سفينة تغرق! ولكن في نهاية الأمر، استطاع السيد (كاتسكيل) بإصرار وعبقرية أن يحقق لنفسه انتصاراً على كل من معارضيه. ووقف عند نهاية المائدة، شارحاً بأنه استعمل كلمة "إمبراطورية" على نحو طليق؛ ومعتذراً عن استخدامه لهذه الكلمة، مؤكداً أنه عندما قال "إمبراطورية"، فقد كان يعنى كل الحضارة الغربية.

قال وهو يستدير نحو السيد (هنكر): "عندما استخدمت هذه الكلمة، كنت أعني أخوة – أي مجموعة من الرجال المتحدين لتحقيق هدف مشترك – تقوم على التفاهم المشترك.." ثم واجه السيد (ديوبونت) واستطرد قائلاً: ".. كنت أعنى تحالفاً دولياً لا يزول ولا تنفصم عراه مع الزمن".

رد السيد (ديوبونت) بقوله: "على الأقل لا يوجد هنا روسى واحد، ولا ألمانى" قال اللورد (بارالونجا): "هذا حقيقى. لقد تفوقنا على قبائل "الهُن"(١) ، ويمكننا التقدم إلى الأمام".

وقال السيد (هنكر): "ويمكننى أن أضيف، بأن اليابانيين قد أبعدوا" وقال اللورد (بارالونجا) وقد فكر جدياً ومليأً فى الأمر: "إننى

---

(١) قبائل مغولية آسيوية غزت أوروبا فى القرنين الرابع والخامس بقيادة أتيلا، وقد يقصد المؤلف الجيوش الألمانية في الحرب العالمية الأولى (المترجم).

لا أرى سبباً لأن نبدأ مغامرتنا بتمييز عرقى. إذ إن هذا العالم يبدو لى عالم الرجل الأبيض".

رد السيد (ديوبونت) ببرود وإصرار: "فى الوقت ذاته. اسمحوا لى بأن أستفسر منكم عن تعريف أكثر وضوحاً لعلاقتنا الحالية ولبعض الضمان. ضمان فعال. بأن التضحيات الهائلة التى قامت بها فرنسا ومازالت تقوم بها، للوصول إلى حياة متحضرة، سوف يتم التعرف عليها بالطريقة الصحيحة، وأنها ستكافأ بالشكل المستحق، فى هذه المغامرة.." وأردف قائلاً: "... إننى لا أطالب إلا بتحقيق العدالة".

(٥)

دفع الحنق السيد (بارنستابل) لأن يصبح جريئاً. فقد خرج من "المجثم" الذي كان مختفياً فيه بالجدار. وسار إلى أن وصل إلى المائدة.

قال بغضب" "هل أنتم مجانين، أم لعلى أنا المجنون؟" واستطرد قائلاً: "..هذا النزاع حول الأعلام والبلاد والحقوق الخيالية والأراضى القاحلة، إنه جنون مطبق لا أمل فيه. أمازلتم لا تستوعبون حتى الآن، الوضع المتردى الذى نحن فيه..؟".

أحس السيد (بارنستابل) بضيق فى التنفس لبرهة – لفرط حنقه – ولكنه عاد لاستئناف حديثه: ".. هل أنتم غير قادرين على التفكير فى الأمور الإنسانية، إلا من خلال مفردات كالأعلام والصراع والغزو والسطو؟ ألا تدركون تلك العلاقة التوافقية والمنسجمة بين الأشياء وإمكانيات هذا الكوكب، الذى هبطنا فوقه؟ وكما قلت من قبل، فنحن نشبه مجموعة من البدائيين الذين يقومون باستعراض فى "إيرل كورت"، ويدبرون مؤامرة لإخضاع لندن! نحن أشبه بزمرة من أكلة لحوم البشر، تراودهم الأحلام وهم فى قلب مدينة عظيمة. باستعادة القذارة والنجاسة لعهود قديمة عفى عليها الزمن. ألم تتساءلوا ما فرصنا فى هذا الصراع العجيب؟".

قال السيد (ريدلى) مستنكراً: "لقد نسيت كل شىء تم إبلاغك به فى التو واللحظة. كل فكرة نوقشت. ألم يعان اليوتوبيون من الحصبة والإنفلونزا. ولن يكون هناك أية مقاومة للأمراض مازالت باقية فى كل اليوتوبيا".

قال السيد (كاتسكيل):"تماماً".

"حسناً، فلنفترض أن لديكم فرصاً لتحقيق أهدافكم. هذا يعنى أن مخططكم سوف يكون مفعماً بالأمل أكثر، ولكنه – فى الوقت ذاته – سوف يجعل الأمر مروّعاً إلى حد كبير. لقد تركونا هنا بعيداً عن

مشاكلنا الخاصة بزماننا فوق كوكب الأرض. إننا نتمتع برؤية مبدعة وواقعية، عن حضارة راقية، يتمنى عالمنا تحقيقها فى خلال عدة قرون..!". تريث لعدة لحظات ثم استطرد قائلاً: ".. هنا عالم يسود فيه السلام والرخاء والسعادة، زاخر بالحكمة والأمل! ولو أننا بقوتنا الواهنة والمكر الذى يشكل أساس شخصياتنا. استطعنا أن نتسيد هذا الكوكب، فسوف نحطمه ونحوله كله إلى خراب! إننا نخطط لدمار عالم بأكمله! وأؤكد لكم أن هذه ليست مغامرة.. بل هى جريمة.. كراهية بلا حدود تملأ القلوب. لن يكون لى دور فى تلك المؤامرة. إننى ضدكم فى هذه المحاولة".

كاد الأب (إميرتون) أن يتكلم، لكن السيد (بورليه) أوقفه بإيماءة.

تساءل السيد (بورليه): "ماذا تريدنا أن نفعل؟".

"أن نخضع لعلومهم. أن نتعلم كل ما يمكننا منهم. وربما بعد فترة قصيرة، تتم معالجتنا من هذه السموم التى ورثناها، ولعلهم يسمحون لنا بالعودة من هذه الصحراء المنعزلة التى تمتد بلا نهاية، وتمتلئ بالمناجم والتوربينات والصخور، إلى هذه الحدائق المأهولة بالسكان، والتى تمكنا – بالكاد – من رؤيتها. وفى النهاية ربما

استطعنا أن نعود إلى عالمنا المضطرب، مزودين بالمعرفة والأمل، مبشرين بعالم جديد.".

بدأ الأب (إميرتون) يقول: "ولكن لماذا...؟".

ومن جديد تصدى السيد (بورليه) للكلمة، ولم يدع الأب (إميرتون) يكمل حديثه: "إن كل شيء تقوله، يعتمد على افتراضات لم يتم التحقق منها. إنك تفضل أن تنظر إلى هذه اليوتوبيا بمنظار وردى. أما نحن الآخرون، وعددنا..".

وأخذ يحصى عدد الموجودين بإصبعه، ثم استطرد قائلاً: "... أحد عشر فرداً، فى مواجهة شخص واحد.. هوأنت – نرى الأمور بخلاف هذه المفاهيم المسبقة المغرقة فى الأمل.".

انتصب الأب (إميرتون) على قدميه، وضارباً المائدة بيده بعنف مما أدى إلى اهتزاز كل الأكواب الزجاجية، وقال بحدة: "دعنى أسأل: من تكون لكى تنصب نفسك قاضياً ومحكماً على الرأى الغالب للجنس البشرى كله؟ إننى أقول لك – يا سيدى – إنه فى هذا العالم الموحش والشرير والغريب، نحن الاثنى عشر شخصاً نمثل الجنس البشرى. إننا رجال المقدمة والطليعة والرواد، فى هذا العالم الجديد الذي منحه الرب لنا، كما أعطى "الكنعانيين"(١) قديماً إسرائيل(٢)، منـذ

---

(١) شعب سامى سكن فلسطين قبل مجئ اليهود إليها عام ١٠٠٠ قبل الميلاد (المترجم).

(٢) أرض الكنعانيين (المترجم).

ثلاثة آلاف عام مضت. من تكون أنت؟!" قال (بينك): "أجل. من تكون أنت؟".

صرخ السيد (زيدلى) يعزز قولهما: "بحق السماء. من تكون أنت؟".

لم يكن السيد (بارنستابل) يمتلك المهارة الكافية لمواجهة مثل هذا التهجم المباشر. لذلك وقف عاجزاً غير قادر على تدبر أموره وحده. ومما يدعو للدهشة أن الليدى (ستيلا) تصدت لنجدته، قائلة: "إن هذا ليس عدلاً أيها الأب (إميرتون)، إن السيد (بارنستابل) – أياً كان منصبه – له الحق التام فى أن يعبر عن رأيه الخاص".

أخذ السيد (كاتسكيل) يسير جيئة وذهاباً فى الجانب الآخر من المائدة، ثم راح يغمغم: "لقد عبّر عن رأيه.حتى نتمكن من أن نستمر فى التصدى للمهام الموكولة لنا. وأعتقد أنه من الحتمى أن نبحث عن المستنكف ضميرياً[1] ليوضح لنا الأمور حتى فى هذه اليوتوبيا. ماذا عن الباقى منا؟ أعتقد أنهم جميعاً على رأى واحد فى موقفنا هذا.".

---

(١) شخص يرفض حمل الأسلحة أو الخدمة فى القوات المسلحة لاعتبارات تتعلق بالمبادئ الأخلاقية أو الدينية .(المترجم).

قال السيد (موش)، وهو يحدق فى السيد (بارنستابل) بتعبير ينم عن الحقد: "نحن معك".

"حسن جداً، لذلك أنا أرى أننا يجب أن نتبع الإجراءات التى استقر الأمر على اتباعها فى مثل هذه الحالات. ولن نطلب من السيد (بارنستابل) أن يشاركنا فى الخطر – وكذلك الفخر والشرف – الناتج عن الصراع. سوف نسأله فقط أن يقوم بأعمال مدنية مساعدة".

رفع السيد (بارنستابل) يده لأعلى معترضاً وقال: "لا، أنا لن أوافق على القيام بأعمال مدنية مساعدة، إذ لا أرى تشابهاً جزئياً بين موقفنا والاحتياجات لشن حرب عظمى، وعلى كل الأحوال، أنا معارض تماماً لهذا المشروع. إنها ردة حضارية. ورجوع لعهد قطّاع الطرق. ولا يمكنكم أن تعتبرونى مستنكفاً ضميرياً لأننى لا أعارض القتال، إذا كان ثمة هدف يوجبه. ولكن هذه المغامرة التى تزمعون القيام بها، لا تمثل – بالنسبة لى – سبباً وجيهاً للقتال". ثم استطرد قائلاً: "يا سيد (بورليه) إنك لست سياسياً فحسب، ولكنك رجل ثقافة وفلسفة، لهذا أناشدك، أن تعيد التفكير فيما يتم دفعنا إليه، إننا نندفع إلى القيام بأعمال تتسم بالتمرد والعنف، وإذا بدأت فلن يمكننا التراجع عنها!".

قال السيد (بورليه) بصوت رصين ينم عن وقار ولكنه يشى ببعض الانتقاد:

"لقد تدبرت الأمر. ويمكننى القول بأننى رجل له شيء من الخبرة المتوارثة فى الشئون الإنسانية. وقد لا أتفق مع كل ما قاله صديقى السيد (كاتسكيل). بل لعلى أضيف أيضاً أننى لا أتفق معه على الإطلاق. ولو كنت الحاكم المطلق هنا، لقلت بأنه علينا أن نقاوم اليوتوبيين. من أجل تحقيق الاحترام لأنفسنا. ولكن لا نقاومهم بالعنف والعداء، الذى يفكر فيهما السيد (كاتسكيل). والرأى عندى أنه يمكننا أن نقوم بالأمر، بأكثر دقة وإستفاضة ونجاحاً، مما ينتوى السيد (كاتسكيل). بيد أن هذا رأيى وحدى، ولا يشاركنى فيه لا السيد (هنكر) ولا لورد (بارالونجا) ولا السيد (موش) ولا السيد (ديوبونت). ولا حتى المهندسون التقنيون هنا، يوافقون على رأيى. والذى أستطيع أن أؤكده أن ما فقدته جماعتنا الصغيرة من الأرضيين – فى هذا العالم الغريب – هو السلوك الجمعى الموحد، ووحدانية الغاية والفعل. ويجب ألا يحدث بيننا اختلاف فى الرأى. لابد أن نتماسك معاً ونعمل معاً وكأننا شخص واحد. تناقشون لو أردتم، لو كان ثمة وقت للمناقشة، ولكن فى النهاية اتخذوا قراراً. وإذا ما قررتم فكونوا على ولاء تام لقراراتكم وما التزمتم به. أما بخصوص تأميننا بأخذ رهينة أو اثنتين، فإننى أوافق السيد (كاتسكيل) على هذا.".

لكن السيد (بارنستابل) كان مجادلاً صعباً فقال: "ولكن هؤلاء اليوتوبيين بشر مثلنا، وهم عقلانيون ومتحضرون كما نحن".

قاطعه السيد (ريدلى) بصوت يتسم بالعنف: "يا إلهى! إنه لا يمكننا أن نظل نتجادل إلى الأبد. لقد حان وقت الغروب. واتضح أننا قلنا الكثير دون نتيجة. إننا يجب أن نعرف موضعنا، وما هو المتوقع منا القيام به، وذلك قبل حلول الظلام. هل لى أن أقترح تنصيب السيد (كاتسكيل) كقائد عام، له كل الصلاحيات الحربية للتصدى للأمر". قال السيد (بورليه) مدركاً خطورة الموقف: "وأنا أضم صوتى للسيد (بورليه)". قال السيد (كاتسكيل): "وربما يوافق السيد (ديوبونت)، على أن يكون نائباً للقائد العام وممثلاً لبلاده العظيمة وتأكيداً لتحالفنا المجيد". وافق السيد (ديوبونت) دون معارضة قائلاً: "حيث لا يوجد هنا فرنسياً أرفع منى مكانة، ولكى أضمن أن المصالح الفرنسية سوف يتم احترامها على نحو مناسب".

"وسيكون السيد (هنكر) الضابط الأول ولورد (بارالونجا) مسئول الإمداد والتموين والأب (إميرتون) راعينا وقاضينا. والسيد (بيرليه) سيكون بالطبع مديراً للشئون المدنية". انتابت السيد (هنكر) نوبة من السعال، وعبّر عن عدم موافقته بالتقطيب والعبوس، وبدا كشخص يواجه صعوبة فى شرح أمر ما، قال: "أنا لا أوافق أن أكون ضابطاً أول، فأنا لا أريد أى منصب رسمى، إذ إننى أكره مواجهة

المشاكل والعراقيل التى لم أعتدها. اعتبرونى متفرجاً أو مشاهداً يمكنه تقديم يد المساعدة. وسوف ترون – أيها السادة – أنه يمكنكم الاعتماد عليّ، عندما تحتاجون للعون".

جلس السيد (كاتسكيل) على رأس المائدة، وأشار إلى مقعد بجانبه ليجلس عليه السيد (ديوبونت)، وجلست الآنسة (جريتا جراى) على الجانب الآخر، إلى جوار السيد (هنكر). واستمر السيد (بورليه) فى مكانه على بعد مقعد أو مقعدين من السيد (هنكر). وجاء الباقون ووقفوا حول السيد (كاتسكيل) القائد، فيما عدا الليدى (ستيلا) والسيد (بارنستابل)، الذى أدار ظهره فيما يبدو أنها حركة مقصودة، لإظهار اللامبالاة للرئيس الجديد. واستطاع أن يرى الليدى (ستيلا) وهى لا تزال جالسة فى الطرف الآخر من المائدة. تتطلع بنظرات مريبة، إلى مجموعة الأشخاص الجالسين حول المائدة. ثم اتجهت عيناها إلى القمة الموحشة للجبل البعيد.

فجأة! ارتعدت الليدى (ستيلا) بعنف وانتصبت واقفة، وقالت: "سيكون المكان هنا قارس البرودة بعد غروب الشمس". ولكن لم يعرها أى شخص اهتماماً. فاستطردت قائلة: "... لسوف أذهب لأحضر دثاراً أغطى به كتفىّ" ثم سارت بخطى متثاقلة إلى المكان المخصص لإقامتها داخل القلعة، ولم تظهر مرة أخرى.

(٦)

لم يشأ السيد (بارنستابل) أن يبدو كأنه ينصت لمجلس الحرب هذا، وما يدور فيه. لهذا سار إلى جدار القلعة القديمة ثم صعد مجموعة من درجات السلم الحجرية، وعبر الحصن إلى حافة الصخرة المبنية عليها القلعة. وهنا كان يمكن سماع الصوت الصاخب لتدافع المياه وتكسر الأمواج، يأتى واضحاً وعالياً جداً من تيارات المياه المتدفقة فى الواديين الضيقين المتقاربين فى الأسفل. وكان ضوء الشمس الغاربة مازال ينعكس على صخرة، عند أعلى الجبل خلفه، بيد أن كل العالم حوله، كان الآن غارقاً فى ظلال زرقاء. وثمة غلالة ضبابية – تشبه ندف الصوف الأبيض – تتجمع فى الوديان تحته، لتغطى التيارات المائية الضاجة. وكانت هذه الغلالة الضبابية تنحرف قليلاً إلى مستوى الجسر الصغير، الذى يصل ما بين الوادى الضيق والممشى الممهد بالقمة المقابلة له للجبل. ولأول مرة منذ وصول السيد (بارنستابل) إلى اليوتوبيا، يحس بأن هناك صقيعاً فى الهواء، وثمة وحشة مطبقة على صدره تسبب له ما يشبه الألم. وبعيداً فى المنطقة المتسعة عند التقاء الواديين، كانت تجرى إنشاءات هندسية تنبعث منها ومضات ضوئية تخترق الضباب المنجرف. وهناك على البعد فوق الجبال. كانت طائرة وحيدة تحوم

على ارتفاع شاهق لازالت تحاول التعلق بأشعة الشمس الغاربة، وترسل ومضات من الضوء الذهبى الذى يبهر النظر، ثم بعدت الطائرة واختفت عن نظره من جديد فى السماء ذات اللون الأزرق العميق.

حدق إلى أسفل حيث الفناء العظيم للقلعة القديمة. وبدت المبانى الحديثة فى غبشة الغسق، وكأنها أشباح واقفة فى هيكل مسقوف، بهذا الكيان المعمارى المتكامل. وجاء شخص ما ومعه ضوء، وبرفقته السيد (كاتسكيل) الحاكم الجديد، الذى راح يكتب أوامره، ومرؤوسيه يلتفون حوله. انعكس الضوء على وجه وكتفى وذراعى الآنسة (جريتا جراى)، حيث كانت تحدق من فوق ذراع القائد، لترى ما الذى يكتبه. وعندما نظر إليها السيد (بارنستابل)، رآها وهى ترفع يدها فجأة إلى فمها لتخفى تثاؤباً لا إراديا قبل أن يتضح.

الفصل الثالث

السيد (بارنستابل) يخون الجنس البشرى

أمضى السيد (بارنستابل) جزءاً كبيراً من الليل، جالساً على فراشه يطيل التفكير فى العناصر التى لا تحصى للموقف الذى وجد نفسه فيه. ماذا يستطيع أن يفعل؟ أو بالأحرى ماذا يجب أن يفعل؟ وإلى أى مكان ينتمى؟ إن تقاليد كوكب الأرض البائدة وفساد أخلاق سكانها وأمراضهم، قد حولت مساهماته الرائعة فى مجالات متعددة، إلى عداوات وخصومات خطيرة وبغيضة، مما جعله غير قادر أن يقر ذهنه على ما يجب عمله إزاء وضعه الجديد. وبدا أن أمامه احتماليــن لا ثالث لهما. أن اليوتوبيين سيثبتون أنهم الأكثر قوة وحكمة ومعرفة، وفى هذه الحالة، فإنه هو شخصياً ومجموعة الأرضيين "القراصنة"، سوف يتم سحقهم وقتلهم مثل الحشرات الصغيرة. أو أن طموحات السيد (كاتسكيل) – الميئوس منها – تتحقق، ويصبح الأرضيون القرح المنتشرة فى الجسم العفىّ لتلك

الحضارة النبيلة والمهيبة. إنهم عصابة من اللصوص والمدمرين، يرجعون اليوتوبيا عاماً بعد عام وعصراً بعد عصر، القهقرى إلى الظروف الأرضية الهمجية. ولم يكن هناك غير حل واحد للخروج من هذه المشكلة المحيرة من وجهة نظر السيد (بارنستابل)، أن يغادر هذا المكان المحصن، وأن يذهب إلى اليوتوبيين، ليكشف لهم عن مشروع الأرضيين برمته، وأن يضع نفسه وزملاءه تحت رحمتهم. ولكن إن كان عليه أن يفعل ذلك، فليفعله سريعاً قبل أن يتم القبض على الرهائن من اليوتوبيين، وتبدأ مرحلة الصدام الدموى معهم.

ولكن بادئ ذى بدء، يبدو الأمر – فى الوقت الحالى – بالغ الصعوبة، لعدم تمكنه من الخروج من بين هذه الزمرة من الأرضيين. إذ لعل السيد (كاتسكيل) قد انتهى بالفعل من تحديد مراقبين وحراس، إلى جانب أن الوضع الخاص بالصخرة التى تم بناء القلعة عليها، يكشف بسهولة أية محاولة للهرب. كما أن أسلوب تعليم السيد (بارنستابل) طوال حياته الدراسية قد .هيأه ليكون خاضعــاً لأية جمــاعــة أو زمرة ينتمى إليها، وكذلك أية منظمة أو مدرسة أو نادٍ أو حزب وهلم جرا. ومع ذلك فإن ذكاءه ورغباته اللامحدودة فى المعرفة والتعلم، كانت تتعارض مع تلك المؤامرات المتزمتة الموجهة ضد العالم ككل. وجعله إدراكه الروحى – غير المادى – ثائراً مزعجاً طوال مدة وجوده فوق كوكب الأرض. وكان

يبغض الأحزاب السياسية والقادة السياسيين، ويزدرى ويرفض القومية والإمبريالية[١] ومــا يصاحبهما من مشاعر الإخلاص والوفاء والتفانى المزيفة. كما كان ضد الحروب العدائية من أجل غزو البلاد الأخرى والاستيلاء عليها. وما يتعلق بالسيطرة المالية، ونوعية رجال الأعمال الذين يحتكرون كل شيء لمصلحتهم.

لقد كان يكره كل هؤلاء، كما يمقت الزنابير والفئران والضباع وأسماك القرش والبراغيث ونباتات القرّاص[٢] وما شابهها. وبدا له أنه كان مواطناً فى اليوتوبيا تم نفيه إلى كوكب الأرض! لقد فكر فى أن يخدم يوتوبيا تتحقق فوق كوكب الأرض. فلماذا لا يخدم كوكب اليوتوبيا الآن؟ وإذا كانت مجموعته من الأرضيين صغيرة العدد ويائسة، فإن هذا لا يمثل مبرراً لكى يخدم ما يكرهه. حتى لو كانوا مجموعة من اليائسين، فإنهم أيضاً – على وجه العموم – عصبة من الأشرار. وليس ثمة سبب يجعل الليبرالية[٣] تنحط لتحقيق هوى فاسد للأقليات.

---

(١) سياسة استعمارية لتوسيع سلطة دولة ما (المترجم).

(٢) نبات ذو وبر شائك (المترجم).

(٣) حركة سياسية تدعو إلى الحرية السياسية والمدنية غير الخاضعة لسلطة استبدادية (المترجم).

لقد كان هناك اثنان فقط من بين مجموعة الأرضيين يستدرون تعاطف السيد (بارنستابل)، هما الليدى (ستيلا) والسيد (بورليه). على الرغم من أن لديه بعض الشكوك تجاه السيد (بورليه)، الذى يعد واحداً من هؤلاء البشر ذوى الطبع الغريب، ممن يفهمون كل الأمور، ولكنهم لا يحسون بشئ. وقد اعتبره السيد (بارنستابل) ذكياً، وإن كان يعوزه الإحساس بالمسئولية. أليس هذا أكثر شراً من كونه غبياً ومغامراً مثل (هنكر) أو (بارالونجا)؟

عاد السيد (بارنستابل) يمعن التفكير فى الحقائق التى تحيط به، بدلاً من التأمل الطويل فى الأخلاقيات، وفى الغد سوف يقيّم الموقف من جديد ويضع خططه، وربما يتمكن - عند الشفق - أن ينسل بعيداً. لقد كان من عاداته الأصيلة أن يؤجل تصرفاته إلى أفضل وقت من النهار. إن حياته برمتها تتضمن أفعالاً مؤجلة لم يتخذ فيها قراراً.

(٢)

بيد أن الأحداث لم تكن لتنتظر السيد (بارنستابل)، فقد تم استدعاؤه عند الفجر بواسطة (بينك)، الذى أبلغه بأن الحامية العسكرية للأرضيين بالقلعة، سوف تستيقظ صباح كل يوم على

صوت بوق كهربائى، قام هو و(ريدلى) بتصميمه. وراح (بينك) يتحدث بإسهاب عن اختراعه الذى قام بتدشينه، فى هذه الفترة من الوقت التى تميزت بظروف وأحداث متفردة. ثم مد يده بورقة منتزعة من دفتر مذكرات، كتب عليها السيد (كاتسكيل): "(بارنابى)[١] غير المقاتل. عليك مساعدة (ريدلى) فى إعداد وجبات الإفطار والغذاء والعشاء، وتحديد المواعيد وتعليق قائمة المأكولات على جدار قاعة الطعام، ورفع الأطباق وأدوات المائدة بعد الانتهاء من الأكل، ثم غسلها بحرص وتنظيف المطبخ، وفى الأوقات الأخرى، تكون تحت أمر السيد (هنكر) فى المختبر الكيميائى لإجراء التجارب وتصنيع القنابل. مع المحافظة على نظافة المختبر".

قال (بينك):" هذا هو عملك. و(ريدلى) فى انتظارك".

قال السيد (بارنستابل) بينما كان ينهض من فراشه: "حسناً". لم يكن ثمة داعٍ للتشاجر، وقد عزم على الهرب. لذلك ذهب إلى (ريدلى) الذى كان عليه بعض الضمادات، وكان يعانى من الشعور بالخوف. وقد قاما معاً بتأسيس مطعم حربى بريطانى، على غرار النمط السائد فى الجيش البريطانى عام ١٩١٤. تناول الجميع الإفطار فى السادسة والنصف صباحاً، بعد أن دق البوق الكهربائى مرتين.

---

(١) اسم التدليل للسيد (بارنستابل) (المترجم).

وقد تم استعراض الرجال أمام السيد (كاتسكيل) وقام بالتفتيش عليهم، وكان يقف بجانبه السيد (ديوبونت) أما السيد (هنكر) فكان يقف موازياً لهما، على بعد عدة ياردات، وقد غادر كل الأرضيين أماكن إقامتهم، عدا السيد (بورليه) الذى كان بمثابة القائد المدنى فى اليوتوبيا، وبناء على ذلك ظل ملازماً فراشه، وكذلك السيد (بارنستابل) الذى لم يعتد به كمقاتل. وجلست الآنسة (جريتا جراى) والليدى (ستيلا) فى أحد الأركان المشمسة للفناء، تقومان بحياكة علم. كان علماً أزرق به نجمة بيضاء، وقد روعى فى تصميمه ليكون غير مشابه لأحد أعلام البلاد لتفادى المساس بالمشاعر الوطنية، لأى من أعضاء الفريق. وكان الهدف من هذا العلم تمثيل الجنس البشرى بجميع قومياته.

بعد العرض العسكرى تفرّق أفراد الحامية، كل إلى موقعه لأداء الواجب المكلف به، وقد تولى السيد (ديوبونت) القيادة العامة، أما السيد (كاتسكيل) – الذى ظل مستيقظاً طوال الليل ليقوم بالحراسة – فذهب ليستريح. وكانت له قدرة نابليون بونابرت فى أن يذهب فى خلال أى وقت من اليوم لينام لساعة أو نحوها.

صعد السيد (بينك) إلى قمة القلعة، حيث شيد البوق ليلقى نظرة.

وتوفرت للسيد (بارنستابل) بعض اللحظات الذى أمكن له اختلاسها، بين الوقت الذى أنجز فيه أعماله مع (ريدلى) ، والوقت الذى اكتشف فيه (هنكر) أنهما يحتاجان إلى معونته، وفى غضون ذلك الوقت، قام (بارنستابل) بمعاينة جدار القلعة المطل على المنحدرات. وبينما كان واقفاً على المتراس القديم. يفكر فى الفرص المتاحة له للفرار في تلك الليلة بعد غروب الشمس، ظهرت طائرة فيما أعلى الصخرة المشيدة عليها القلعة، وهبطت فوق المنحدر الأقرب إليه. ونزل منها اثنان من اليوتوبيين، راحا يتحدثان لبعض الوقت مع الطيار، ثم أدارا وجهيهما فى اتجاه المكان المحصن للأرضيين.

أصدر البوق الكهربائى نغمة واحدة، جعلت السيد (كاتسكيل) يسارع إلى مكان السيد (بارنستابل). وقام برفع منظار ميدان[١] إلى عينيه، مراقباً الشخصين القادمين.

قال السيد (كاتسكيل) بينما كان يخفّض منظار الميدان عن عينيه: "إنهما (سيربنتين) و(سيدار) وقد جاءا منفردين. حسناً".

ثم استدار وأشار بيده إلى (بينك)، الذى استجاب على الفور بأن جعل بوقه الكهربائى، يصدر صوتين حادين قصيرين، هما

---

(١) نظارة مكبرة لمشاهدة الأشياء والمناظر البعيدة (المترجم).

الشفرة التى تم الاتفاق عليها لاستدعاء الجمعية العمومية. على إثر ذلك، ظهر هناك فى أسفل فناء القلعة بقية القوة المتحالفة بصحبة السيد (هنكر)، واندفعوا بطريقة منتظمة معقولة تشبه أداء العسكريين. عبر السيد (كاتسكيل) أمام السيد (بارنستابل) دون أن يعيره التفاتاً، لينضم إلى السيد (ديوبونت) والسيد (هنكر) ومساعديهم، عازماً على إصدار تعليماته لهم، فيما يتعلق بالخطط التى سوف تُتبع لمواجهة الأزمة التى ستبدأ فى التو واللحظة. لم يتمكن السيد (بارنستابل) من أن يستمع لما كان يقال ولكنه لاحظ، ساخراً ودون أن يوافق، بأن كل رجل – بعد أن يتلقى التعليمات من السيد (كاتسكيل) – يضرب كعبيه ببعضهما ويقوم بالتحية، وكأنه أحد أفراد فرقة عسكرية، بعدها أصدر السيد (كاتسكيل) أمراً نهائياً؛ فتفرقوا كل إلى موقعه.

كانت ثمة مجموعة من الدرجات الحجرية التي أصابها بعض التلف، تصل الفناء بالممر المقنطر الضخم ذى الأقواس المنحوت فى الجدار ويعد مدخلاً ومخرجاً للمنحدرات بالأسفل. اتخذ (ريدلى) و(موش) مكانيهما إلى يمين هذه الدرجات الحجرية، واختفيا وراء كتلة بارزة من مواد البناء، بحيث يكونان غير مرئيين لأى شخص يقترب، صاعداً من أسفل.

أما الأب (إميرتون) والسيد (هنكر) فقد اختفيا – بالطريقة ذاتها – إلى اليسار. ولاحظ السيد (بارنستابل) أن الأب (إميرتون) قد

أعطى لفافة من الحبال، وعندما جال السيد (بارنستابل) بنظره، اكتشف أن السيد (موش) كان يحدق النظر فى مسدس صغير بيده، ثم وضعه فى جيبه. واتخذ لورد (بارالونجا) لنفسه مكاناً – على بعد عدة خطوات من السيد (موش) – وأخرج مسدساً آلياً، وأمسك به فى يده. وظل السيد (كاتسكيل) واقفاً عند قمة الدرج، وكان يحمل أيضاً مسدساً آلياً. استدار فى اتجاه القلعة، واستمر ينظر لبعض الوقت ليطمئن على وضع (بينك)، ثم أشار إليه لينضم للآخرين. أما السيد (ديوبونت) فقد كان مسلحاً بأحد الأرجل الثقيلة لمائدة، وكان يقف إلى الجانب الأيمن للسيد (كاتسكيل).

أخذ السيد (بارنستابل) يراقب كل هذه الترتيبات، دون أن يدرك مغزاها. وعندما بدأت عيناه تنتقل بين الأشخاص المتجمعين بالقرب من القلعة على شكل كمين، واليوتوبيان اللذان يصعدان فى اتجاههم، دون أن ينتابهما أى شك فيما ينتظرهما. وأدرك (بارنستابل) أنه فى خلال دقيقتين، سيناضل (سيربنتين) و(سيدار)، حتى لا يأسرهما الأرضيون.

ومض في ذهنه، أنه يجب أن يفعل شيئاً. وقد كان أمراً صعباً على (بارنستابل) الذى اعتاد على التأملات، وليس على اتخاذ القرارات، فوجد نفسه يرتجف بعنف.

(٣)

كان لا يزال يحدوه الأمل فى تدخل جهة ما للوساطة بين اليوتوبيين والأرضيين، حتى فى هذه اللحظات الأخيرة الحاسمة. رفع يده وصاح "هاى!". كانت هذه الصيحة للأرضيين أكثر منها لليوتوبيين. ولم يلحظ أحد إشارته ولا صيحته الخافتة. عندئذ اتضح له أن إرادته قد استقرت على فكرة بسيطة، وإن كثرت الصعاب التى تواجهها. فكرة واحدة ظلت تضغط على ذهنه. يجب ألا يتم القبض على (سيربنتين) و(سيدار). وكان متعجباً وحانقاً على تردده. بالطبع يجب ألا يتم القبض عليهما! إن هذا الفعل الأحمق يجب إنهاؤه فى التو. فى أربع قفزات كان على الجدار أعلى الممر المقنطر. حيث يمكن للجميع رؤيته وسماع صوته. صرخ بصوت عال وواضح: "خطر.. خطر" ثم مرة ثالثة: "خطر!".

حينئذ أطلق (كاتسكيل) صيحة تنم عن الدهشة البالغة، ثم أطلق مسدسًا فى اتجاهه، فاندفعت رصاصة فى الهواء بالقرب من (بارنستابل). توقف (سيربنتين) عن السير فجأة ونظر إلى أعلى، ولمس ذراع (سيدار) وأشار إلى فوق.

صرخ السيد (بارنستابل) ملوحاً بذراعيه: "هؤلاء الأرضيون يريدون أسركما. لا تأتيا إلى هنا! خطر!" وأدرك السيد (كاتسكيل) أنه لا يجيد استخدام المسدس الآلى، إذ أنه لم يستطع إصابة السيد (بارنستابل) بطلقاته. إثر ذلك تراجع (سيربنتين) و(سيدار) إلى الخلف، بخطوات بطيئة ومترددة، يزمعان العودة من حيث أتيا. للحظات لم يدرك (كاتسكيل) ما الذى يجب عمله، لكنه قفز الدرج دفعة واحدة وكأنه طار من عليه، وهو يصرخ لرفقائه: "اتبعوهما! أوقفوهما! تعالوا كلكم إلى هنا".

صرخ السيد (بارنستابل) لليوتوبيين: "ارجعا! بسرعة! بسرعة!" جاء صوت وقع أقدام وقرقعة وضجة من أسفل، ثم اندفع الرجال الثمانية الذين يشكلون القوة المحاربة للقوات الأرضية فى اليوتوبيا، من تحت الممر ذى الأقواس، وهم يهرعون فى اتجاه اليوتوبيين المذهولين. كان السيد (موش) فى المقدمة وخلفه مباشرة السيد (ريدلى) الذى كان يصوّب مسدسه ويطلق الرصاص. بعدهما جاء السيد (ديوبونت) وهو ممتلئ بالحماس والنشاط أما الأب (إميرتون) فقد كان فى المؤخرة ومعه حبل غليظ.

استمر السيد (بارنستابل) فى الصراخ بصوت أجش: "ارجعا!" بعدها سكت عن الصراخ.. وأخذ يراقب المشهد الذى يتراءى له، ويداه مضمومتان بشدة، من فرط انفعاله. خرج الطيار من طائرته

وراح يركض إلى المنحدر ليساعد (سيربنتين) و(سيدار). وهنا ظهرت طائرتان أخرتان تحلقان في الجو. لقد أخفق اليوتوبيان فى أن يسرعا بدرجة كافية، ولم تمر عدة لحظات حتى استطاع ملاحقوهما أن يمسكوا بهما، وكان يقود الهجوم كل من (هنكر) و(ريدلى) و(موش). أما السيد (ديوبونت) فقد أخذ يلوّح بعصاه، وهو يركض جنباً إلى جنب معهم، ولكنه انحرف إلى اليمين بعد فترة، وكأنه يود أن يقطع الطريق بين اليوتوبيين والطيار. وقد كان السيد (كاتسكيل) و(بينك) خلف الثلاثة الذين فى المقدمة، بمسافة قصيرة للغاية. كما كان لورد (بارالونجا) ذا الذراع الوحيدة، على بعد نحو عشر ياردات من الأب (إميرتون) الذى توقف ليجهّز الحبل، حتى يستخدم كأنشوطة لاقتناص اليوتوبيين.

وقتئذ تحرك (سيربنتين) بسرعة، كما لو كان يريد الإمساك بـــ (هنكر)، ثم سمعوا صوت دوى مسدس ثم أطلقت ثلاث رصاصات من مسدس آخر.

صاح السيد (بارنستابل): "يا إلهى! يا إلهى!" عندما شاهد (سيربنتين) يدفع بيديه فى الهواء ثم يفقد توازنه ويقع على ظهره فوق الأرض. عندئذ أدرك (سيدار) الموقف فتصرف بسرعة.. أمسك (موش) ورفعه فى الهواء، وقذف به فوق السيد (كاتسكيل) و(بينك)، فأوقعهم كلهم فأصبحوا مثل كومة غير محددة المعالم. صرخ السيد

(ديوبونت) باهتياج، واندفع في اتجاه (سيدار)، ولكن ليس بالسرعة الكافية. حاول أن ينقض عليه بهراوته، ولكن تفادى (سيدار) الضربة القاصمة، فطاشت ولم تصبه. ثم انحنى اليوتوبى وأمسك به من رجله، ورفعه إلى أعلى وأداره في الهواء – كما يفعل المرء بأحد الأرانب – ثم ألقى به بقوة فوق السيد (هنكر) فأصابه بشكل مباشر. رجع لورد (بارالونجا) راكضاً إلى الخلف لبضع خطوات، وبدأ يطلق الرصاص على الطيار الذى أخذ يقترب في اتجاه هذا المكان. أما عن الأيدى والأقدام المختلطة، فقد وضحت معالمها من جديد، ونهض الثلاثة أشخاص[١] من فوق الأرض. وراح السيد (كاتسكيل) يلقى بتعليماته المتلاحقة، بينما كان يتابع تحركات (سيدار)، يتبعه (بينك) و(موش) ثم (هنكر) و(ديوبونت). كانوا يطاردون اليوتوبى، كما تطارد كلاب الصيد خنزيراً برياً. ومرة تلو الأخرى، أخذ (سيدار) يدفعهم بعيداً عنه. وكان يحوم حولهم الأب (إميرتون) دون أن يقدم لهم يد العون. ولعدة دقائق استحوذ الصراع على اهتمام السيد (بارنستابل)، حيث كان (سيدار) يترنح من المحاولات الدائبة للتغلب عليه. بعدها لاحظ أن ثمة يوتوبيين آخرين، يهرولون أسفل المنحدر ليشاركوا في الصراع المحتدم، حيث هبطت بهم الطائرتان الأخرتان. وقد أدرك السيد (كاتسكيل) وصول هذه التعزيزات في اللحظات ذاتها التى أدرك فيها

---

(١) (كاتسكيل) و(بينك) و(موش) (المترجم).

السيد (بارنستابل) وجودهم. ثم تناهى إلى سمع السيد (بارنستابل) صيحات السيد (كاتسكيل): "انسحبوا! انسحبوا إلى القلعة!". راح الأرضيون يبتعدون بلا نظام من حول (سيدار) الطويل القامة ذى الشعر الأشعث، ترددوا لهنيهة وبدأوا فى السير أولاً ثم ركضوا إلى الخلف، فى اتجاه القلعة. استدار (ريدلى) – وبتعمّد وإصرار – أطلق الرصاص على (سيدار)، الذى أمسك صدره بيده المتشنجة ووقع على الأرض متخذاً وضع الجلوس. انسحب الأرضيون إلى بداية الدرج، الذى يوّصل – عبر الممر ذى الأقواس – إلى داخل القلعة، ووقفوا هناك يلهثون ويرتعدون وبهم الكثير من الكدمات والخدوش. وعلى بعد خمسين ياردة، كان (سيربنتين) يرقد بلا حراك، والطيار الذى أصابه (بارالونجا) يئن ويتلوى على الأرض، أما (سيدار) فقد كان لا يزال جالساً على الأرض، وصدره ملطخ بالدماء، وكان يحاول تحسس ظهره. وقد جاء خمسة من اليوتوبيين ليساعدوهم.

قالت الليدى (ستيلا) وقد أصبحت فجأة بجانب السيد (بارنستابل): "ما كل هذه الطلقات النارية؟".

وتساءلت الآنسة (جريتا جراى): "هل تمكنوا من الإمساك برهائنهم؟" جاء السيد (بورليه) إلى جانب الجدار على بعد ما يقرب من ياردة واحدة، وقال: "يا إلهى! ما كان يجب أن تجرى الأمور

على هذا النحو! ما الذى حدث حتى تفشل الخطة؟ أجيبينى يا ليدى (ستيلا)".

قال السيد (بارنستابل): "لقد حذرت اليوتوبيين".

رد السيد (بورليه) بصوت ينم عن عدم التصديق: "أنت.. حذرت.. اليوتوبيين!".

خرج السيد (كاتسكيل) من الممر ذى الأقواس، وجاء صوته الحانق: "إنها الخيانة التى لم أعمل لها حساباً".

(٤)

لبعض دقائق لم يحاول السيد (بارنستابل) الهروب من الخطر الذى أصبح يطبق عليه من كل جانب. فقد اعتاد أن يعيش حياة آمنة تماماً، وبالنسبة له – كما بالنسبة للكثير من الطبقات التى بلغت أعلى مراتب الرقى – فإن القدرة على الحدس بالخطر الشخصى القريب، كانت بالغة الضعف. وكان يفضل مجرد المشاهدة دون التدخل فى الأحداث، بحكم كل من طبيعته وخبرته فى الحياة.

وقف السيد (بارنستابل) فى هذا المكان، وكأنه ينظر إلى نفسه، كشخصية رئيسة فى دراما عظيمة ولكنها كئيبة. جاءت فكرة الهروب إلى ذهنه متأخرة عن الموعد المناسب، وبطريقة مترددة وتبريرية.

قال بصوت عال: "يُطلق عليه النار كخائن! يُطلق عليه النار كخائن!".

كان الجسر المعلق على الممر الضيق مازال موجوداً هناك، ومن ثم يمكنه أن يذهب إليه فى التو واللحظة ليهرب ولكن عليه أن يكون أسرع من الآخرين. وكان من الذكاء بحيث لا يندفع إلى الجسر، لأن هذا سوف يجعلهم يركضون خلفه. سار على طول الجدار بخطوات متثاقلة، وتخطى السيد (بورليه) – الذى كان بدوره متحضراً بحيث لا يتدخل – فى قفزة سريعة كسب بها الخطوات التى توصله إلى القلعة. ثم توقف ساكناً للحظات ليقيّم الموقف. وكان (كاتسكيل) مشغولاً بإعداد الحراسة على البوابة الرئيسية. وربما لم يكن قد أدرك بعد أن الجسر الصغير يمكن أن يعد وسيلة للهروب. أو لعله اعتقد بأن السيد (بارنستابل) متاح للعقاب فى أى وقت، يناسب ظروف (كاتسكيل). وهناك عند أعلى المنحدر راح اليوتوبيون يحملون القتلى والجرحى من رجالهم.

اعتلى السيد (بارنستابل) الدرجات بتؤدة، وكأنه مستغرق فى التفكير ثم توقف عند القلعة لبضع ثوان واضعاً يديه فى جيبى بنطاله، كما لو كان يستعرض المشهد الذى أمامه. بعدها استدار إلى الدرج اللولبى الذى يؤدى إلى ما يشبه غرفة الحراسة بأسفل. وعندما تأكد بأنه أصبح خارج مجال رؤية الأرضيين، راح يتحرك ويفكر بسرعة بالغة. بدت له غرفة الحراسة محيرة، فقد كان لها خمسة أبواب، كل منها – ما عدا الذى دخل منه للتو – ربما تؤدى إلى الدرج. وأمام أحد هذه الأبواب، كومة من صناديق التعبئة النظيفة. وقد استبعد (بارنستابل) هذا الباب، ليتبقى ثلاثة أبواب يختار فيما بينها. وفى كل الأحوال، هناك – خلف كل باب –درجات صخرية تنزل إلى أرض مستوية خارجية فى شكل نصف دائرى. توقف متردداً أمام الباب الثالث، الذى أحس بتيار هواء بارد يأتى منه. بكل تأكيد فإن هذا يعنى أن هذا المكان يؤدى مباشرة إلى المنحدر الصخرى الشاهق. الذى يطل على البحر، أو من أين يأتى الهواء البارد؟ بكل تأكيد هذا هو التعليل الوحيد. فهل عليه أن يغلق الأبواب التى فتحها؟ كلا! فليدعها كلها مفتوحة.

وقتئذ سمع صوت قرقعة تأتى نازلة الدرج وغالباً قادمة من القلعة، فأسرع بالهبوط فوق السلالم الحجرية متوخياً السكون، ثم توقف للحظات عند ركن مسطحة الدرج. لقد كان مضطراً للتوقف، والتنصت

على تحركات مطارديه. ثم سمع (ريدلى) يصيح: "سيدى! هذا هو الباب الموصل إلى الجسر" وعندها جاءه صوت (كاتسكيل) يرد قائلاً: "صخرة تاربيان"[1] وقال (بارالونجا) "بكل تأكيد! فلا داعى لإهدار ذخيرتنا؟ هل أنت على يقين يا (ريدلى)، بأن هذا الباب يؤدى إلى الجسر؟".

هرولت الأقدام داخل حجرة الحراسة، ثم نزلت فوق درج آخر. همس السيد (بارنستابل): "تأجيل تنفيذ الحكم بالإعدام" وبعدها سكت مذعوراً. لقد وقع فى المصيدة! إذ كان الدرج الذى نزلوا عليه، هو المؤدى إلى الجسر! إنهم سوف يهبطون إلى حيث الجسر، وبمجرد وصولهم إلى هناك فسوف يتبينون أنه ليس على الجسر، أو على السلالم التى تقع فى الجانب الآخر ومن الوادى الضيق، وهذا يعنى أنه لم يهرب بعد. حينئذ سوف يمنعون الخروج من هذا الطريق، بغلق كل الأبواب ووضع حراسة، ثم يعودون إلى القلعة، ويعدون أنفسهم لمطاردته وقتما يشاءون. ما الذى كان يقوله (كاتسكيل)؟ صخرة تاربيان؟ يا له من أمر مرعب! وراح يقول لنفسه يجب ألا يمسكوا به حياً أبداً، لسوف يحارب كفأر دُفع به إلى أحد الأركان، وسيجبرهم على إطلاق الرصاص عليه. استمر السيد

(١) صخرة شاهقة الارتفاع كان يلقى من فوقها المحكوم عليهم بالإعدام فى زمن الرومان (المترجم).

(بارنستابل) فى النزول على السلالم. وأصبح المكان مظلماً ثم عاد الضوء من جديد، وانتهت السلالم إلى قبو ضخم، والذى ربما يكون قد استخدم من قبل، كمخزن للعتاد الحربى أو كخندق. لقد كان مضاءً بطريقة جيدة بنافذتين مفتوحتين ومحفورتين فى الصخر. أما فى الوقت الحاضر، فإن هذا القبو يستعمل كمخزن للمؤن. وعلى أحد الجوانب كانت ثمة مجموعة من القنانى الزجاجية، مصطفة على رفوف، ربما استخدمت – على الأرجح – لتعتيق النبيذ فى اليوتوبيا. وعلى الجانب الآخر كانت هناك بعض عبوات الحفظ ذات أشكال مكعبة، ملفوفة فى أوراق ذهبية. رفع (بارنستابل) قنينة زجاجية من رقبتها، ووجد أنه يمكن استخدامها كهراوة مؤثرة. وراودته فكرة أن يصنع ساتراً من عبوات التعبئة فى مدخل القبو. ويقف خلفها، ويضرب مطارديه بهذه الهراوات الزجاجية بمجرد دخولهم! وسوف يغرقهم النبيذ ويحطم جماجمهم الزجاج. ولكن يلزم وقت كاف لعمل هذا الساتر. وبدأ العمل بأن اختار ثلاث قنانى وحملها إلى المدخل، بحيث تكون فى متناول يده وحينئذ – وكأنما بوحى إلهام ما – نظر إلى النافذة. وأرهف السمع عند مدخل الدرج لبعض الوقت، ولم يأت إليه أى صوت من أعلى. كوّر جسمه داخل تجويف النافذة السميك، وأخذ يتلوى دافعاً بنفسه إلى الأمام، ليرى خارج النافذة وما فوقها وما تحتها. كان المنحدر الصخرى الشاهق إلى أسفل يكاد أن يكون

عمودياً. لو أمكنه أن يقفز إليه ويصل إلى التيار المائى الهادر، الذى يبعد نحو ألف وخمسمائة قدم، لاستطاع النجاة. وكان الجرف شديد الإنحدار مكوناً من طبقات صخرية رسوبية تكاد أن تكون رأسيّة، تبرز إلى الأمام أحياناً، وتميل إلى الخلف أحياناً أخرى. وثمة دعامة ضخمة تخفى – تقريباً – كل الجسر، ما عدا الجزء الأخير منه، الذى ينخفض عن مستوى الفتحة التى ينظر من خلالها السيد (بارنستابل)، بنحو عشرين أو ثلاثين ياردة، فجأة ظهر السيد (كاتسكيل) فوق هذا الجسر، وبدا جسمه صغيراً للغاية وبعيداً، كان يمعن النظر فى الدرج الصخرى الذى يقع خلف الجسر. سحب السيد (بارنستابل) رأسه إلى الداخل بسرعة. ثم أخرج رأسه من جديد متوخياً الحرص الشديد. إلى العمل! لم يعد ثمة وقت. هكذا حدّث (بارنستابل) نفسه. ففى شبابه، قبل أن تجعل الحرب العظمى السفر نادر الحدوث وغير مريح، قام السيد (بارنستابل) بتسلق الجبال فى سويسرا، كما كانت له بعض الخبرات فى (كمبرلاند) و(ويلز).

راح يتفحص بدقة الصخور القريبة منه، بنظرة الخبير المتمرس. كانت تقطعها سطوح مستوية متحدة تكاد أن تكون أفقية، وتتخللها عروق من مادة بلورية بيضاء – والتى رجح أن تكون كربونات الكالسيوم المتبلورة – قد تعرضت لعوامل التعرية الجوية، أكثر من المواد الأخرى للصخور، ومن ثم شكّلت سلسلة من الأخاديد

الأفقية غير المنتظمة. بقليل من الحظ، قد يكون من الممكن أن يزحف على طول المنحدر الصخرى، ثم يستدير حول الدعامة الضخمة، ويتسلق بسرعة على يديه وركبتيه إلى الجسر. وقتئذ واتته فكرة أكثر مدعاة للأمل، وهى أن يصل إلى أول فجوة كبيرة فى المنحدر الصخرى، وأن يتمدد داخلها، ويظل هناك حتى يفرغ الأرضيون من تفتيش القبو الذى خرج منه. وبعد أن ينتهوا من البحث، ربما يتمكن من الزحف إلى القبو من جديد. وحتى لو نظروا من نافذة القبو فلن يروه. وبافتراض أنه ترك بعض آثار لأصابعه أو لخطواته فوق الفتحة التى خرج منها، فإنهم سيظنون إما أنه قد قفز أو سقط – بغير إرادته – فوق الجرف شديد الانحدار، وإلى الوادى الضيق بالأسفل. لكنه في البداية فإن ما ينوى عمله يجب أن يتم بحرص بالغ، على الرغم من أنه سوف يبعده عن القنانى التى قرر استعمالها كأسلحة. وكانت فكرة الاختباء داخل فجوة المنحدر الصخرى، قد استحوذت على خياله تماماً. خرج من فتحة نافذة القبو بحذر شديد، ووجد بروزاً فى الصخرة القريبة، استطاع أن يمسكه بيده، ثم رفع قدميه ليجد لهما موضعاً فوق حافة ناتئة، وهكذا بدأ الزحف إلى حيث الفجوة الكبيرة فى المنحدر الصخرى.

بيد أن صعوبات غير متوقعة واجهته، إذ كان هناك – على بعد نحو خمس ياردات من النتوء الذى يمسك به – شق كبير فى

الصخور. لذلك كان عليه أن يتسطح على بطنه ويعتمد على قدميه فى الزحف. وقد ظل ساكناً على هذا الوضع لبعض الوقت، بعدها واجهته صعوبة أخرى، فقد انكسرت كتلة من كربونات الكالسيوم المنحلة تحت ثقل جسمه، بصوت مزعج للغاية. لكن لحسن الحظ فإن أصابعه تشبثت بنتوء في الصخرة، وظلت إحدى قدميه فى موضع ثابت ولم تتحرك قيد أنملة.

تناثرت بلورات كربونات الكالسيوم المنفصلة، على سطح الصخرة محدثة صوتاً استمر لبعض الوقت ثم سرعان ما توقف، وساد السكون من جديد. وسقطت هذه البلورات إلى أسفل حيث الهوة السحيقة. بقي لدقائق، فاقداً الإحساس وليست لديه قدرة على الحركة، وكأنما أصيب بالشلل.

همس السيد (بارنستابل) لنفسه: "أنا لست فى وضع جيد". وأخذ يكرر هذه العبارة. تشبث بالنتوء الصخرى – دون أن يحدث أى صوت – وأخذ يصلى. وبذل مجهوداً مضنياً ليستمر فى زحفه عبر المنحدر الصخرى، إلى حيث الفجوة الضخمة، التى قرر الاختباء فيها. كان قريباً جداً من هذه الفجوة، عندما تناهى إلى سمعه صوت خافت، لفت نظره إلى حيث نافذة القبو التى خرج منها، وهناك كان (ريدلى) يُخرج وجهه منها ببطء شديد وحذر بالغ، بعينيه

الحمراوين المروعتين، بين ضماداته البيضاء التى تكاد أن تغطى وجهه.

(٥)

فى البداية لم ير السيد (بارنستابل)، ولكن عندما لمحه سحب رأسه بسرعة إلى الداخل وقال: "يا إلهى!". ثم توالت بعض الأصوات تقول كلمات مبهمة لا يمكن تمييزها. غريزة عجيبة غير مناسبة للموقف، دفعت السيد (بارنستابل) للتوقف ساكناً دون حراك، على الرغم من أنه كان يمكنه أن يكسب عدة خطوات ليستقر فى المخبأ الذى اختاره، ثم ظهر السيد (كاتسكيل) فى فتحة النافذة ومسدسه الآلى فى يده، ولبعض لحظات نظر كل منهما للآخر فى صمت.

صاح السيد (كاتسكيل)، وإن كان صوته يشى بعدم نيته فعل ما يقول:"ارجع إلى هنا وإلا أطلقت عليك الرصاص". بعد عدة ثوان من التفكير، رد عليه السيد (بارنستابل) قائلاً: "أطلق الرصاص!".

رفع السيد (كاتسكيل) رأسه بعيداً عن النافذة، ليطل على الوادى تحتهم، المغلف بضباب أزرق يخفيه عن الأنظار، ثم قال: "هذا ليس ضرورياً، إذ علينا أن نحافظ على الذخيرة التى معنا". قال السيد (بارنستابل): "بل ليس لديك الشجاعة الكافية للقيام بذلك!". رد

عليه السيد (كاتسكيل) بحدة: "إننى أستطيع أن أفعل أى شئ" قال السيد (بارنستابل): "كلا! فأنت – فى الأساس – رجل متحضر". قطّب السيد (كاتسكيل) جبينه ونظر إليه دون عداوة وقال السيد (بارنستابل) بعد أن فكر ملياً فى الأمر: "إن لك خيالاً خصباً للغاية. وتكمن مشكلتك فى أنك تعلمت بطريقة مبالغ فيها أكثر من اللازم. إن جذورك أنجلوسكسونية كما التحقت بالنشاط الكشفى وأصبحت موهوباً فى الاستكشاف والمراقبة. إن الاكتشاف والبحث هما كل ما فى رأسك. لو كنت قد التحقت بمدرسة (أيتون) كما فعلت أنت، ربما كنت سأصبح مثلك". قال السيد (كاتسكيل) مصححاً: "بل مدرسة (هارو)" عقّب السيد (بارنستابل) قائلاً: "إنها مدرسة عامة نمطية الطابع وتختص بثقافة وتقاليد وطباع الحياة فى الضواحى. ويصفف الطلبة بها شعورهم بطريقة غريبة ويرتدون قبعات من القش. كان يجب أن أخمن أنك خريج (هارو). ولكن الأمر العجيب أننى لا أكن لك أى حقد. وأعتقد أنك إذا طرحت أفكاراً مقبولة، فسوف تكون غير ما أنت عليه الآن. ولو كنت أنا ناظر مدرسة هارو..، ولكن الأمر متأخراً للغاية".

ابتسم السيد (روبرت كاتسكيل) بلطف ومال بجسمه إلى جانب ثم أخذ ينظر إلى الوادى الضيق بأسفل وقال: "الأمر كما تقول".

تحسس السيد (بارنستابل) نتوءاً فى الصخر بالقرب من الأخدود وحاول أن يستقر عليه بقدم واحدة. قال السيد (كاتسكيل): "لا تتحرك قيد أنملة. فإننى لن أطلق عليك الرصاص". جاء صوت من الخلف – لعله صوت اللورد (بارالونجا) – يقول بأنه يمكنهم رجم السيد (بارنستابل) بالصخور من أعلى القلعة. وشخص آخر – ربما كان (ريدلى) عبر عن موافقته الحماسية بهذا الاقتراح. قال السيد (كاتسكيل) وهو ينظر من فوق كتفه في ارتياب: "ليس بدون محاكمة تراعى الإجراءات القانونية". كانت تعبيرات وجهه غامضة لا تنبئ بأن أمراً محدداً قد قرره. لكن ثمة فكرة راودت السيد (بارنستابل) بأنه لا ينوى قتله. ولعل السيد (كاتسكيل) يريده الآن أن يهرب إلى حيث اليوتوبيين، ليتوصل معهم إلى تسوية ما.

قال السيد (كاتسكيل): "سيدى! سوف نحاكمك بالتأكيد. إننا ندعوك للظهور من مخبأك والمثول أمامنا..". وراح يرطب شفتيه بلسانه ويفكر ملياً ثم استطرد قائلاً: "... سوف تعقد المحكمة فى التو واللحظة. وقد أظهرت عيناه البنيتان المتقدتا الذكاء – وبسرعة بالغة – مدى إدراكه لوضع السيد (بارنستابل). رفع السيد (كاتسكيل) عينيه إلى حيث الجسر الصغير. وقال: "لن نضيع الوقت فى الإجراءات، وسوف نحكم عليك بالموت. وأعتقد أنه لن تمر ربع ساعة حتى يتحدد موقفك القانونى ومصيرك المحتوم..". تريث قليلاً ثم نظر إلى

أعلى محاولاً أن يرى قمة الجرف شديد الإنحدار وقال: "... ربما سوف نرجمك بالصخور أو نلقى بك من أعلى". رد السيد (بارنستابل) بصوت ينم عن سرعة الفطنة فى الخطابة: "الرحمة! وإذا سامحتمونى، فسوف أذهب على الفور للبحث عن مكان أكثر ملاءمة..". ظل السيد (كاتسكيل) ينظر إليه فى حدة. استطرد السيد (بارنستابل) قائلاً: "... لم أعهدك فاتر العزيمة بهذا الشكل. ولو كنت ناظر مدرستك لتغيرت الأمور برمتها. وشكراً لك على هذه الخمس عشرة دقيقة الزائدة التى منحتها لى. وإذا كان الأمل ضعيفاً..". قاطعه السيد (كاتسكيل) قائلاً: "بالضبط!". واتضح أنهما يفهمان بعضهما البعض.

أكمل السيد (بارنستابل) الدخول إلى مخبأه بعد أن التف حول منعطف فى الصخر، وكان السيد (كاتسكيل) لا يزال يحدق فى قمة الجرف، وصوت اللورد (بارالونجا) مسموعاً وإن كان خافتاً، يؤازر فكرة الرجم الفورى للسيد (بارنستابل) بالصخور.

(٦)

ليس من السهولة اكتشاف تلك الأساليب التى يعمل بها الذهن البشرى. فقد تغير مزاج السيد (بارنستابل) من الإحساس باليأس إلى

الشعور بالابتهاج، وتحول رعبه المرضى من تسلق هذه الصخرة الشاهقة الارتفاع، إلى تأكد شبه صبياني بأنه سوف ينجح. كما ذهب عنه الشعور، بأنه على وشك الموت الفورى. وقد أعجبته مغامرته هذه، بل أصبح يستمتع بها، دون التفكير فيما يمكن أن تسفر عنه. وصل إلى حافة دعامة الجسر فى وقت قياسى. على الرغم من أن ذراعيه بدأتا تؤلمانه بشدة، وفجأة تعرض لصدمة لم تكن فى الحسبان. فقد وضح له فى تلك اللحظة، منظراً كاملاً للجسر فوق الممر الضيق. وكان الجرف الصخرى الذى يسير عليه، لا يؤدى إلى الجسر على الإطلاق! إذ كان يمتد نحو ثلاثين قدماً أسفله. ومما زاد الطين بلة، أن بينه وبين الجسر، كان ثمة أخدود[1] وصدع[2]، لم يستطع تقدير عمقهما. وقتئذ ندم للمرة الأولى، على أنه لم يستقر فى القبو ويقاتل هناك دفاعاً عن حياته. استبدت به الحيرة لعدة دقائق، بينما زادت آلام ذراعيه، ثم إستثاره من فتوره وتراخيه وعدم قدرته على التصرف، ما بدا له ظلاً فوق الصخور لطائر سريع الحركة، كان – على الأرجح – عائداً إلى عشه. راوده الأمل فى ألا تتم مهاجمته بواسطة الطيور، فقد قرأ قصة تدور حول هذا الأمر، ولكنه لم يجد فى أحداث القصة ما يستحق التفكير فيها، فى هذه الظروف.

---

(١) ما ينتج من أثر بسبب هطول الأمطار (المترجم).

(٢) شق فى الصخر (المترجم).

حينئذ سمع صوت اصطدام مدو من مكان علوى. وعندما رفع نظره إلى أعلى، وجد أن هناك كتلة صخرية ضخمة، قد ارتطمت بأحد النتوءات الصغيرة القريبة من رأسه، ثم انشطرت إلى عدة أجزاء. من هذه الحادثة، طرأ على ذهنه أمران، الأمر الأول: أن المحكمة أصدرت قراراً بأن يُرجم حتى الموت، ثم راحت تنفذه على الفور، وإن لم تنقض بعد المهلة التى منحها له السيد (كاتسكيل). والأمر الثاني: أنه يمكن رؤيته من أعلى، ومن ثم يصبح هدفاً سهلاً. لذلك استأنف السعى – بنشاط بالغ – فى اتجاه المخبأ حيث الخندق. اتضح له أن الأخدود كان أفضل مما تصور، له جوانب رأسية من الصعب صعودها، ولكن يمكنه النزول من فتحته، التى بدت وكأنها معلقة فى حضن الصخر. وفى الأسفل – ربما على بعد نحو مائة قدم – كان هناك بروز عريض، يمكن اتخاذه حاجزاً للحماية من قطع الصخور التى تندفع من أعلى، إلى جانب أنه يمكنه أن ينبطح عليها إذا أراد. وبالتالى يستطيع أن يريح ذراعيه. وبدون أى إضاعة للوقت، أخذ ينزل إلى هذا البروز العريض، وراح يستمتع بالإحساس الرائع بأنه لا يتعلق بأى شئ. وفى موقعه الجديد، أصبح غير مرئى لمطارديه الأرضيين، كما تأكد أنه لا يمكنهم الوصول إليه.

وفى خلف مخبأه، كان ثمة مجرى صغير من المياه، فشرب منه. وأخذ يفكر فى الطعام، وراح يندم على أنه لم يحمل معه بعض

المؤن من مخزن القبو. فقد كان بإمكانه أن يفك إحدى هذه العبوات الملفوفة بالأوراق الذهبية اللون ويأخذ محتوياتها معه، أو أن يحمل في جيبه قنينة نبيذ صغيرة، فشرب النبيذ سيكون عاملاً مشجعاً له في هذا الموقف. لكن التفكير في كل هذه الأمور، لن يفيد بشيء وقد فات أوان القيام بها. استمر لمدة طويلة - كما خيّل إليه - جالساً فوق البروز العريض الأثير، وراح يمعن النظر بحرص شديد إلى أسفل. إن الطريق المنحدر يبدو طويلاً، وبدت جوانب الصدع ملساء للغاية ومتقاربة، بحيث يمكنه أن ينزل وظهره على أحد الجوانب وقدماه متشبثان بالجانب الآخر المقابل. نظر السيد (بارنستابل) إلى ساعة معصمه، فوجد أن الساعة لم تتعد التاسعة صباحاً، التاسعة إلا عشر دقائق تقريباً. لقد استدعاه (ريدلي) قبل الخامسة والنصف، وفي السادسة والنصف كان يقوم بتوصيل الإفطار إلى الفناء. وظهر (سيربنتين) و(سيدار) في نحو الثامنة صباحاً، وفي غضون عشر دقائق لقي (سيربنتين) مصرعه، وبعدها حدث الهروب ثم التعقب. ياللسرعة التي تمت بها الأمور! إن اليوم بطوله لازال أمامه. وسوف يستأنف النزول في التاسعة والنصف، وحتى ذلك الوقت عليه أن يستريح. كما أنه من اللامنطقي أن يشعر بالجوع الآن. ولم يمض على تناوله الإفطار سوى عدة ساعات. لقد بدأ من جديد قبل التاسعة والنصف. ولمسافة مائة قدم أو نحوها فكان الأمر سهلاً، وبدون أن

يدرك بالحس وبالعقل، راح الأخدود يتسع بعد مائة قدم، وتبين هذا عندما وجد نفسه وقد زلت قدمه. أخذ يبذل جهداً عضلياً خارقاً لعشرين قدم أخرى ليحافظ على توازنه، ثم سقط بكل جسمه لمسافة عشرة أقدام أخرى ليصطدم بصخرة، ويمنعه عن المزيد من السقوط بروز أعرض قليلاً من الذى فى الأعلى.

سقط السيد (بارنستابل) على هذا البروز العريض فاهتز جسمه بعنف نتيجة الصدمة، ولكنه لحسن الحظ تدحرج إلى داخله، وليس إلى خارجه حيث العمق السحيق. وقد أصيب بعدة كدمات ولكن لم تحدث له إصابات خطيرة.

وهمس لنفسه قائلا: "إنه حظى! مازال حظى مواتياً".

استراح لبعض الوقت، وأحس بالثقة فى أن الأمور تسير على ما يرام، ثم هيأ نفسه لتفحص المرحلة التالية لهبوطه، راوده الشك عندما اكتشف أن الصدع – الذى يقع أسفل البروز العريض الذى استقر عليه – كان من المستحيل تسلقه. إذ كان يحيط بالصدع عدة صخور رأسية ملساء على كل جانب، بارتفاع عشرين ياردة على الأقل وبعرض ستة أقدام. وفكر فى أن يقفز إلى أسفل فى وثبة واحدة، لاجتياز الصدع. ولكنه أدرك أنه إذا فعل هذا، فسوف لا يمكنه أن يعود إلى مكانه. لم يمكنه تصديق ذلك، فقد بدا الوضع

سخيفاً للغاية. ثم أخذ يضحك كما قد يضحك شخص ما عندما يعود بعد يوم غياب، فلا تتعرف عليه أمه! وفجأة توقف عن الضحك. وراح يسترجع كل نقطة فى مغامرته التى قام بها، ويتحسس الصخور الملساء على جانبيه. قال لنفسه والعرق البارد يتصبب من جبينه: "إن هذا منافٍ للعقل". فلا يوجد مكان يمكن الذهاب إليه بعيداً عن هذا الركن الذى وجد نفسه فيه، يعانى من الألم، ولا يجد مخرجاً منه، وكان لا يمكنه الصعود إلى أعلى ولا العودة من حيث أتى. لقد وقع فى مصيدة، وجافاه الحظ تماماً وتخلى عنه.

(٧)

وفى منتصف النهار حسبما أشارت عقارب ساعة معصم السيد (بارنستابل)، كان ينزوى فى مكانه المنعزل هذا، يشبه رجلاً مرهقاً يعانى من مرض غير قابل للعلاج، يجلس على كرسيه ذى المسندين، فى فترة خف فيها الألم قليلاً، وإن كان بصفة مؤقتة. وهو لا يمكنه عمل أى شئ، كما أنه ليس لديه أمل فى أى تحسن. لم تكن لديه حتى فرصة واحدة من عشرة آلاف فرصة، أن يحدث أمر ما يحرره من هذه المصيدة التى سعى إليها بقدميه.

كانت هناك بعض قطرات الماء المتساقطة من خلفه، ولكن لم يكن ثمة طعام من أى نوع، حتى ولو بعض أوراق النباتات التى يمكن قطفها ومضغها. وإذا لم يتمكن من القفز ليهبط فوق الممر الضيق، فسوف يظل هذا الوضع حتى يموت جوعاً، وربما يكون الجو بارداً أثناء الليل، ولكن ليس إلى الحد أن تقتله البرودة. لقد جاء إلى هذا المكان الموحش بسبب صحافة لندن المضطربة حيث عمله، تاركاً الأماكن الحبيبة إلى قلبه فى (سيدنهام) حيث مقر سكنه. يا لها من نهاية مروّعة. تلك التى وصل إليها بعد إنجازاته الرائعة مع الفريق الرياضى الأصفر الذى كان يتسلق الجبال فى (كامبرويل) و(فيكتوريا) و(هاونسلو) و(سلوف) وبعدها اليوتوبيا، هذا الفردوس الجبلى. وراحت مئات الومضات الخاطفة الأخاذة والمثيرة تتوافد على ذهنه، لعالم من السعادة الحقيقية والنظم التى يحترمها الجميع ورحلة الطائرة البالغة الطول، التى طار فيها حول نصف العالم.. أما الآن فالموت. إن فكرة اختصار المعاناة بأن يلقى بنفسه إلى أسفل حيث المجهول، لم تجد قبولاً لديه. ولسوف يبقى فى مكانه هذا، ويعانى – أياً كان نوع المعاناة – حتى النهاية، وعلى بعد ثلاثمائة ياردة تقريباً، كان رفقاؤه الأرضيون أيضاً، ينتظرون مصيرهم. إنه أمر عجيب، يفتقر إلى الواقعية. وعاجلاً أو آجلاً، فإن البشر عليهم أن يرقدوا ويعانوا، ويجب أن يفكروا – خلال حياتهم – بسرعة ثم

بسرعة مجنونة، ثم ببطء وببطء جداً، ويخمد كل هذا إلى أن يصلوا إلى عدم التفكير على الإطلاق.[1]

وأخذ السيد (بارنستابل) يعمل ذهنه، بأنه عموماً يفضل الموت على هذا النحو، بدلاً من الموت بشكل مفاجئ.

إنه أمر جدير بالاهتمام أن يواجه الإنسان الموت وجهاً لوجه لمدة من الزمن، وأن يتسع الوقت له ليدرك معنى الحياة والموت فى ذهنه. وأن يمعن التفكير فيما أمضى من حياته بتجرد واستقلالية، بعد أن أصبح غير مرتبط بها ولا يمكنه تغيير أى شيء فيها. وقتئذ كان ذهنه صافياً وهادئاً. وتملكته حالة من السكون تغشى ذهنه، مثلما تكون السماء صافية على موطنه فى فصل الشتاء. لقد كانت ثمة معاناة تنتظره، وهو يدرك هذا لكنه لم يكن مقتنعاً أنها ستكون معاناة لا تحتمل أو لا تطاق. وإذا كان مخطئاً فى هذا، فالهوة تفغر فاهاً لالتقاطه. وفى هذه الحالة، فإن هذا الرف الصخرى الذى يستقر عليه، سيكون أفضل فراش يمكنه التمدد فوقه وإسلام الروح. أى يعد سريراً مريحاً مناسباً للموت! لكن المشكلة تكمن فى الموت جوعاً، فهذا أمر غير طيب على الإطلاق، فقد قرأ سابقاً أن الجوع والألم لا

---

(١) يلخص ويلز تفكير الإنسان منذ مرحلة الطفولة والشباب والشيخوخة ثم الوفاة (المترجم).

يمكن احتمالهما في اليوم الثالث، وبعدها يصبح الإنسان خائر القوى ولا يكاد يحس شيئاً. إن العذاب لن يماثل عذاب شخص يعاني من السرطان أو غصة الموت بسبب حمى مخية. إن كرب الموت جوعاً، لن يصل إلى مقدار عُشر العذاب في مثل الحالات الأخرى. حقاً سيكون وحيداً، ولكن هذه الوحدة لن تكون أكثر معاناة من أن يموت وحيداً على السرير في منزله. فهناك يأتي أشخاص ويقومون ببعض الخدمات والشعائر، لكن بدون أن يحدثوا أية تأثيرات في الوضع القائم. وفي النهاية فإن الإنسان يسير في طريقه وحيداً. بينما تضعف رويداً رغبتك في الكلام والحركة، وتخفت أصوات كل الناس من حولك. وأياً كان المكان، فإن الموت حدث شخصي يعانيه الإنسان وحيداً. إنه الرحيل منفرداً بمنأى عن الآخرين.

إن الشخص الأصغر سناً ربما يجد أن هذه الوحدة في ممر ضيق أمراً مروع، بيد أن السيد (بارنستابل)، راح يستدعي إلى داخل ذهنه، صحبة في شكل تخيلات تؤنس وحدته، فقد أحب أن يجري حديثاً أخيراً مع أولاده، وأن يهوّن على زوجته الأمر، ويجعلها في أحسن حالاتها الذهنية. لكن هذه الرغبات الوهمية كانت عاطفية وشعورية أكثر منها حقيقية. فعندما بدأ يتخيل أنه يتحدث مع أولاده، وجد نفسه يحس خجلاً يناسب موقفه. إذ أن أولاده يشبون عن الطوق بشخصيات مستقلة، وهم يكبرون إلى مرحلة المراهقة. وأخذ يشعر

أكثر وأكثر أن الحديث معهم بهذه الحميمية عن أمور حياتية، يمثل تعدياً على حقهم فى أن يكبروا وفقاً لمقاييس يضعونها بأنفسهم وبالتناغم مع مقتضيات عصرهم. وأنهم بالتأكيد يشعرون أيضاً بالخجل منه، ذلك الخجل الذى يمثل موقفاً دفاعياً. ربما بعد فترة، يتذكره أولاده كرجل مختلف عما هو عليه بالفعل. يتذكروه على غير حقيقته. ولكنه كم يتمنى أن يعلموا ما الذى حدث له. إن التفكير فى هذا يجعله مكدر الخاطر. لا شك أنه سيحتفظ بصورته الذهنية الجيدة لديهم، وكذلك سيكون الأمر نافعاً لنمو شخصياتهم، إذا لم يفكروا فى أنه هرب وتخلى عنهم أو أصيب فى عقله أو رحل مع أشخاص أشرار. فلو انتابتهم هذه الظنون، فإنهم سيكونون قلقين وخجولين – دون أى مبرر – أو يحاولون البحث عنه واكتشاف سر غيابه، وسيكون هذا أمراً مؤسفاً. كل إنسان سوف يموت. وهناك الكثير من الرجال الذين ماتوا، كما هو فى طريقه ليموت. لقد سقطوا فى أماكن غريبة، وفقدوا فى كهوف مظلمة، وألقى بهم فى جزر قفراء ومهجورة، وضاعوا فى مجاهل استراليا، وسجنوا وتركوا ليلقوا حتفهم. إنه من الأفضل للإنسان، أن يموت دون ألم مبرح أو إهانة وتحقير. ثم أخذ يفكر فى الآلاف ممن علقهم الرومان على الصلبان.

كم كان عدد جيش سبارتاكوس[1]، ثمانية آلاف أو عشرة آلاف والذين قتلوا بهذه الطريقة الوحشية على طول طريق "أبيان"[2]؟، والزنوج الذى تم تقييدهم وتعليقهم بالسلاسل، حتى يلاقوا الموت جوعاً. وأنواعًا كثيرة ومتنوعة من مثل هذه الميتات المروعة. إن الذين يعوزهم الخيال الواسع، يصدمون حينما يفكرون فى هذه الميتات، فهم يظنون أن الأمر مرعبا، وإن كانت الحقيقة أن تخيلها يكون أصعب من معاناة سكراتها بالفعل. إن الأمر لا يعدو أن يكون بعض الألم أكثر أو أقل. ومهما كان أسلوب الموت، بالصلب أو بالعجلة المسننة[3] أو بالكرسى الكهربائى أو راقداً مستسلماً على الفراش وأنت تعانى من المرض، فإن الأمر لا يعدو كونك ستموت وليس أكثر من ذلك.

لقد وجد السيد (بارنستابل) أنه من الممتع أن يفكر الإنسان بجرأة فى مثل هذه الأمور. وشعر بالإرتياح من قدرته على ضبط النفس، وعدم وصوله إلى حالة من الاهتياج الشديد. كما تعجب من أنه لا يعير الأمر الكثير من الاهتمام، وهاهو يواجه الموت عن كثب،

---

(١) عبد رومانى قاد ثورة قام بها العبيد ضد الإمبراطورية الرومانية (توفى عام ٧١ قبل الميلاد) (المترجم).

(٢) من أشهر الطرق الممهدة التى أقامها الرومان الأوائل (المترجم).

(٣) آلة تعذيب استخدمت قديماً (المترجم).

ومع هذا لم تراوده أبداً فكرة الخلود، أو على الأقل أن الموت لن يكون النهاية. إن مما يستوجب السخرية، أن تكون متصلباً فى الرأى، وتقول بأن جزءاً من ضميره أو رغبته فى الحياة، لا يمكن أن يستمران على هذا الوضع. ولكنه وجد أنه من المستحيل تخيل كيفية تحقيق ذلك، مع الاستمرار فى الحياة. إنه أمر لا يمكن تخيله، ولا توقع حدوثه. ولكن لم يكن يخشى من دوامه. ولم يفكر أو يخاف فى احتمال توقيع عقاب عليه، أو إلحاق أذى به بعمل وحشى. لقد أثرت فيه الحياة بإهمالها غير المحدود، ولكنه لم يقتنع أبداً أنها قاسية شريرة. وكان هو ضعيفاً ومحدود القدرات وفى بعض الأحيان تافهاً، وقد عوقب على كل الأخطاء التى اقترفها، وكان يستحق هذا العقاب.

توقف عن التفكير فى موته هو شخصياً. وبدأ يتأمل فى الحياة بوجه عام، ومدى وضاعتها الحالية ورغبتها الوثابة لتحقيق منجزات كبيرة. ووجد نفسه يندم ويمتلئ بالمرارة، لأنه لم يتمكن من رؤية المزيد من عالم اليوتوبيا، والذى كان – بالعديد من المقاييس – يمثل نبوءة لما يمكن أن يصير عليه كوكب الأرض. لقد كان محبباً للقلب جداً أن يرى الأحلام البشرية تتجسد والمثل الإنسانية تسود، ولكن ما يندم عليه فعلاً أن هذه الرؤى تبددت بعيداً، عندما بدأ يتعامل معها ويتفحصها. لقد وجد نفسه يوجه أسئلة لا يجيبه عليها أحد، حول الأمور الاقتصادية والحب والصراع. وعلى أية حال، لقد كان سعيداً

بأنه استطاع رؤية ما أمكنه أن يراه بالفعل. وحررته هذه الرؤيا من الحياة الكئيبة التى بلا أمل – كما وصفها السيد بيف – وتجدد لديه الأمل فى أن تزدهر الحياة من جديد فوق كوكب الأرض، بصورة أفضل. إنها الآلام والصراعات المروعة لعام ١٩٢١. هذا ما وصل إليه العالم على كوكب الأرض بعد الحمى التى اجتاحته فلم تبق ولا تذر.(١) وهكذا سوف ينتهى عصر الاضطراب والفوضى فوق الأرض، بعد أن استنفد وقته. وكل الشكر لهذه الأخلاق القويمة التى مازالت كامنة – بطريقة غامضة – فى دماء الجنس البشرى.

وأخذ السيد (بارنستابل) يفكر فى مدى صعوبة موقفه، فها هو يجلس القرفصاء فى حفرة بالجرف، فوق مقر صخرى عظيم، على مسافة لا يمكن التسلق منها لأعلى ولا لأسفل، يتضور جوعاً، يرتجف من شدة البرودة ويعانى من التوتر والإنزعاج. ومع هذا كانت هذه الأفكار مريحة للغاية لذهنه المكدود.

يا له من أمر باعث على الكآبة له ولرفقائه من الأرضيين، إنهم فشلوا فى أن يرتفعوا لمستوى اليوتوبيا الراقى، الذى وصل إليه أهلها! فلم يقم أى واحد من الأرضيين بالاعتراض على التخيلات الصبيانية للسيد (كاتسكيل)، والطريقة الوحشية التى تصرف بها رفقاؤه. حتى أن

---

(١) يقصد الكاتب ويلات الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ – ١٩١٩) (المترجم).

الأب (إميرتون) ترأس الجانب المؤيد لبث الكراهية والدعوة للاضطهاد، يا له من قس مثير للنزاعات. وكم كان السيد (بورليه) جديراً بالشفقة بسبب ضعفه وعدم أمانته، فهو دائم الاعتراض، ولكنه لا يفعل شيئاً تجاه ما يعترض عليه. أما الآنسة (جريتا جراى) فهى عديمة الذكاء مثل بقرة جميلة ولكنها مولعة باكتساب الأشياء والعادات، ولا سبيل إلى فهمها، وهى طيّعة وتؤمن بضرورة خضوع المرأة للرجل. وأعتقد أن الليدى (ستيلا) ذات شخصية أفضل؛ ولكن لم يتم تكليفها بأى عمل. وفكر فى أن النساء لم يتم تمثيلهن جيداً فى هذه البعثة الأرضية، مجرد اثنتين، إحداهما: متلافة، والأخرى: غير فعالة. فهل هذه عينة ممثلة للمجتمع النسائى الأرضى؟ إن كل ما قام به الأرضيون تجاه اليوتوبيا، هو إعادتها – بأسرع ما يمكن – للعدوانية والعبودية، للقسوة وعصور الاضطراب والفوضى، التى ينتمون إليها. وفكر فى (سيربنتين) الرجل الذى يمثل قوة العلم و(سيدار) رجل الشفاء. لقد تم التخطيط لأخذهما كرهينتين لإشاعة حالة من الفوضى، وفشل الأرضيون فى هذا، ومن ثم قتلوهما أو حاولوا قتلهما.

كان هدفهم إعادة اليوتوبيا إلى الخلف، لكى تتساوى ظروفها مع تلك السائدة فوق الأرض. لقد كان من الممكن أن تصبح الأرض يوتوبيا، فردوسا أرضيا تحيط به هالة من المجد والبهاء، ويرفل فى ثياب من الرخاء والازدهار. ولكن قوّض كل شئ، تلك الحماقة

والمكر والضعف لرجال من أمثال (كاتسكيل) و(هنكر) و(بارالونجا) و(ريدلى) و(ديوبونت) ومن على شاكلتهم، بالإضافة إلى الضجيج الذى لا جدوى منه لرجال من أمثال (بيف) والرفض الذى لا يؤتى ثماراً لرجال كـــــ (بورليه). حقاً إن بعض الكتاب والمدرسين قاموا بمحاولات لإصلاح حال الأرض، ولكن سرعان ما طواها النسيان وذهبت أدراج الرياح.

مرة ثانية، وجد السيد (بارنستابل) نفسه يفكر فى صديقه القديم رجل التربية والتعليم مصنف الكتاب المدرسى الذى كان يعشق استشراف المستقبل، والذى راح ينادى باليوتوبيا، ويعمل جاداً من أجل نشر معتقداته ولكنه أصيب بالانهيار ومات حزيناً. لقد بشر باليوتوبيا طوال حياته. وتساءل: "هل مازال هناك مئات أو آلاف من هؤلاء المؤمنين باليوتوبيا فوق الأرض؟ وأى سحر كان يجمع بينهم!".

همس السيد (بارنستابل) لنفسه: "يا ليتنى كنت أستطيع أن أبعث برسالة لهم. لأقوى من عزيمتهم". إذ ها هى الفكرة قد صارت واقعاً. وعلى الرغم من أنه هو شخصياً سيموت جوعاً كوحش وقع فى مصيدة. فإن اليوتوبيا قد انتصرت وسوف تواصل انتصاراتها باضطراد. أما الجشعون ومحبو القتال والذين يضطهدون الآخرين والغوغائيين والرافضين والرعاع. وكل قصيرى النظر الذين يؤمنون

بالعنف بين البشر، سوف يلاقون الهزيمة فى نهاية الأمر. فهم لم ينعموا بالسعادة أثناء حيواتهم، إذ أنهم ينطلقون من إثارة إلى إثارة ومن إشباع قليل إلى تعب شديد، عبر مشاريعهم ونجاحاتهم، وحروبهم وأمجادهم، مجرد ومضات خاطفة سرعان ما تخبو. إن الأمور الحقيقية هى التى تبقى وتنمو، الحقيقة الدامغة والفكرة الواضحة،هى التى تستمر عاماً بعد عام وعصراً بعد عصر، تمضى ببطء لا يقهر، مثل الماس الذى يتكون فى الأعماق وسط الظلام وضغط الأرض، أو الفجر الذى يبزغ رويداً وسط جحافل من ظلام الليل، محاطاً بالأضواء الخافتة. ماذا سيكون مصير هؤلاء الأرضيين المساكين الذين يوجدون فى الأعلى هناك؟ إنهم يتمسكون بالحياة ويتعلقون بها بشدة، ربما أكثر منه. أما هو فإنه قد يظل فى هذا المكان، راقداً يتضور جوعاً لمدة عدة أسابيع تمر بطيئة جداً، بعدها سوف يومض فى ذهنه ومضة أخيرة، هى ومضة ما قبل الموت. لقد اختاروا وياللأسف – وبإرادة حرة تماماً – أن يقحموا أنفسهم فى معارضة مباشرة، ضد حكمة وقدرة اليوتوبيا. وحتى فى الوقت الحاضر، فإن القدرات الخلاقة لهذا العالم اليوتوبى، سوف تستخدم ضدهم. كان لا يزال السيد (بارنستابل) يشعر ببعض الندم غير المنطقى، إنه قام بخيانة (كاتسكيل) وأفسد عليه الكمين الذى نصبه لليوتوبيين الاثنين، (سيربنتين) و(سيدار). حينئذ إفتر ثغره عن

ابتسامة عندما أحس باقتناعه التام، بأنه لو تمكن (كاتسكيل) من أسر رهينتيه، فلربما استطاع الأرضيون السيطرة على اليوتوبيا. ودفعه هذا الاقتناع إلى القيام بنشاط فعال. لقد كانت صرخاته الضعيفة لليوتوبيين هى الحل الوحيد لمنع حدوث هذه الكارثة الوحشية[1].ولكن بفرض أنه لم يكن موجوداً بالمرة هناك، أو ماذا لو كان قد أطاع غريزة الجماعة التى تدفعه إلى الإنقياد لمشاركة رفقائه فيما يقومون به. وتساءل: ماذا كان يمكن أن يحدث؟ ثم استعاد فى ذاكرته صورة (سيدار) وهو يقذف بالسيد (موش) جانباً، كما لو كان شخص ما يزيح كلبًا صغيرًا مدللاً عنه، وقامة (سيربنتين) العملاقة وعرض منكبيه. وراح يشك فى أنه حتى فوق السلالم عند الممر ذى الأقواس، لم يكن من الممكن للأرضيين أن يتغلبوا على هذين اليوتوبيين. كان يمكن استخدام المسدسات الآلية كما حدث عند المنحدر، عندها كان (كاتسكيل) سيحصل على قتيلين وليس رهينتين. كم كان سخيفاً مشروع (كاتسكيل) برمته! بيد أنه لم يكن أكثر سخافة من سلوكه الشخصى، وكان على شاكلته (بورليه) وباقى سياسيّ العالم، فى غضون السنوات القليلة الماضية. وفى وقت ما خلال ويلات الحرب العالمية الأولى، كان ثمة شعور سائد بأن حلم اليوتوبيا يقترب حثيثاً من التحقق فوق الأرض. وأن الغيوم السوداء ودخان البارود الذى

---

(١) يقصد الكاتب هنا محاولة أسر اليوتوبيين وقتل أحدهما (المترجم).

عم سنوات الحرب انشق عن أمنيات غريبة تضئ الطريق للإنسان، وتبشر بقيام عالم جديد. لكن القوميين ورجال الأعمال ورجال الدين والوطنيين، أجهضوا هذه الأمنيات ولم يتيحوا لها فرصة أن تتحقق. لقد وثقوا فى السموم القديمة والفساد الأخلاقى لروح الحضارة السائدة، وراحوا يعدون أسلحتهم وينصبون كمائنهم وشغلوا نساءهم بحياكة أعلام تؤصل للخلافات والنزاعات من جديد. لمدة من الزمن قتلوا الأمل، ولكن فقط لبعض الوقت، فالأمل سيبقى دائماً مصاحباً للجنس البشرى، الذى سوف ينهض من كبوته، قال السيد (بارنستابل) هامساً: "سوف تنتصر اليوتوبيا" وراح ينصت إلى صوت كان قد سمعه مسبقاً، دون أن يعيره كثيراً من الاهتمام. كان صوتاً ينبض بإيقاع واضح ثابت فى الصخور من حوله، وكأنه يصدر عن آلة جبارة تعمل بانتظام. ثم ارتفع الصوت لفترة وخبا، حتى لم يعد يسمع. عاد السيد (بارنستابل) يفكر فى رفقائه السابقين من جديد. وتملى ألا يكونوا تعساء ويائسين وخائفين هناك فى الأعلى. لقد كان راغباً – بصدق – فى أن يحدث شىء ما يجعل الليدى (ستيلا) تحافظ على شجاعتها. إذ شعر بالقلق والعطف تجاهها. أما باقى المجموعة فلعلهم في هذا الوقت، يعكفون على دراسة خطة (كاتسكيل) الخرقاء من أجل الدفاع عنهم. ما عدا السيد (بورليه) الذى قد لا يشترك معهم. فبالنسبة له سيكون هناك فرصة للخروج من هذا النزاع

بطريقة كريمة. وربما أيضاً الأب (إميرتون) و(موش) اللذان يتوقعان حدوث معجزة، طبقاً لتدينهما. وقد تدفع هذه الفكرة الآخرين للسخط عليه، أما الليدى (ستيلا) والآنسة (جريتا جراى)، فقد تهدئ من قلقهما. وبالنسبة لــ (بينك)، فالنبيذ فى القبو سوف يؤدى الغرض.

إنهم سوف ينفذون قوانينا اعتادوا عليها، وسيقومون بالعمل طبقاً لطبائعهم. ماذا يمكن أن يحدث أيضاً؟

لقد اندفع السيد (بارنستابل) إلى هوّة الغيبيات وما وراء الطبيعة..

وقتئذ لاحظ أنه ينظر إلى ساعة معصمه. كان الوقت الثانية عشر وعشرين دقيقة، وراح ينظر إلى ساعته عدة مرات على فترات قصيرة. ترى هل يمر الوقت أبطأ من المعتاد. هل عليه أن يعيد ملء الساعة أو يتركها حتى تتوقف؟ لقد بدأ بالفعل يشعر بالجوع الشديد. لا يمكن أن يكون هذا جوعاً حقيقياً بعد، إنه يتخيل الضعف والوهن الناتجين عن قلة الغذاء، فإحساسه بالجوع عقلى وليس فعليًا.

الفصل الرابع

نهاية المقر الصخرى للحجر الصحى

استيقظ السيد (بارنستابل) ببطء وعدم رغبة، من حلم تراءى له حول الطهى. كان فيه (سويار) رئيس الطهاة الشهير بنادى الإصلاح، الذى كان يعد أطباقاً مبتكرة من الأطعمة ثم يقوم بتذوقها. لكن بالأسلوب المتفرد لأرض الأحلام[1]، فإنه لم يكن رئيس الطهاة فحسب، لكنه كان أيضاً عالماً بيولوجياً مرموقاً فى اليوتوبيا. ومن ثم فإنه لم يقتصر فقط – فى الحلم – على ابتكار أطباق طعام جديدة، ولكنه كان أيضاً يستحدث أصنافاً فريدة من الخضروات واللحوم التى تتناسب معها. وقد كان ما يثير اهتمامه، نوع جديد من الطيور البرية، يطلق عليها سلالة "شاتوبريان"، وكان يجمع بين لحوم صدورها الشهية وشرائح اللحم البقرى عالى القيمة الغذائية والجودة،

---

(١) مكان مثالى وخيالى لعل المؤلف يقصد به اليوتوبيا (المترجم).

ثم يحشوها بالفلفل الحلو أحمر اللون، والبصل ونوع من الفطر، الذى يختلف عن الفطر الذى اعتاد عليه (بارنستابل).

وفى الحلم، كان هناك مساعد طاهى ثم جاء عدد من المساعدين الآخرين، كانوا كلهم عراة الأجسام مثل اليوتوبيين، وكانت مهمتهم أن يمسكوا بصغار الطيور البرية من مخزن المؤن. ولكن أفاد هؤلاء المساعدون، أنهم لم يستطيعوا الإمساك بالطيور، إذ تمكنت من الطيران إلى أعلى واستمرت فى الارتفاع. ولكى يدلل مساعدو الطاهى على فكرتهم، وضعوا الطيور على رؤوسهم وأخذوا يتسلقون جدران المطبخ الصخرية القريبة من بعضها البعض بشكل ملحوظ. ثم أصبحت أجسامهم سوداء، وراحوا يشكلون معاً خطاً أسود، وبدا وكأنما هو صاعد من قدر هائل به حساء يغلى، ويتصاعد منه بخار مضئ، لقد كان الحساء مزبداً ويكوّن فقاقيع، ومع هذا كان بارداً كما أن البخار كان بارداً[(١)].

ثم استيقظ السيد (بارنستابل)..

وبدلاً من البخار المضىء الذى تراءى له فى الحلم، كانت هناك غلالة من ضباب فضى - وكأنها مضاءة بضوء القمر - تملأ

---

(١) أضغاث أحلام (المترجم).

جنبات الممر الضيق، وقد أظهرت خيالين أسودين لجسمى "يوتوبيين.! أى يوتوبيين؟".

راح ذهنه يتراوح بين خيالات الحلم وواقع اليقظة، إلى أن بدأ يركز انتباهه فيما حوله. كان اليوتوبيان الاثنان يتحركان بحرية فى الممر؛ ويشيران لبعضهما البعض بأيديهما، وهما لا يلاحظان – على الإطلاق – وجوده على مقربة شديدة منهما. وكانا قد أحضرا معهما سلماً من حبال رفيعة للغاية، ثبتاه فى نتوء صخرى بأعلى. ولكنه لم يتمكن من أن يعرف، كيف استطاعا فعل هذا الأمر، كان واحداً منهما يقف على الرف الصخرى، واليوتوبى الآخر يعلوه متعلقاً بالحبل، وهو يتأرجح به فوق الأخدود وقدماه تلامسان الصخر. ثم ظهرت رأس شخص ثالث فوق حافة الرف، تتمايل من جانب إلى آخر. وبدا أنه تسلق سلماً آخر من الحبال ليصل إلى مكانه هذا. كانت ثمة مناقشة تجرى. وتبين للسيد (بارنستابل) أن هذا القادم الأخير، كان مقتنعاً أنه ورفيقه قد أتما الصعود إلى ارتفاع كاف، بيد أن اليوتوبى الأعلى على السلم، كان يصر على أنهم يجب أن يواصلوا الصعود لمستوى أعلى. وفى غضون عدة دقائق اتفقوا فى الرأى.

أخذ اليوتوبى – الأكثر ارتفاعاً فوق سلم الحبال – يزيد من نشاطه صاعداً على السلم، ثم اختفى خلف بعض نتوءات الصخور، وهكذا لم يعد يبدو فى مجال رؤية السيد (بارنستابل)، وتبعه رفيقاه

إلى أعلى، وأصبحوا – واحداً بعد الآخر – غير مرئيين. ولم يتركوا أى شىء يمكن رؤيته غير سلم الحبال، الذى راح يهتز بشدة والحبل الثانى الذى يتعلقون به، ويبدو أنهم يسحبونه معهم إلى أعلى على المنحدر الصخرى.

أحس السيد (برنستابل) باسترخاء عضلاته. وراح يتثاءب فى صمت، ويبسط أطرافه التى تؤلمه ثم استوى على قدميه متوخياً الحذر الشديد، وحدق إلى أعلى الأخدود. واتضح له أن اليوتوبيين قد وصلوا إلى الرف الذى كان يرقد عليه منذ فترة، وكانوا مشغولين بأمورهم هناك. كذلك تبين له أن الحبل صار مشدوداً للغاية، وبدا واضحاً أنهم يرفعون شيئاً ثقيلاً من أسفل إلى أعلى. كانت ربطة كبيرة، قد تحتوى على أدوات أو أسلحة أو مواد، ملفوفة فى غلاف يخمد صوت محتوياتها عندما تحتك بالصخور. بدت الربطة معلقة أمامه للحظات، وبعدها سُحبت إلى أعلى حيث اليوتوبيون الذين شرعوا فى استخدام مجموعة جديدة من الحبال. وأعقب هذا فترة من الصمت. بعدها سمع السيد (بارنستابل) صوت صلصلة شىء معدنى، ثم بعض الطرقات المتقطعة الضعيفة. فجأة قفز إلى الخلف على الرف الصخرى الذى يقف عليه، لأن حبلاً رفيعاً – من الواضح الذى كان يدور على عجلة – قذفه اليوتوبيون فى اتجاهه من أعلى. وبدا من الأصوات التى سمعها أنهم يدبرون لعمل ما، ثم سقطت بعض

الصخور الصغيرة أمامه، تجاوزته واستمرت فى طريقها إلى حيث الهوة السحيقة بأسفل.

(٢)

لم يكن يدرى ماذا يفعل. فقد خشى أن ينادى على هؤلاء اليوتوبيين، ويظهر نفسه لهم. فبعد مصرع (سيربنتين) كان متشككاً فيما يمكن لليوتوبيين أن يقوموا به تجاه أحد الأرضيين، الذى يكتشفون أنه يختبئ فى ركن مظلم. راح يتفحص سلم الحبال الذى صعد اليوتوبيون عليه إلى هذا الارتفاع. لقد كان معلقاً فى مسمار كبير مستدق الطرف، مثبت فى الصخر بجانب الأخدود. وكان من المرجح أن هذا المسمار قد أطلق من إحدى المعدات القاذفة من أسفل أثناء نومه.

كان سلم الحبال مصنوعاً من أطوال مستقيمة وحلقات متساوية، وبين كل درجة وأخرى مسافة تبلغ نحو قدمين. وكانت المادة المصنوع منها حبال السلم، خفيفة إلى الحد أنه كان من الممكن أن يتشكك فى أن تحتمل ثقل رجل، لو لم ير اليوتوبيين يصعدون عليه.

وخطر على باله، أنه يمكنه أن ينزل الآن، ويجرب فرصته في التعامل مع أى من اليوتوبيين الذين يحتمل وجودهم بالأسفل. وفى الوقت ذاته، كان يجب عليه ألا يلفت أنظار هؤلاء اليوتوبيين الثلاثة بأعلى، إلا إذا صدرت عنه حركة مباغتة غير مقصودة، ربما تستثير اليوتوبيين وينجم عنها ردود أفعال عنيفة تجاهه. لكنه إذا بدأ النزول ببطء إلى تحت، فإن أياً من اليوتوبيين – الذين قد يوجدون بالأسفل – سيحتاج لبعض الوقت ليتبينه ويكتشف أنه أرضى وليس يوتوبيًا، قبل أن يتعامل معه. كان متشوقاً إلى حد بعيد، للنزول إلى أسفل، بعيداً عن هذا الرف الصخرى الموحش والكئيب.

أمسك بإحدى حلقات سلم الحبال، وارتكز بإحدى قدميه خلفه، على حافة الرف، ثم أرهف السمع للحظات لتلك الأصوات الخافتة، الصادرة عن الثلاثة يوتوبيين الذين يعملون بأعلى، وحينئذ بدأ في الهبوط. كانت المسافة إلى أسفل شاسعة. وسرعان ما وجد نفسه نادماً على أنه لم يبدأ في إحصاء عدد درجات السلم عندما شرع في النزول. ولعله هبط بالفعل مئات الدرجات.

وعندما اشرأب بعنقه ليرى ما بأسفل، كانت الهوة المظلمة تفغر فاهاً. وبدا له واضحاً أنه مازال العديد من درجات سلم الحبال باقية، وقد صارت الهوة أكثر إظلاماً، فلم يكن ضوء القمر يتسلل بعمق كبير إلى الوادى، كذلك لم يكف انعكاس الضوء الخافت من

على الغلالة الضبابية الرقيقة بأعلى، فى تبديد بعض ظلام الهوة. حتى فى السماء، لم يكن ضوء القمر ساطعاً.

وقتئذ كان قريباً من الصخرة، وبدا أن سلم الحبل يؤدى إلى عمق سحيق مظلم وبلا قرار. وكان عليه أن يتحسس كل درجة سلم، قبل أن يضع قدمه عليها. وتقرحت بالحك يداه وقدماه العارية، وأصبحت تؤلمانه. وروعته فكرة جديدة وكريهة إلى النفس، أتت إلى ذهنه. أن بعض اليوتوبيين قد يكونون فى طريقهم إلى أعلى صاعدين السلم بسرعة. لكنه راح يقول لنفسه بأنه لو حدث هذا، فسوف يشعر به من اهتزاز السلم وشد درجاته بقوة، وحينئذ يمكنه أن يصرخ ويقول لهم: "إننى أرضىّ أنزل على السلم. إننى أرضىّ مسالم غير مؤذٍ". ثم راح يردد هذه العبارات بصوت مرتفع مراراً وتكراراً آملاً فى أن تصل صيحاته إلى اليوتوبيين.

ولم يكن ثمة صوت يجيبه. بل مجرد صدى كلماته تأتى من الوادى الضيق العميق. عاد للصمت من جديد، وراح يواصل الهبوط على السلم متجهماً ومحافظاً على اتزانه وسرعته قدر المستطاع، وتراوده رغبة داخلية طاغية، فى أن يتخلص من هذا السلم اللعين، وأن يريح يديه وقدميه الملتهبة. كانت هذه الرغبة تطغى على كل دافع آخر يعتمل داخل نفسه.

سمع فجأة عدة أصوات غليظة خشنة فيها رنة. كانت مثل سقوط أجزاء من جسر حديدى، بعضها فوق الآخر، ثم شاهد ومضة من الضوء الأخضر. أصبح جسمه ثابتاً لا يتحرك من مكانه وتصلّب فوق السلم. وأخذ يحدق بنظرة فى أعماق الوادى الضيق عالى الجانبين. ثم ومض الضوء الأخضر من جديد، فأظهر أعماق الوادى بشكل أوضح. وبدا أن ثمة مسافة شاسعة لازالت تمتد تحته. وفوق الوادى، كان هناك شيء ما. لم يستطع أن يتبينه، فى تلك اللحظات المروّعة من المعاناة. في البداية اعتقد أنه ثعبان ضخم يزحف هابطاً إلى الوادى الضيق، ولكن عندما أمعن النظر أدرك أن هذا الشيء ربما يكون كبلاً[1] هائلاً، أحضره إلى الوادى حفنة من اليوتوبيين. لكن كيف يمكن لثلاثة أو أربعة من اليوتوبيين – الذين رآهم بعدم وضوح – أن يحركوا هذا الكبل الجبار ؟ إنه أمر ليس بالإمكان تخيله. بدت مقدمة الكبل، التى تشبه رأس الثعبان، وكأنها ترتفع ذاتياً صاعدة بانحراف إلى الجرف الصخرى. ربما كان يتم سحب الحبل بواسطة الحبال، لم يستطع التأكد من ذلك وانتظر ومضة الضوء الأخضر الثالثة، ليتبين الأمر، ولكنها لم تأت. أصاغ السمع، لكنه لم يسمع شيئاً سوى صوت النبضات التى سمعها من قبل، كانت مثل

(١) سلسلة غليظة من الأسلاك لنقل القوة الكهربائية (المترجم).

الصوت الرتيب لمحرك آلى يعمل بسلاسة بالغة. واستأنف هبوطه على درجات سلم الحبال.

وصل أخيراً إلى مكان يمكنه أن يتوقف عنده، وهناك واجهته مفاجأة لم تكن فى الحسبان. إذ كان سلم الحبال ينتهى بعد عدة ياردات فحسب! راح يتأرجح عدة مرات ثم تأكد – بما لا يدع مجالاً للشك – أن السلم ينتهى بالفعل بعد مسافة قصيرة. وعندما لمح أثراً باهتاً لتجويف يكاد يكون أفقياً، بطول سطح الصخرة القريبة منه. وضع قدمه يتحسس حافتها ثم سرعان ما تأرجح بالسلم بعيداً عنها. كان قلقاً ومجهداً لدرجة أنه لم يستطع أن يفلت يديه من على الحبل أو أن يضع قدمه على الطرف الناتئ من الصخر.

وفى النهاية، توصل إلى طريقة لتحقيق هذا. فقد حرّر قدميه من سلم الحبال، وأسندهما على الصخرة ثم دفع بها جسمه بعيداً. أخذ يتأرجح إلى الخلف، إلى أن تأكد أنه أصبح فى وضع مناسب بحيث يمكنه أن يجد موطئ قدم. كرر التأرجح مرتين، إلى أن اكتسب الثقة بالنفس، لكى يترك السلم ويهبط على النتوء الصخرى. أفلت يديه من فوق الحبل واستقر بقدميه فوق النتوء. بَعُد عنه السلم متأرجحاً فى الظلام، ثم عاد بالحركة الذاتية ليربت على عظام كتفيه بخفة، ولكن سبب له هذا إرتياعاً مفاجئاً.

كان يبدو أن التجويف الأفقى – الذى أصبح داخله الآن بعد أن هبط فوق النتوء الصخرى – يسير بمحاذاة عرق من مادة ذات بنية بلورية شفافة، يمتد على طول المنحدر الصخرى، وكانت ثمة فتحات فى الصخر – ارتفاع كل منها عدة ياردات – تنتشر عبر الصخور.

أخذ السيد (بارنستابل) يمعن النظر فيما حوله ويتحسس طريقه بحرص داخل التجويف الصخرى، لفترة من الزمن. واتضح له – بجلاء – أنه إذا كان هذا منجماً، فلابد أن يكون ثمة طريق للصعود إليه والهبوط منه من خلال الممر الضيق المؤدى إلى القلعة. أصبح صوت تدفق التيار المائى أعلى فى ذلك الوقت. وقدّر أنه ربما هبط – حتى الآن – حوالى ثلثى المسافة من المقر الصخرى إلى الأرض. فضّل أن يتريث حتى يطلع النهار. وأشارت عقارب ساعة معصمه المضيئة إلى الساعة الرابعة صباحاً، وأدرك أنه لن يمر وقت طويل حتى يبزغ الفجر. وجد مكاناً ممهداً فى الصخر، فأسند ظهره إليه وجلس القرفصاء. بدا أن الفجر سوف يأتى سريعاً، ولكنه غفى خلال فترة الانتظار، وعندما تطلع إلى ساعة معصمه من جديد، كانت الساعة الخامسة والنصف صباحاً. استوى على قدميه وسار بحذر إلى حافة التجويف الصخرى، وحدق إلى أعلى الممر الضيق. حيث شاهد الكبل. كان كل ما حوله شاحباً للغاية وقاتماً ويمتزج فيه اللونان

الأسود الفاحم والأبيض الناصع، بيد أن الأشياء القريبة منه، كانت جد واضحة.

وكانت جوانب الوادى تبدو مرتفعة إلى ما لا نهاية ثم تختفى بين السحب، لمح (بارنستابل) أحد اليوتوبيين بالأسفل، وكان مختفياً خلف أحد انحناءات الوادى الضيق. وخمّن أن الكبل العملاق تم وضعه قريباً جداً من المقر الصخرى للحجر الصحى، بحيث لا يمكنه رؤيته من المكان الذى يقف فيه. لم يجد أى درجات هابطة من التجويف الصخرى، ولكن على بعد ثلاثين أو أربعين ياردة تحته، كانت ثمة ممرات لخمسة أو ستة كبلات، تمتد من التجويف الصخرى إلى الجانب المقابل للوادى الضيق. كانت الممرات داكنة للغاية، ولكنها واضحة المعالم، ذهب فى اتجاهها. عندما وصل إليها وجد أن كل ممر أمامه عربة ناقلة صغيرة، ذات خطاف كبير بأسفلها.

تفحص السيد (بارنستابل) هذه العربات الصغيرة، فوجد أن ثمة مكابح لتثبتها على الممرات. اقترب من إحدى العربات وفك مكبحها، فاندفعت فجأة إلى أسفل وكادت أن تصطدم به وتلقيه فى الهاوية. وأنقذ نفسه بالتشبث بأحد الكبلات الذى كان موجوداً بالقرب منه. وراقب العربة الصغيرة وهى تنحدر بسرعة إلى أسفل – مثل طائر ضخم – تدحرجت قليلاً ثم استقرت على شاطئ رملى عريض يمتد على طول الجانب الآخر من السيل الجارف من الماء.

على الرغم من أن الأمور كانت تبدو مطمئنة إلى حد ما. إلا أنه أخذ يرتجف بعنف من الإنفعال، وبعد أن هدأ قليلاً اتجه إلى إحدى العربات الصغيرة. وكان لا يزال يعانى من العصبية الشديدة والإجهاد، حتى أنه استغرق وقتاً طويلاً ليتأكد من أن خطاف العربة الصغيرة مثبت بإحكام – وبطريقة آمنة – على الممر، ركب العربة، وفك مكابحها بيد ترتعد، فتحركت هابطة بمنتهى السلاسة والإنسيابية عبر الأخدود الضيق إلى الشاطئ بالأسفل. كانت هناك أكوام هائلة من البلورات المعدنية بالإضافة إلى كبل ضخم، وبدا واضحاً أنه مخصص لنقلها إلى أعلى. وكان الكبل يمتد من رافعة غير مرئية تستقر فى مكان مرتفع، ولم يكن ثمة يوتوبى على مرمى البصر. رفع يديه عن المقبضين اللذين يمسك بهما فى العربة الصغيرة، ونزل سالماً على قدميه.

كان الشاطئ يمثل الحدود الأخيرة لهذه المنطقة، سار بمحاذاته إلى حافة التيار المائى الصاخب والمضطرب والمتدفق بسرعة. أخذ الضوء يزداد كلما توغل فى السير، ولم تعد المرئيات من حوله تصطبغ باللونين الرمادى والأسود، بل عادت للأشياء ألوانها الطبيعية من جديد، وكانت قطرات الندى متكاثفة عليها. كان يتضور من الجوع ويشعر بالإجهاد الشديد. حتى الرمال التى كان يسير فوقها غيرّت من طبيعتها وأصبحت ناعمة وثقيلة تحت قدميه. وأحس أنه لا

يستطيع أن يمضى فى السير أكثر من هذا. ويجب أن ينتظر حتى يساعده شخص ما. استوى جالساً فوق إحدى الصخور، وراح يتطلع إلى الحجر الصحى للمقر الصخرى الذى يربض على ارتفاع شاهق.

(٣)

كانت الصخور شامخة وحادة، وبدت مثل مقدمة سفينة جبارة خلف الواديين الأزرقين العميقين، وكانت بضعة شرائط من الغيوم الباهتة وطبقات من الضباب، تحجب عن السيد (بارنستابل) قمة الصخور والجسر الصغير الذى يمتد عبر الممر الضيق. وكانت السماء – أعلى هذه السحب الضبابية الخفيفة – ذات لون أزرق رائق. وعندما شرع السيد (بارنستابل) فى التحديق إلى أعلى، بدأ الضباب فى التشتت والانحسار. وراحت أشعة الشمس التى ترتفع فى كبد السماء، مشرقة وضاءة، تحيل القلعة القديمة إلى كيان ذهبى، واستطاع رؤية الأرضيين بوضوح تام، وهم يقفون هناك. وقد ظهر كل من الجسر والقلعة بعيدين للغاية، أما الجزء الذى كان يمكنه رؤيته من الحجر الصحى على المقر الصخرى، فكان مثل خوذة فوق رأس جندى عملاق منتصب القامة.

وحول المنطقة التى تقع تحت مستوى الجسر، على الارتفاع الذى شاهد اليوتوبيين الثلاثة يقومون بالعمل فيها - وربما مازالوا يعملون حتى الآن - لمح شيئاً داكناً يمتد إلى مسافة بعيدة، كان مثل شريط هائل من الحبال. وقد استنتج (بارنستابل)، بأن هذا الشريط لابد أن يكون الكبل الذى رآه أثناء الليل مضاء بتلك الومضات الخضراء. وقتئذ لاحظ جسماً غريباً عند قمة الصخور القريبة من الوادى الضيق العميق. وعندما دقق النظر وجده عبارة عن لفافة ضخمة من الأسلاك منتصبة رأسياً، ومرتبطة بقرص دائرى. وقد ظهر هذا القرص عند المنحدر الصخرى الشاهق، فى مقابل المقر الصخرى لمبنى الاحتفالات. وكانت هناك لفافة أسلاك أخرى مشابهة للأولى، مستقرة فى الوادى الأكثر ضيقاً، بالقرب من الدرجات الصخرية التى تقود إلى أعلى، وتبدأ عند الجسر الصغير. وشاهد اثنين أو ثلاثة من اليوتوبيين، يبدون غاية فى الضآلة، لأنهم كانوا على ارتفاع شاهق من مكان (بارنستابل). كما ظهروا بأجسامهم القصيرة والبدينة، وهم يتحركون على طول حافة المنحدر الصخرى، ويمسكون فى أيديهم بأشياء، كان من الواضح أن لها ثمة علاقة بلفافة السلك الضخمة.

حدق السيد (بارنستابل) فى هذه التجهيزات، غير مستوعب لما يجرى أمام عينيه، كان مثل بدائى يشاهد شخصاً ما يحشو بندقية، بينما

لم يختبر أبداً إطلاق الرصاص منها. وقتئذ وصل إلى سمعه صوتا مألوفاً ولكنه ضعيف وقصير الأمد. كان صوت البوق الذى يوجد فى قلعة الحجر الصحى، يعلن عن موعد الاستيقاظ. وفى الوقت نفسه تقريباً، ظهر للعيان جسم السيد (روبرت كاتسكيل) الضئيل – الذى يشبه جسم نابليون – ثم اندفع فى مواجهة السماء الزرقاء، كذلك بدت رأس وأكتاف (بينك)، الذى سرعان ما توقف واستدار لينظر فى اهتمام خلفه. وأخرج قائد الأرضيين منظاره المكبر الميدانى، واستعرض من خلالها لفافة السلك الضخمة.

قال السيد (بارنستابل): "إننى أتعجب مما قد يتبادر إلى ذهنه عن هذه اللفافة الغريبة!".

استدار السيد (كاتسكيل) وألقى ببعض التعليمات للسيد (بينك)، الذى أدى التحية لقائده ثم انسحب. حينئذ صدر صوت قرقعة من الممر الضيق الأقرب إليه، أثار انتباهه من جديد للجسر الصغير، الذى فوجئ بأنه قد اختفى! نظر إلى أسفل وشاهد حطامه على بعد ياردات من البحر. رأى المياه تتناثر فى كل اتجاه على شكل قطرات متطايرة، والإطار المعدنى للجسر ينقوض ويدور متراقصاً حول نفسه لمسافة قصيرة ثم يسقط ساكناً، وبعد لحظات تناهى إلى سمعه صوت القرقعة والضجة الناشئة عن الاصطدام. تساءل السيد (بارنستابل): "والآن، من الذى فعل هذا؟".

وكأنما أجاب السيد (كاتسكيل) عن سؤاله، بأن توجه بسرعة إلى أحد أركان القلعة التى تطل على المشهد، وتطلع بتردد إلى أسفل.

بات من الواضح وبما لا يدع مجالاً للشك، أن اليوتوبيين هم الذين حطموا الجسر الصغير إلى أجزاء. وانضم للسيد (كاتسكيل) - على الفور - السيد (هنكر) ولورد (بارالونجا). وأوحت إيماءاتهم بأن ثمة مناقشة حادة تجرى بينهم. كان ضوء الشمس يزحف - ببطء شديد وبدرجات متفاوتة - على واجهة المقر الصخرى للحجر الصحى. وقد وصل الآن إلى حيث الكبل الذى يلتف حول قمة الصخرة، وبدا - بعد أن سقط عليه الضوء - بلون نحاسى لامع.

وظهر اليوتوبيون الثلاثة، الذين أيقظوا السيد (بارنستابل) بالليل، وهم يهبطون سلم الحبال بسرعة فائقة. وأدرك بأذنه من جديد، صوت الطنين - الذى كان يسمعه من وقت لآخر - خلال الليل، بيد أن الصوت كان أعلى بكثير فى هذه اللحظات، كما كان يسمعه فى كل مكان حوله، فى الهواء والماء والصخور وحتى فى عظامه. وعلى نحو مفاجئ، ظهر شيء أسود يشبه الرمح بأعلى، بجانب المجموعة الصغيرة من الأرضيين. أخذ هذا الشيء يتحرك بسرعة بالقرب منهم، وتوقف لهنيهة ثم راح يتحرك من جديد بارتفاع نصف قامة رجل. لقد كان علماً يُرفع على سارية، ولكن السيد (بارنستابل) لم يتمكن - حتى الآن - من رؤيتها. وصل العلم إلى

أعلى السارية، وتُرك هناك. وبعد فترة ، هبت نسمة هواء، فانفرد العلم إلى الخارج للحظات مظهراً نجمةً بيضاء على أرضية زرقاء، ثم انطوى على نفسه ثانية. كان هذا علم الأرض، علم حملة أرضية لاستعادة مفهوم المنافسة والصراع والحرب، فى اليوتوبيا. وتحت سارية العلم، ظهرت رأس السيد (بورليه)، يتفحص لفائف السلك الضخمة، من خلال منظاره المكبر الميدانى.

(٤)

ازداد الطنين والنبضات وضوحاً وارتفع صوت الضجيج مؤثراً على أذنى السيد (بارنستابل)، ثم ازداد تأثيره بشدة مفرطة. وفجأة برقت أضواء ساطعة باللون البنفسجى، أخذت تنتقل بسرعة عبر لفائف الأسلاك، ومرت من خلال قلعة الحجر الصحى، وكأنها ليست هناك. ولكن لم تنقض عدة ثوانٍ حتى ظهرت فى موضعها نفسه.

أخذ العلم يخفق بشدة ثم تمزق من فوق السارية. وفقد السيد (بورليه) قبعته. وظهر السيد (كاتسكيل) وهو يحاول جاهداً أن يبعد معطفه، الذى ارتفع ليغطى رأسه. وقتئذ، شاهد السيد (بارنستابل) القلعة وكأنها تلف حول الجزء الأسفل من المقر الصخرى. تماماً كما

لو أن مارداً عملاقاً خفياً، أمسك بأعلى الصخرة، وأخذ يلفه بشدة بحركة دائرية، وبعدها تلاشت القلعة من الوجود!

وعندما حدث هذا، انبعثت أعمدة ضخمة من الأتربة من مكان القلعة، وكذلك اندفعت مياه الممر الضيق فى الهواء على شكل نافورة طويلة، تناثرت على هيئة قطرات متطايرة. ثم صدر صوت مكتوم كالذى يصدر عند وقوع شىء ثقيل، بلغ من القوة حداً، أصم أذنى السيد (بارنستابل).

وحدث تيار هوائى دوامىّ عنيف، أطاح به حوالى اثنتى عشرة ياردة، ليرقد بين أكوام من التراب والحجارة وبركة من الماء. أصيب بكدمات ودوار من تأثير الصدمة.

صرخ قائلاً: "يا إلهى! يا إلهى!" وراح يناضل ليقف على قدميه من جديد، وهو يشعر بالإرهاق الشديد. وفى هذه اللحظات، لمح قمة المقر الصخرى للحجر الصحى – التى كانت القلعة قائمة عليها– وقد أصبحت ممهدة للغاية وممسوحة مثل قطعة من الجبن قطعت عند منتصفها بسكين حادة. أصبح السيد (بارنستابل) متعباً ومنهكاً إلى حد بعيد، فتمدد بطول جسمه ورقد فاقد الإحساس.

فلسفة جديدة فى اليوتوبيا

الفصل الأول

التلال الساكنة بجانب النهر

"خلق الله أكواناً أكثر من عدد صفحات الكتب التي توجد في كل مكتبات كوكب الأرض، ويمكن أن يظل الإنسان يتعلم وينمو في المعرفة إلى الأبد، وسط هذه العوالم غير المحدودة".

انتاب السيد (بارنستابل) إحساس عجيب بأنه ينطلق في الفضاء، ويرتحل من نجم إلى آخر ومن طبقة إلى أخرى في الكون، عبر تنوع لا ينقطع وموجودات غاية في الغرابة. اجتاز في رحلته هذه، حافة الوجود وانساق – لعصور طويلة – فوق منحدرات صخرية لا تُحَدّ، وسافر من بداية الكون حتى نهايته، محاطاً بكم هائل من النجوم الصغيرة التي لا تعد ولا تحصى. وفي النهاية جاءت مرحلة من الراحة العميقة. كانت السماء ملبدة بطبقات من السحب، تدفئوها الشمس الغاربة، وعند الأفق تنتصب تلال متموجة باعتدال، يعلوها عشب ذهبي وتنمو عليها أيضاً غابات داكنة أرجوانية اللون،

وأدغال. وثمة بقع من اللون الأصفر الشاحب تسقط على سفوحها المتسعة نوعاً ما. وهنا وهناك مبانى ذات قباب، ومزروعات وحدائق مزدهرة وفيلات صغيرة وخزانات ضخمة بها مياه تتألق فى ضوء الشمس الغاربة. كما كانت هناك أشجار متعددة من بينها أشجار "الأوكالبتوس"(١) - إلا أن أورقها كانت داكنة أكثر من المعتاد - تنمو فوق سفوح التلال تحته مباشرة وحوله فى كل مكان، وكل الأرض تتجه هابطة إلى واد جد متسع، حيث يتدفق نهر متألق فى شكل نصف دائرى، ثم يظل يلتوى حتى يصبح غير مرئى فى غبش المساء.

حركة خفيفة جعلته يجفل ويتجه ببصره إلى مصدر الصوت، ليكتشف وجود (ليكنيس) وهى تجلس بجواره. افتر وجهها عن ابتسامة ووضعت إصبعها على شفتيها. انتابته رغبة غامضة فى أن يتحدث إليها، ثم ابتسم لها برقة، وحرك رأسه. انتصبت على قدميها، وانسحبت بعيداً عن الصخرة التى يجلس عليها. لقد كان بالغ الضعف وفاقداً لإحساسه بحب الاستطلاع، ليرفع رأسه وينظر إلى أين ذهبت. لكنه اندهش عندما رآها تجلس أمام مائدة بيضاء عليها إناء فضى يمتلئ بالزهور شديدة الزرقة، وكان لون الزهور الغريب، هو الذى

---

(١) شجر ذو أوراق عطرية له استخدامات طبية (المترجم).

جذب انتباهه وأثار فضوله للمرة الأولى. وراح يتساءل فى قرارة نفسه متعجباً، هل الألوان – فى حقيقة الأمر – أكثر تألقاً، أم أن ثمة شيئًا فى الهواء، يضخم من أحاسيسه ويجعلها أشد رهافة، وخلف المائدة التى كانت تجلس أمامها الفتاة، نمت سيقان بيضاء فى شرفة مفتوحة، إنها أغصان انبثقت من جذع شجرة تشبه أشجار "الأوكالبتوس"، وكانت أوراقها بلون البرونز الأسود، وقد اندفعت إلى الأمام إلى حيث يجلس. سيطر على ذهنه صوت موسيقى حالمة، سرعان ما فارقته فجأة، كانت مجرد انسياب هادئ لنغمات موسيقية على حافة إدراكه، وكأنها إحدى أغانى "حكايات الخيال" للموسيقار (ديبوسى)[1] ثم شعر بالسكون والصفاء.

(٢)

استيقظ من جديد، يحاول جاهداً أن يتذكر. لقد أصيب بضربة شديدة طرحته أرضاً وأفقدته صوابه، كانت بالغة القوة والعنف حتى أن ذهنه لم يستوعبها. عندها وقف أناس بجانبه، وتحدثوا عنه. تذكر شكل أقدامهم، لابد أنه كان ممدداً على بطنه ووجهه ملاصق للأرض، ثم قلبوه على ظهره، فأعمى عينيه ضوء الشمس الساطع،

---

(١) كلود ديبوسى (١٨٦٢ – ١٩١٨) موسيقار فرنسى شهير (المترجم).

وسرعان ما أعطته امرأتان فاتنتان دواء منعشاً جدد نشاطه، كان فى ذلك الوقت، يرقد فى ممر ضيق أسفل منحدرات صخرية شاهقة. ثم حملته سيدة كما تحمل الأم طفلها. وبعد ذلك داهمته ذكريات مبهمة وغير مترابطة عن رحلة طيران طويلة. وكان ثمة شيء ما أعقب ذلك، مشهد لآلة بالغة الضخامة وغاية فى التعقيد، غير متصلة بأية آلة أخرى. ولبعض الوقت تمسك ذهنه بهذه الذكرى، متسائلاً عن فحواها. ولكنها تلاشت بعد فترة. وكانت هناك أصوات تستثير بعضها البعض، ووخزة حقنة وبعض الغاز الذى كان عليه استنشاقه رغماً عنه، ثم فترات من النوم العميق الذى تتخلله الأحلام.

وتساءل عن كيفية وصوله إلى هذا الممر الضيق. وهل هو الممر ذاتة الذى كان يناضل فيه اليوتوبيون لكى يرفعوا الكبل الضخم؟ وفجأة – بصعوبة ولكن بوضوح – راح يتذكر قمة الصخرة لمبنى الاحتفالات، يرتفع شامخاً فى مواجهة السماء الزرقاء فى الصباح. ثم منظر القمة، وهى تلف حول نفسها والأعلام التى ترفرف والأشخاص الذين تشعثت شعورهم، كانت هذه المشاهد تعبر فى ذهنه ببطء ولكن بثبات، مثل سفينة هائلة تمخر عباب المياه بعيداً عن المرفأ. ويتلاشى شيئاً فشيئاً أعلامها ومسافروها، وهى فى رحلة إلى المجهول. وعادت إلى ذهن السيد (بارنستابل)، كل الأحداث العجيبة لمغامرته المروّعة.

(٣)

استوى جالساً وأخذ يمعن التفكير. وعادت (ليكنيس) للظهور بالقرب منه ثم جلست بجانبه على السرير، وراحت تعيد ترتيب الوسائد خلفه، وطلبت منه أن يحاول الرقاد عليها. وأقنعته بأنه تم علاجه من مرض ما، وأنه لم يعد مصدراً للعدوى، بيد أنه مازال بالغ الضعف. أخذ يسأل نفسه: "أى مرض هذا، الذى تم علاجه منه؟" واتضحت له كالرؤى أحداث أكثر من الماضى. قال: "كان ثمة وباء، نوع من الوباء المختلط.. بسبب كل أمراضنا المعدية".

ابتسمت لتعيد له الطمأنينة. لقد انتهت جميع مسببات العدوى. واستطاع علم وتنظيم اليوتوبيا القضاء على الخطر والتخلص منه نهائياً.

ومع هذا، فلم يكن لـــ (ليكنيس) أى دور بخصوص منع الوباء والتخلص بسرعة من هذه الميكروبات الغازية، وانصب عملها على المساعدة والعناية بالمرضى. كان السيد (بارنستابل) مازال راقداً، وأدرك – بفضل ذكائه – أنها تشعر بالأسف قليلاً، لأن ما تقوم به من التخفيف من معاناة الآخرين، لم يعد ضرورياً. نظر إلى عينيها الآسرتين الحنونتين، وأحس بمدى تعاطف هذه الفتاة الجميلة معه.

بالطبع إنها لم تكن آسفة؛ لأن اليوتوبيا قد عادت خالية من الأمراض. إن هذا أمر غير معقول. ولكن بدا له أن أسفها يكمن، فى أنها قد حرمت من مد يد العون، لكل من يحتاج لمساعدتها.

سألها:"ما الذى حدث للناس الذين كانوا فوق الصخرة؟". لم تكن تعرف على وجه التأكيد ردت عليه بأنهم ربما أُبعدوا عن اليوتوبيا. عاد يتساءل: "إلى كوكب الأرض؟" لم تكن تعتقد أن الأرضيين أعيدوا إلى كوكبهم. ربما يكونون قد ذهبوا إلى كوكب آخر، ولكنها ليست واثقة. لقد كانت من الأشخاص الذين لا يفهمون كثيراً فى الرياضيات ولا العلوم الفيزيائية والكيميائية. أما النظريات المعقدة عن الأبعاد – والتى كانت تحظى باهتمام بالغ لدى اليوتوبيين – فقد كانت خارج دائرة اهتماماتها. وقبلت كحقيقة واقعة، أن قمة المقر الصخرى المخصصة للاحتفالات، قد تم قذفها بعيداً عن اليوتوبيا كلها. كان عدد كبير من اليوتوبيين فى الوقت الحاضر، يعكفون على العمل التجريبى فى مجال الأبعاد التى لم يتم اكتشافها بعد، والتى يمكن قذف الأشياء المادية منها[1]، ولكن هذه الأمور تخيفها. إن ذهنها يرتد خوفاً من هذه الأفكار، كما يجفل الشخص الذى يقف على منحدر صخرى شاهق خشية أن يسقط إلى هاوية.

---

(١) مثل قذف قمة المقر الصخرى (المترجم).

إنها لا تريد أن تفكر فى المكان الذى ذهب إليه الأرضيون، أو الأعماق التى حوموا بحركة دوامية فوقها، أو أى فضاءات لا محدودة شاهدوها، ثم انجرفوا بقوة داخلها. إن مثل هذه الأفكار المروّعة تفتح خلجاناً سوداء فاغرة فاها تحت أقدامها، بعد أن كانت على قناعة أن كل الأمور التى تحيط بها مستقرة وآمنة، لقد كانت من الطبقة المحافظة فى اليوتوبيا. وأحبت الحياة كما هى فى الوقت الحاضر ، وكما كانت في الماضى. لقد كرست نفسها للعناية بالسيد (بارنستابل)، عندما تبينت أنه هرب من مصير الأرضيين. وهى لم تعن كثيراً بتفاصيل هذا المصير المحتوم، بل لقد تفادت مجرد التفكير فى الأمر.

"ولكن أين هم، أين ذهبوا؟" لم تكن تدرى على الإطلاق.

راحت تعرض له بطريقة منقوصة وغير دقيقة أفكارها المشوشة غير المتعاطفة، عن تلك الاكتشافات الجديدة التى ألهبت خيال اليوتوبيين. وكانت اللحظة الحاسمة هى تجربة (آردن) و(جرينليك) وما نتج عنها من إحضار الأرضيين إلى اليوتوبيا. تلك التجربة التى استطاعت – لأول مرة – تحطيم الأسوار الحصينة التى أقاموها حتى ذلك الوقت، حول فكرتهم الثابتة عن كون بثلاثة أبعاد

فقط[١]. كما أتاحت التجربة الفرصة، لأداء أعمال رائعة فى كل أنحاء اليوتوبيا. كانت هذه بمثابة لحظة البداية والانطلاق لتحقيق إنجازات عملية، بفضل شبكة معقدة من النظريات والاستنتاجات المنطقية.

أدى حديثها إلى أن يرجع السيد (بارنستابل) بذهنه، إلى كوكب الأرض واكتشافاته الأكثر تواضعاً. تذكر بنيامين فرانكلين[٢] وكيفية اقتناصه للبرق بواسطة طائرة ورقية عليها خلية جلفانية[٣]، وراح يتخيل فرانكلين وهو يتعجب من تلك المعجزة التى أتت بالكهرباء وجعلتها فى خدمة الإنسان، لكن اختراع الكهرباء استغرق قرناً ونصف القرن، حتى أحدث تأثيرات مؤثرة ومحسوسة فى حياة الجنس البشرى، لأن العمال على الأرض، كانوا جد قليلين، وكانت الأساليب التى يتبعونها، معوقة وبطيئة وتحمل فى طياتها الضغينة والكراهية.

أما فى اليوتوبيا، فإن الاكتشاف الجديد يمثل ثورة فكرية. وهناك مئات الألوف من الباحثين يجرون تجاربهم – فى حرية كاملة

---

(١) الطول والعرض والارتفاع (المترجم).

(٢) (١٧٠٦ – ١٧٩٠) عالم أمريكى له تجارب عديدة فى مجال الكهرباء، وأثبت بالتجربة الصلة بين البرق والكهرباء (المترجم).

(٣) خلية تتولد فيها الكهرباء عن طريق تفاعل كيميائى (المترجم).

وتعاون تام - ويعملون طبقاً للنتائج المثمرة التى توصل لها (آردن) و(جرينليك)، وصارت جلية وواضحة للجميع. وفى كل ساعة، أصبحت احتمالات جديدة ورائعة من الاكتشافات الفضائية، متاحة ليستخدمها اليوتوبيون. حك السيد (بارنستابل) عينيه ودلك رأسه بيديه، ثم رقد على ظهره من جديد، وراح ينظر بعينين نصف مفتوحتين إلى الوادى الكبير من تحته، الذى أخذ يتحول ببطء إلى اللون الذهبى، بسبب الشمس الغاربة، وقتئذ أحس أنه أكثر المخلوقات أماناً واستقراراً، وكأنه يرقد فى مركز جرم فضائى ينعم بالهدوء ويتوهج بالضياء. بيد أن السكون لم يكن سوى توهم، إذ لاتزال بلايين الذرات المتسارعة والمتصادمة تشق طريقها مندمجة، فى هذا السكون الذى يسود أثناء المساء.

إن كل السلام والاستقرار الذى عرفه الإنسان أو سوف يعرفه، لم يكن سوى السطح الصقيل لتيار متدفق بسرعة مروعة من سد إلى آخر. وفى زمن ما كان يمكن للبشر أن يتحدثوا عن التلال الدائمة والتى تمتد بلا نهاية. أما فى الوقت الحاضر فإن أى تلميذ، يعرف أن هذه التلال قد انهارت تحت تأثير الصقيع والرياح والأمطار، واندفعت بقاياها فى اتجاه البحر، يوماً بعد يوم وساعة تلو الساعة.

كان ثمة زمن، يتحدث فيه البشر عن اليابسة ويشعرون بأنها ثابتة وصلبة تحت أقدامهم، أما فى الوقت الحاضر، فإنهم يعلمون أن الأرض تدور فى الفضاء – مثل دوامة تتحرك بحركة دائرية – حول شمس تندفع بين عدد هائل من النجوم (١).

استحضر السيد (بارنستابل) كل هذه المشاهد أمام عينى عقله. بينما ينساب ضوء الشمس الغاربة ساكناً، وغلالة من نجوم الفضاء تنتشر فى السماء الزرقاء. لقد كان من الصعب تشويه كل هذه المناظر الأخاذة وأن تقطع إرباً. وراحت أفكاره – وكأنها أشباح تتراقص فى ذهنه – تقتصر على ما يتعلق به شخصياً.

تساءل: "ما مصير الأرضيين الآخرين؟ أين أجسادهم؟ وهل من الممكن يكونوا مازالوا على قيد الحياة؟" لم تستطع (ليكنيس) أن تجيبه وأخذ يمعن التفكير. لقد كان منطقياً أن تكون مسئولة عنه، مثل هذه المرأة ذات التفكير المتخلف والمحدود. فإن الأذهان النشطة هنا، لن تفيد منه شيئاً لحياتها، أكثر مما تستفيده الأذهان النشطة فوق كوكب الأرض، من عنايتها بالحيوانات الأليفة!

---

(١) يقصد المؤلف (مجرة الطريق اللبنى) التى تحتوى على آلاف الملايين من النجوم (المترجم).

وهى لا تريد أن تفكر على الإطلاق فى المواقع النسبية للكواكب أو العلاقات المعقدة بينها، إذ كان الأمر بالغ الصعوبة على إدراكها. لقد كانت إحدى الفاشلات فى نظام التعليم باليوتوبيا. جلست بجانبه، وعلى قسمات وجهها الأخاذ ترتسم عذوبة قدسية وطمأنينة وسكون. وشعر بأن إعجابه بها نوع من الخيانة لبنى جنسه إذ كان شغوفاً بأن يعرف على وجه الدقة، المكان الذى ذهب إليه الأرضيون، قبل أى شىء آخر.

لقد افترض أن قمة مبنى الاحتفالات تم تدويرها، والدفع بها إلى مكان ما فى الفضاء الخارجى. لم يكن معقولاً – فى هذه المرة – أن يقوم الأرضيون بالهبوط فوق كوكب مناسب لهم. والاحتمال الأرجح أن اليوتوبيين ألقوا بهم فى الفراغ، فى الفضاء المجهول بين النجوم، إلى عالم غير معروف. ما الذى سوف يحدث لهم آنذاك؟ سوف يتجمدون ويخرج الهواء من أجسامهم، ويدفعون بقوة نحو بعضهم البعض، مما يؤدى إلى سحقهم معاً، وانهيارهم. على الأقل لن يكون ثمة وقت للمعاناة، إذ سوف يلهثون للحظات وينتهون، كشخص ألقى به فى مياه مثلجة. راح يتدبر هذه الاحتمالات لعدة دقائق. ثم قال بصوت مرتفع: "لقد قذفوا بهم بعيداً! كما يُقذف بمصيدة مليئة بالفئران، من على ظهر سفينة إلى لجة المياه" استدارت

(ليكنيس) إليه وقالت: "إننى لا أفهم". حينئذ قال لها متوسلاً: "والآن أخبرينى. ما الذى سوف يحدث لى؟".

(٤)

لوهلة لم تعط (ليكنيس) أية إجابة. وراحت تنظر بعينين متبلدتين، إلى اللون الأزرق الضبابى المتلاشى، الذى ينعكس من السماء على النهر الكبير بالوادى. ثم استدارت إليه وسألته: "هل تريد أن تبقى فى هذا العالم؟" أجابها بسرعة: "بكل تأكيد. إن أى أرضىّ يتمنى أن يبقى فى عالمكم هذا. إن جسمى قد تم تطهيره وتخليصه من كل الجراثيم، وأصبح سليماً معافياً. فلماذا لا أستقر هنا؟".

عادت تسأله بإلحاح: "هل يبدو عالماً مناسباً لك؟".

أجابها بصدق: "إنه عالم تتوفر فيه المحبة والنظام والصحة والحيوية ويزخر بالعجائب. إن فيه كل الأشياء الجيدة التى يتمناها الأرضيون ويسعون لتحقيقها".

- "ومع هذا فإن عالمنا تنقصه القناعة".

- "يمكننى أن أكون قانعاً".

- "فى هذا الجو الرائع يمكننى أن أصير قوياً وممتلئاً بالحيوية والنشاط فى العقل والجسم. وأستطيع أن أصبح أكثر شباباً فى هذا العالم. ولعدة سنوات قادمة – حسب نظامكم التقويمى – سأظل شاباً".

ومن جديد ظلت صامتة لفترة. وفى التو غمر المشهد أمامهما لون أزرق باهت، ومن خلفه الظلال السوداء للأشجار القائمة على منحدر التل. كانت التلال مرئية على مرمى البصر، فى مقابل اللون الأزرق الضارب للصفرة واللون الأصفر الشاحب للسماء بعد الغروب.

لم يعهد السيد (بارنستابل) أبداً مشاهدة حلول الليل يصاحبه كل هذا الصفاء والهدوء. ولكن كلماتها حرمته مما يشعر به، إذ قالت: "هنا لا توجد راحة. ففى كل صباح يستيقظ الرجل – أو المرأة – ليسأل: ما الجديد الذى سوف نفعله اليوم؟ ما الذى سنغيره؟".

- "لقد غيروا العالم بالفعل، وطهروه من المرض والفوضى ليصبح عالماً يسوده الجمال ويظلله الأمان. وحولوا همجية دوافع البشرية، إلى رابطة متينة من المعرفة والقوة".

- "ولكن البحث لا يتوقف وحب الاستطلاع يتعاظم والرغبة فى الاستحواذ على قوة أكبر تتزايد، كل هذا يستهلك موارد عالمنا".

- "إنها أمور مشروعة ولصالح عالمكم. إنني مرهق الآن وأشعر بضعف بالغ، وكأنني ولدت لتوى، ولكن فى الوقت المناسب، عندما أصبح أكثر قوة، فقد أشارك فى أنشطتكم ويكون لى دورا فى هذه الإنجازات العظيمة التى تجرى على قدم وساق فى الوقت الراهن. من يدرى؟".

ابتسم لعينيها العطوفتين عندما قالت: "يجب أن نتعلم الكثير".

اتضح لها فشلها وهى تنطق بهذه الكلمات.

فكر السيد (بارنستابل) فى تلك الاختلافات العميقة - التى أحدثتها ثلاثة آلاف عام من التقدم - على الخطط الأساسية وأساليب التفكير للجنس اليوتوبى. وتذكر بأنه فى اليوتوبيا سمع فقط الأفكار التى يمكنه أن يفهمها، وأن كل ما هو خارج عن نطاق أفكاره الأرضية، لم يكن مسموعاً فى ذهنه. وربما كانت الثغرات الواسعة من سوء الفهم أكثر عمقاً مما كان يفترضه.

قال: "إن الاكتشافات الجديدة ليست هى الشىء الوحيد الذى أريد أن أشارك فيه. فربما كانت تفوق قدراتى، إن ما أود الإسهام فيه، هو هذه الحياة اليومية الرائعة، تلك الحياة التى كانت تمثل مجرد أضغاث أحلام يقظة، عندما كنت فى كوكب الأرض، وصارت هنا

حقيقة واقعة. هذا ما أريد أن أشارك فيه. إننى أريد فقط أن أعيش فى هذا المكان. سوف يكون هذا كافياً لى".

قالت (ليكنيس): "مازلت ضعيفاً ومرهقاً. وعندما تصبح قوياً ربما تكون لك أفكار أخرى".

- "ولكن ما هذه الأفكار الأخرى"؟

- "قد يأخذك تفكيرك بعيداً إلى عالمك وحياتك الخاصة هناك".

- "أعود إلى كوكب الأرض!".

نظر بعيداً إلى الشفق للحظات، ثم عادت تنظر إليه قائلة: "أنت أرضىّ المولد والتوجه. ما الذى يمكنك أن تكونه غير هذا؟".

توقف ذهن السيد (بارنستابل) عند هذه الفكرة، ورقد يمعن التفكير فيما قالته، وأضواء اليوتوبيا تتألق لتبدد الظلام الأزرق الداكن للسماء، وتمتد فى شكل سلاسل ومجموعات تندمج معاً، لتكوّن رقعًا ضبابية متوهجة.

لقد اتضحت الحقيقة فى ثنايا كلماتها، إن هذا العالم المجيد.. عالم اليوتوبيا بكل ما فيه من كمال وأمان، على أهبة الاستعداد للانخراط فى مغامرات مروعة إلى عوالم مجهولة لم يسافر إليها أحد من قبل. إنه عالم مردة لطفاء، يسوده الجمال الفريد. عالم مشاريع

ليس للأرضيين أى دور للمساعدة أو المشاركة فيها. لقد تخلصوا من الأرضيين على كوكبهم، مثل شخص يفرغ حافظة نقوده مما بها، قذفوا بهم عبر النجوم.. وبرغم هذا كان اليوتوبيون طيبين بل غاية فى الطيبة.. ولكنهم كانوا مختلفين.

الفصل الثانى

متسكع فى عالم مفعم بالحياة

(١)

لم يمض سوى بضعة أيام إلا واستعاد السيد (بارنستابل) عافيته الجسمية والذهنية، ولم يعد يتمدد على سريره فى القاعة المسقوفة، بعد أن شعر بالرثاء لحاله وبجمال وروعة عالم مقهور على أمره.. وبدأ يتحرك على حريته وسرعان ما وجد نفسه يسير لمسافة طويلة فى أنحاء الريف اليوتوبى، يبحث عن المعارف الجدد ويتعلم المزيد عن عالم العجائب، هذا الذى تتحقق فيه جميع احتياجات البشر.

نعم كان ذلك أكثر شيء أثار انتباهه واهتمامه، إذ هنا تم تقريباً التغلب على كل الشرور الكبيرة للحياة البشرية مثل الحروب والأوبئة والإزعاجات والمجاعات والفقر، ولم يعد لها مكان على خريطة الممارسات البشرية. كما تم تحقيق آمال الفنانين والجماعات الرومانسية المثالية وكل ما يتعلق بعالم يتحول إلى التآلف والجمال

والكمال.. بينما تسود فى المجتمع روح النظام والتنظيم.. ذلك أن كل تلك الإنجازات غيرت كل جانب من أوجه حياة الإنسان.

المناخ السائد فى "وادى الراحة" كان لطيفاً ومشمساً مثل مناخ جنوب أوروبا، لكن كل شيء تقريباً يماثل الأجواء الإيطالية أو الأسبانية كان غائباً تماماً. هنا لا يوجد أى عجوز شمطاء منحنية الظهر تنوء بحملها أو شحاذون يطاردونك فى كل مكان، أو عمال يرتدون ملابس رثة ينحنون على جانب الطرق. واختفت صفوف المنازل الكئيبة والتجمعات المزعجة للمزارع اليدوية وأشجار الزيتون المتشعبة وأشجار الكروم المقطوعة والرقعات الصغيرة من الحبوب والفاكهة وأساليب الرى المقعدة فى تلك الظروف البدائية، وحل محلها مشروعات شاملة للصيانة والمتابعة والوقاية، والتدبير البارع العام للمنحدرات والتربة وضوء الشمس. ليس هناك أى ماعز أو خراف هزيلة يرعاها رعاة أطفال وسط الصخور والتلال، ولا ماشية مقيدة للرعى فى مراعٍ معينة لا تتجاوزها قط.

ليس هناك أية حظائر على جوانب الطرق، ولا أماكن مقدسة بها صور أو تماثيل معذبة تقطر دماً، ولا كلاب ضالة متسللة خلسة ولا حيوانات أُشبعت ضرباً، تتصبب عرقاً وتلهث أثناء تحميلها بحمولات لا طاقة لها بها فوق طرقات وعرة ومنحدرة تنتشر فيها الصخور والقاذورات. وبدلاً عن ذلك انتشرت طرق ممهدة للغاية ولا

يمكن تخريبها وذات انحدارات تدريجية سلسة وممرات ضيقة ووديان متقاطعة عبر جسور ذات قناطر واسعة وممرات نافذة (تشبه ممرات الكنيسة) تخترق جوانب التلال ومواقع حصينة تشرف على بعض المشاهد الطبيعية الرائعة. وهنا توجد أماكن للاستراحة وسلالم تتسلق إلى أشجار خلابة ومنتجعات صيفية يلتقى فيها ويأوى إليها الأصدقاء والأحباب.

هنا توجد حدائق وبساتين وممرات تحفها الأشجار من الجانبين بشكل لم يره من قبل، إذ على الأرض لا يوجد حتى الآن سوى أشجار غير كاملة النمو، لأن معظم أشجارنا تجوّفها وتأكلها الطفيليات وتتعفن بواسطة الفطريات؛ وتصبح أكثر فساداً وتشوهاً ومرضاً من الإنسان ذاته. الشكل العام اشتركت فيه تصميمات متأنية طوال خمسة وعشرين قرناً من الزمان. وفى أحد المواقع وجد السيد (بارنستابل) أعمالاً إنشائية عظيمة جارية، حيث كان يتم استبدال أحد الجسور، ليس لأنه تآكل أو تقوض، وإنما لأن شخصاً ما ابتكر تصميماً أكثر روعة وجمالاً له!

ظل لبعض الوقت لم يلحظ غياب الاتصالات الهاتفية والبرقية، ذلك أنه لم ير الأعمدة ولا الأسلاك التى تميز مواقع تلك الخدمات بالريف. إنه سوف يعرف أسباب هذا الفارق فيما بعد. كما أنه لم يلحظ فى البداية اختفاء السكة الحديدية ومحطات القطارات والفنادق

المجاورة لها. غير أنه أدرك أن المبانى الكثيرة لابد أن لها وظائف معينة، لأن الناس يدخلونها ويغادرونها وعليهم علامات الجد والانهماك، وبدا على بعضهم الانشغال الشديد جداً.. كان كل ذلك دليلاً على أن نشاطاً أو عملاً من نوع ما يجرى على قدم وساق، ولكن تصوره عن التنظيم الآلى لهذا العالم الجديد الغريب كان قاصراً عن محاولة فهم الهدف من هذا المكان أو ذاك. وأخذ يسير فاغراً فاه كشخص بدائى يسير فى بستان.

لم يكن هناك أى مدينة على مدى بصره، إذ أن سبب التقارب الشديد للبشر اختفى إلى حد كبير، لكنه عرف أنه فى أماكن معينة كان الناس يتجمعون للدراسة أو المناقشة المتبادلة أوالقيام بأى مبادلات أخرى مناسبة داخل سلسلة ضخمة من مبان مخصصة للاتصالات بيد أنه لم تتح له أبداً الفرصة لزيارة أحد مراكز الاتصالات هذه.

وفى جميع أرجاء هذا العالم كان شعب اليوتوبيا، الذى يتميز بطول القامة والشعر الأصفر والصفات المدهشة، يتحركون هنا وهناك وهم يبتسمون أو يومئون إليه بإشارات ودية عند مرورهم به، بدون أن يتركوا له تقريباً أى فرصة للسؤال أو الحوار، إنهم ينتقلون بسرعة فى آلات على الطرق السريعة أو يسيرون على الأقدام. وبين كل حين وآخر يمر من فوقه خيال طائرة محلقة فى هدوء، وخالجه

شعور ما بالخوف من أولئك الناس وشعر بأنه مخلوق غريب، كلما التقت عيناه بأعينهم. فمثلما الحال مع الآلهة اليونانية والرومانية فقد كانت آلهتهم هي البشرية النقية النظيفة الكاملة، والحقيقة أنهم بدوا له كآلهة.. وحتى الحيوانات المستأنسة التي تتحرك على هواها في أرجاء هذا العالم فقد كان لها نوع من هيبة الآلهة التي تصدم تعبير الصداقة والود والمرتسم على وجه السيد (بارنستابل).

(٢)

الآن عثر على رفيق لتسكعه هنا وهناك.. صبي في الثالثة عشرة هو ابن عم (لينكيس) ويدعى (كريستال).. وهو يافع مجعد الشعر بني العينين مثله، وكان يقرأ كتاباً في التاريخ في يوم عطلة رسمية من الدراسة.

حتى الآن؛ فإن كل ما يستطيع السيد (بارنستابل) تذكره من الجزء الأكثر أهمية في تدريبه الذهني هو أنشطته في الرياضيات المرتبطة بالعلوم الفيزيائية والكيميائية، إلا أن كل ذلك يتجاوز نطاق أفكار أي إنساني أرضي. وبدا أن أكثر تلك الأعمال تمت بالاشتراك مع صبية آخرين، وأنها ما يطلق عليه أبحاث في كوكب الأرض.

ولم يكن السيد (بارنستابل) يتقن طبيعة نوع آخر من الدراسة التى بدا أنها تحدث تهذيباً فى التعبير. لكن التاريخ يجمع كل ذلك بجوار بعضه البعض. الصبى كان يتعلم لتوه كيفية تطور النظام الاجتماعى اليوتوبى منبثقاً عن الكثير من الجهود والخبرات فى عصور الظلام والاضطراب الماضية، وخياله زاخر بالصراعات المأساوية التى تأسس عليها النظام اليوتوبى الحالى.. ولديه مئة سؤال للسيد (بارنستابل)، وعقله ممتلئ بمعلومات واضحة ومحددة مقدر لها أن تغوص حالياً لتصبح جزءاً من أساسات عقله الناضج.

كان السيد (بارنستابل) بالنسبة إليه فى مثل جودة الكتاب، بينما هو بالنسبة للسيد (بارنستابل) بمثابة دليل أو مرشد. وطفقا يسيران معاً ويتحدثان وهما يشعران أنهما متساويان تماماً، هذا الأرضى فائق الذكاء وذاك الغلام اليوتوبى الذى يفوقه طولاً بنحو بوصة لو وقفا جنباً إلى جنب.

الصبى يمتلك كل الحقائق العريضة للتاريخ اليوتوبى عند أطراف أصابعه، ويمكنه أن يفسر وأن يشعر بالاهتمام بتفسير، كيف يستمر السلام والأمن الصناعى ويستقر فى اليوتوبيا حتى الآن. وكما قال فإن اليوتوبيين فى الأصل يشبهون تماماً أجدادهم الذين عاشوا فى بدايات العصر الحجرى الحديث منذ ١٥ – ٢٠ ألف عام مضت. بيد أنهم، مازالوا، يشبهون ما كان عليه الأرضيون فى تلك الفترة

الزمنية، منذ ذلك الحين لم يظهر أكثر من ٦٠٠ – ٧٠٠ جيل، بينما لم يتوفر أى وقت لحدوث تغييرات جوهرية فى السلالة. بل إنه لم يحدث أى تهجين عام للسلالات.

الواقع أن شعوباً داكنة وسمراء عاشت في اليوتوبيا، مثلما عاشت على الأرض، وظلت محتفظة بخصائصها، واختلطت الأجناس المختلفة اجتماعياً ولكنها لم تتهجن ببعضها البعض، وكل ما حدث أنها نقت وكثفت مزاياها السلالية وخصائصها الجمالية. وصحيح أنه كان يوجد كثير من الحب والعواطف بين أفراد من جنسين متباينين، إلا أن تلك الحالات لم تثمر ذرية إلا نادراً جداً.

وخلال الاثنى عشر قرناً الماضية تقريباً كانت ثمة إبادة متعمدة للأنواع القبيحة والمؤذية والهزيلة والغبية والكئيبة، ولكن باستثناء التحقيق الكامل لقدراته الكامنة، فإن الإنسان اليوتوبىّ العادى لم يختلف تقريباً عن الإنسان العادى النشط البارع الذى عاش فى العصر الحجرى الحديث أو مجتمع العصر البرونزى الأول. كانوا بالقطع أفضل تغذية وتدريباً وتعليماً، وكانت لياقاتهم الذهنية والبدنية قوية وممتازة، إلا أن طبيعتهم كبشر من دم ولحم لم تكن تختلف قط عنا.

قال السيد (بارنستابل) بلهجة المصر على فكرته لبعض الوقت: "ولكن هل تريد أن تقول لى إن نصف الأطفال المولودين فى اليوتوبيا حالياً قد يكبرون ويصحبون آلهة مثل أولئك الناس الذين أقابلهم؟".

:"على أساس أنهم يتنفسون هواءنا ويعيشون فى نفس جونا".

:"وأن لهم نفس تراثكم الحضارى".

:"وأنهم يتمتعون بكل الحريات التى نتمتع بها".

كان على السيد (بارنستابل) أن يتذكر أنه في ماضى اليوتوبيا – فى عصر الفوضى والتخلف – كبر كل شخص ولديه إرادة عاجزة أو محبطة من جراء القيود البالية والأوهام المضللة الشائعة. ومازالت اليوتوبيا تفهم أن الجنس البشرى كان أصلاً حيوانياً وهمجياً وكان عليه أن يتشكل ويتكيف وفقاً للمتطلبات الاجتماعية، إلا أن اليوتوبيا تعلمت طرقاً أفضل لهذا التكيف بعد سلسلة لا نهاية لها من الإخفاقات بسبب القهر والقسوة والخداع.

قال السيد (بارنستابل): "على الأرض.. نحن نروّض الحيوانات بالأغلال ورفاقنا من البشر بالعنف والاحتيال".. ثم وصف السيد (بارنستابل) المدارس والكتب والجرائد والمناقشات العامة فى أوائل القرن العشرين لرفيقه المشدوه الذى لا يكاد يصدق ما يسمعه!

ثم أردف قائلاً: "إنك لا تستطيع أن تتصور مدى إرهاق وخوف حتى الأشخاص المهذبين المحترمين على الأرض.. إنك تعرف عصر الفوضى والارتباك فى تاريخكم، لكنك لا تدرى شيئاً عن حقائق البيئة الذهنية أو الفعلية السيئة، بيئة القوانين الضعيفة والكراهية والخرافات، وعندما يلف الظلام الأرض فى كل يوم تجد مئات الآلاف من الناس الذين يفترض أن يكونوا نائمين ممددين على سررهم يقظين يرتعدون خوفاً من هجوم مجرم عليهم أو يخشون الدخول فى منافسة عسيرة أو يهابون من الفشل فى أعمالهم ومساعيهم أو يرتعدون من الإصابة بمرض لا يكتشفونه أو محبطين بسبب صراع لا عقلانى يواجههم أو مخبولين من جراء غريزة شاذة أو رغبة مكبوتة منحرفة".

اعترف (كريستال) بأنه من الصعب عليه أن يفكر الآن فى عصر الفوضى من منظور البؤس والشقاء، كثير من البؤس الأرضى، لا يمكنه أن يتصوره الآن، إذ أن اليوتوبيا وصلت ببطء شديد إلى التآلف والتناسق الحالى بين القانون والعادات والتعليم. لم يعد الإنسان محبطاً أو مقهوراً بعد أن اتضح أنه أساساً حيوانى الغرائز، وأن حياته اليومية يجب أن تسير فى طريق إشباع شهواته وإطلاق غرائزه. الحياة اليومية للإنسان اليوتوبى تشتمل على أطعمة ومشروبات مختلفة وممتعة وتمرينات وأعمال حرة مسلية وممتعة

ونوم جميل هادئ وممارسة للحب في جو من المتعة والسعادة بدون خوف أو حقد، على أن يكون كبح هذه الغرائز في أقل الحدود الممكنة.

ولكن عندما بدأت قوة التعليم اليوتوبى في الظهور، كانت الغرائز الحيوانية قد تم إشباعها والتخلص منها. إن المعجزة التى أخرجت اليوتوبيا من عصر فوضى حياة البشر كانت هى حب الاستطلاع والرغبة فى اللهو واللعب التى اتسعت وامتدت فى حياة البالغين حتى وصلت إلي غريزة لا يمكن إشباعها في حب المعرفة والاستكشاف المبدع الخلاق. وهكذا أصبح كل اليوتوبيين كأطفال صغار يتعلمون وينتجون.

كان غريباً أن يسمع السيد (بارنستابل) هذا الصبى وهو يتحدث بصراحة ووضوح هكذا عن النظام التعليمى الذى مازال يدرس به، وخصوصاً وهو يتحدث بهذه الصراحة عن الحب. ولكن الحياء الأرضى منع السيد (بارنستابل) من أن يسأله: "ولكن أنت.. هل تمارس الحب؟".

قال الصبى، ومن الواضح أنه قال ما تعلم أن يقوله: "كان لدى حب استطلاع فى بعض الأمور.. ولكن ليس من الضرورى أو اللائق ممارسة الحب مبكراً جداً فى الحياة أو ترك غرائز المرء

تتحكم فيه. إذ إن ما يُضعف الشباب أن تسيطر عليه رغباته مبكراً، وهى عادة لا تترك المرء بعد ذلك قط. وهى تتلف وتضعف خياله.. وأنا أريد أن أقوم بأعمال جيدة مثلما فعل أبى من قبل".

نظر السيد (بارنستابل) إلى الشكل الجانبى لوجه الصبى الجميل الجالس بجواره، وسرعان ما تداعت إلى ذهنه ذكريات مقلقة بخصوص الدراسة بالمدرسة، وبعض المراحل الكئيبة التى مر بها فى فترة المراهقة والحجرة السرية المكتومة الهواء، إنها الحقيقة المثيرة الكئيبة، وشعر بأنه أرضىّ أكثر حيوانية من ذى قبل. ثم قال للصبى وهو يتنهد: "يا عزيزى إن هذا العالم، عالمكم، نورانىّ وعذب مثل الماء البارد فى يوم شديد الحرارة".

قال الصبى: "إننى أحب الكثير من الناس، ولكن ليس بعاطفة وهيام، لأن ذلك سوف يأتى فى يوم ما.. إذ يجب ألا يكون المرء متلهفاً جداً وقلقاً لمقابلة الحب العاطفى وإلا فإنه قد يقع فى حب زائف غير حقيقى.. ليس هناك عجلة فى هذا الأمر.. لن يستطيع أحد أن يمنعنى من الحب عندما أصادفه.. كل الأشياء الجيدة فى هذا العالم تأتى فى الوقت المناسب الصحيح".

ولكن العمل لا ينتظر أحد، لأنه أمر يتعلق بكيان أو ذات الإنسان نفسه وعلى المرء أن يذهب إليه. (كريستال) فكر كثيراً فى

العمل الذى يريد أن يمتهنه. وبدا للسيد (بارنستابل) أن العمل، من حيث أنه مجهود شاق غير مناسب، قد اختفى تماماً من اليوتوبيا. ومع ذلك فإن كل سكان اليوتوبيا يعملون، وكل منهم يؤدى عملاً يتفق مع قدراته واستعداده ويتفق مع خياله كعامل. كل شخص يعمل بسعادة وهمة، مثلما يفعل ما نسميهم العباقرة على الأرض.

وفجأة وجد السيد (بارنستابل) نفسه يخبر (كريستال) بسعادة الفنان الحقيقى والعامل العلمى المجد والشخص المبدع حتى على الأرض فى يومنا هذا. فهم يقومون أيضاً مثل اليوتوبيين بأداء الأعمال التى تهمهم وتحقق، من وجهة نظرهم، أهدافاً عظيمة. ومن بين كل الأرضيين فإنهم أكثر من يحسدهم الآخرون.

قال السيد (بارنستابل): "إذا كان هؤلاء الأشخاص غير سعداء على الأرض، فذلك لأنهم يتأذون من خشونة وفظاظة الآخرين، ولا يزالون يبالون بالنجاحات التى تشوه السمعة والاحترامات والتبجيلات وأيضاً إشباعات السوقة غير المثقفين، ولا يزالون يشعرون بالإهمال وتقييد الحركة وهى أشياء يجب ألا تكون موجودة. ولكن بالنسبة إليه بعد أن رأى بعينيه ذلك التقدم المذهل فى اليوتوبيا فإنه لم يعد يشعر بأى احترام أو جلال للأرض.

(٣)

كان (كريستال) مازال فى سن يفخر فيه بكياسته ولباقته الاجتماعية، وجلب للسيد (بارنستابل) كتبه وحدثه عن معلميه وتمريناته الدراسية.

مازالت اليوتوبيا تستخدم الكتب المطبوعة، وهى كتب بسيطة وواضحة للغاية بحيث تعرض للعقل الهادئ المعلومات الأساسية. وكانت كتب (كريستال) مغلفة بجلود مرنة رائعة زينتها أمه له على نحو جميل ومكونة من ورق مصنوع يدوياً. أما الحروف المطبوعة فكانت بلغة منطوقة فصحى لم يستطع السيد (بارنستابل) فهمها، وإن كانت تذكره باللغة العربية وتشتمل على تخطيطات كثيرة وخرائط وأشكال متباينة. وكان أحد معلمى (كريستال) نصحه بأن يعزز قراءاته أثناء العطلات بزيارة المتاحف، لكنه لم يكن هناك فى (وادى السلام) متحف مناسب يمكن للسيد (بارنستابل) زيارته.

أتم (كريستال) المرحلة الابتدائية من التعليم التى تجرى، كما قال، فى محافظات تعليمية كبرى مخصصة كلية لحياة الأطفال. وبدا أن التعليم حتى سن الحادية أو الثانية عشرة، يتم مراقبته وتعزيزه والعناية به مثلما يتم الوقاية من العدوى بالأمراض والكوارث الطبيعية. وقبل أن يتم الطالب عامه الثامن أو التاسع تكون أساسات

الشخصية اليوتوبية قد غرست فيه، جنباً إلى جنب مع عادات النظافة والصدق ومساعدة الآخرين والثقة فى العالم اليوتوبى والشجاعة والشعور بالانتماء إلى جنسه، والهدف العظيم الذى يعمل على تحقيقه.

فقط بعد سن التاسعة أو العاشرة يمكن للطفل الخروج من بيئة نموه المبكر، والبدء فى رؤية النظم الفعلية أو العادية للعالم الذى يعيش فيه. وحتى ذلك العمر، تظل رعاية الأطفال أساساً بين أيادى الممرضات والمعلمين، لكن بعد ذلك الوقت يزداد الدور الذى يلعبه عما كان عليه وقت الصغر ودائماً كان من عادة أبوىّ الطفل الاقتراب من الطفل ومشاهدته فى أيام الحضانة. ولكن فى الوقت الذى ينفصل فيه الآباء والأمهات الأرضيون عن أطفالهم عندما يلتحقون بالمدارس أو يمارسون أعمالاً ومهناً، فإن الآباء والأمهات اليوتوبيين اعتادوا أن يكونوا أكثر قرباً من أطفالهم.

سادت فى اليوتوبيا فكرة وجود تعاطف مزاجى ضرورى بين الأبوين والطفل، وبينما يتوقع الأطفال الصداقة والصحبة من الأبوين، فإن الأبوين يهتمان بمصالح طفلهما أثناء المراهقة، ورغم أن الأب أو الأم ليس له عملياً أى سلطة على الابن أو الابنة، فإنه يلعب فى الحقيقة دور الناصح أو الموجه أو الصديق المتعاطف. وتُعد الصداقة الأكثر صراحة وقرباً بسبب غياب السلطة وكذلك الأكثر سهولة، لأنه

مع تعاقب الأجيال أصبح اليوتوبيون أصغر سناً وأصفى ذهناً من الأرضيين. والواضح أن (كريستال) كان يكن عاطفة قوية تجاه أمه، كما كان فخوراً جداً بوالده الذى كان رساماً ومصمماً رائعاً، إلا أن الأم كانت هى التى تمتلك قلب الصبى.

أثناء تجوله لثانى مرة مع السيد (بارنستابل) قال: إنه ذاهب لكى يسمع من أمه، وكان بعضهم أورى السيد (بارنستابل) الشىء الذى يناظر التراسل الأرضى فى اليوتوبيا. وأخذ (كريستال) معه حفنة قليلة من الأسلاك وقضباناً مضيئة وتوجه إلى مكان يرتفع فيه عمود وسط منطقة تنمو فيها الحشائش، وهناك فرد الأسلاك بشدّها على أصابعه، ثم لولب مسماراً صغيراً فى العمود بواسطة مفتاح يحمله فى سلسلة ذهبية خفيفة حول رقبته. وبعد ذلك تناول سماعة متصلة بأدواته وتحدث بصوت عال وأنصت والآن سمع صوتاً.

كان صوتًا رقيقًا وجميلاً لامرأة تتحدث إلى (كريستال) لفترة من الوقت بدون توقف، ثم تحدث (كريستال) وبعد ذلك جاءت أصوات أخرى أجاب (كريستال) عن بعضها، والبعض الآخر سمعه فقط بدون أن يرد عليها. ثم جمع أدواته من جديد.

هذا الذى تعلمه السيد (بارنستابل)، كان النظير أو المكافئ اليوتوبى للرسالة والهاتف. ذلك أنه فى اليوتوبيا، بخلاف ما يتم بناء

على ترتيبات مسبقة، لا يتحدث الناس مع بعضهم البعض على الهاتف، وإنما تُرسل رسالة إلى محطة المنطقة التى يوجد بها المُستَقْبِل وتبقى هناك فى مكانها حتى يقوم المستقبل باستعراض رسائله المتجمعة، ويمكنه تكرار سماع أى رسالة يختارها، وعندئذ يرد على مرسلى الرسائل ويرسل هو نفسه لهم الرسائل التى يجب إرسالها، ويتم هذا الإرسال لاسلكياً.

والأعمدة الصغيرة توفر التيار الكهربائى اللازم لإرسال الرسائل أو لأى غرض آخر يريده اليوتوبيون. فمثلاً يستخدمها البستانيون لتشغيل آلات قص الحشائش والحفارات وشوكات تقليب التربة.

بعيداً جداً عبر الوادى أشار (كريستال) إلى محطة المنطقة التى تتجمع فيها الرسائل وتُستدعى.القليل جداً من الناس كانوا يعملون بها، لأن كل أجهزة الربط تقريباً كانت تعمل آلياً، وفى كل جزء من المحطة كانت الرسائل تأتى وتذهب. وقد أثار ذلك لدى السيد (بارنستابل) سلسلة طويلة من التساؤلات. فقد اكتشف لأول مرة أن مؤسسة الرسائل فى اليوتوبيا كانت على دراية كاملة بمكان وجود كل إنسان على الكوكب، بمعنى أن لديها سجلاً بكل شخص حى وبمنطقة الرسائل التى يوجد بها. فكل إنسان مسجل ومفهرس.

بدا ذلك للسيد (بارنستابل) الذى كان معتاداً على البلادة والخداع من المؤسسات الأرضية، اكتشافاً مرعباً إلى حد كبير.. وقال: "على الأرض مثل ذلك النظام سوف يكون وسيلة لسبل لا تنتهى من عمليات الابتزاز والفساد.. كل إنسان يصبح عرضة للتجسس عليه.. كان لى صديق فى سكوتلانديارد، ولو كان موجوداً فى هيئة اتصالاتكم هنا لجعل الحياة فى اليوتوبيا غير محتملة فى أسبوع واحد.. الحقيقة لا يمكنك أن تتصور المضايقات التى كان سيتسبب فيها".

وجد السيد (بارنستابل) نفسه مضطراً لأن يشرح لـــــ (كريستال) معنى كلمة "ابتزاز"، وسرعان ما قال (كريستال) إن مثل هذا موجود فى اليوتوبيا بداءة، لأنه فى اليوتوبيا- مثلما أنه فى الأرض - يوجد ميل أو استعداد طبيعى لاستغلال المعلومات والسلطة لمصلحة معارف المرء، كما توجد الخشية نفسها من ذيوع المعلومات والأسرار الخاصة بالشخص. وفى العصر الحجرى فى اليوتوبيا احتفظ الناس بأسمائهم الحقيقية لأنفسهم، وكانوا يُعرفون بأسماء مستعارة. كانوا جميعاً يخافون التعرض للأذى والسحر.

قال السيد (بارنستابل): "بعض الهمجيين لازالوا يفعلون ذلك على الأرض". ولم يتمكن اليوتوبيون من الثقة فى الأطباء البشريين وأطباء الأسنان، ولم يصبح الأطباء البشريون وأطباء الأسنان محل

ثقة إلا ببطء شديد. واحتاج الأمر إلى عشرات القرون قبل التصحيح الفعال للانتهاكات الكبرى فى الثقة والأمان اللازمين للأنظمة الاجتماعية الحديثة.

كل يوتوبى يافع عليه أن يتعلم المبادئ الخمسة للحرية التى يستحيل قيام حضارة بدونها. وتعنى هذه الحريات بحفظ خصوصية الحقائق والأسرار الشخصية للأفراد بين المواطن والمؤسسات العامة التى يأتمنها عليها، بحيث لا تستخدمها إلا لمصلحته وبموافقته. وبالطبع كل هذه المعلومات والحقائق متاحة للاستخدامات الإحصائية وليس كمعلومات وأسرار شخصية للأفراد.

المبدأ الثانى هو مبدأ حرية الحركة والتنقل، فأى مواطن معفى تماماً من أى مسئوليات والتزامات عامة، يمكنه الذهاب بدون إذن أو تفسير إلى أى جزء من الكوكب اليوتوبى. وكل وسائل الانتقال والمواصلات متوفرة لخدمته مجاناً. وكل مواطن يوتوبى يحق له تغيير منطقة سكنه والظروف المناخية التى يعيش فيها والمحيط الاجتماعى من حوله كيفما يشاء.

المبدأ الثالث هو مبدأ المعرفة الشاملة غير المحدودة، فكل شيء معروف فى اليوتوبيا - باستثناء المعلومات والأسرار الشخصية لأفراد أحياء - مسجل ومتاح بسهولة للجميع من خلال

سلسلة مثالية من القوائم المفهرسة والمكتبات والمتاحف ومكاتب الاستعلامات. وأياً كان ما يريد اليوتوبى معرفته، فإنه يحصل عليه بكل وضوح ودقة وسهولة، فى حدود سلطته على المعرفة ومهنته التى يمارسها. لا توجد معلومات يتم حجبها عنه، ولا يمكن تقديم أية معلومات خاطئة أو محرفة إليه. وبذلك يكون السيد (بارنستابل) قد وصل إلى المبدأ الرابع للحرية، وهو أن الكذب يعتبر الجريمة العظمى.

كان تعريف (كريستال) للكذب شاملاً بأنه ذكر غير دقيق للحقائق، وحتى كتمان أى حقيقة جوهرية يعتبر كذباً. وقال: "كلما وُجدت الأكاذيب لا توجد الحرية".

انبهر السيد (بارنستابل) بشدة بهذه الفكرة، وبدت لأول وهلة فكرة جديدة عليه، وأنها كانت موجودة دائماً فى عقله اللاواعى.. وتأكد أن نصف الفارق بين اليوتوبيا وعالمنا يكمن فى هذه الفكرة، ذلك أن جونا الأرضى تسمم من كثرة الأكاذيب والرياء والاحتيال.

قال السيد (بارنستابل) مبتدئًا شرحه المستفيض لـــ (كريستال) بشأن كل الأكاذيب والافتراءات السائدة فى حياتنا البشرية: "عندما يتأمل المرء فى هذا الأمر فإنه يصل إلى أن الافتراضات الأساسية فى التصورات والتداعيات الأرضية مازالت

الغالبية العظمى منها أكاذيب وافتراضات خاطئة فى الفارق الضرورى والحتمى فى الانتماء والجنسية، إدعاء الوظيفة والسلطة فى الأنظمة الملكية، التظاهر بتقديم تعليم منظم، المذاهب والاحتيالات الدينية والأخلاقية.. ولكن على المزء أن يتعايش مع كل ذلك، فهو جزء لا يتجزأ منه. إنك تشعر بأنك مقيد ومرهق ومحبط بل ومقتول من جراء كل تلك الأكاذيب والاختلافات الجنونية".

وتريث برهة ثم أردف: "الكذب هو الجريمة العظمى!.. ما أبسط هذا الكلام وأعمقه! .. إنه حقيقى وفى الوقت نفسه ضرورى!.. إن هذا التصور هو الفارق الرئيسى لحالة العالم العلمية فى اليوتوبيا عن كل الدول السابقة". ومنذ تلك اللحظة اندفع السيد (بارنستابل) فى شرح طويل جداً وبصوت عال منتقداً الكتب والأكاذيب والتزوير الذى تزخر به الصحف الأرضية.

كان ذلك موضوعاً قريباً جداً من قلبه.. إذ إن الصحف اللندنية توقفت عن ممارسة الدور المنصف وغير المتحيز بخصوص الأخبار، وذلك بحذف ما يشاءون وتشويه بعضها وتحريف البعض الآخر. إنهم ليسوا بأفضل من رايات إعلامية أو دعائية.. مثلاً جريدة (الطبيعة) فى مجالها الخاص كانت دقيقة ومكتملة تماماً، لكنها لم تكن أكثر من جريدة علمية، فهى لا تتناول قط الأخبار اليومية للناس. حيث إن الصحافة تعتبر الملح الوحيد الممكن لحياتنا المعاصرة، إذن

كيف يكون حالنا لو فقد هذا الملح نكهته! وكان الرجل المسكين يخطب كما لو كان رجع إلى منزله بسيدنهام وقبع خلف منضدة إفطاره، وهو يقرأ فى جريدة صباحية سيئة.

قال (كريستال) مهدئاً له: "حدث ذات مرة أن اليوتوبيا مرت بهذه الورطة ذاتها.. ولكن هناك مثل يقول (الحقيقة تعود دائماً إلى المكان الذى زارته من قبل)..لذلك لا داعى لأن تقلق يا رجل هكذا.. فيوم ما سوف تصبح صحافتكم حرة وصادقة".

قال السيد (بارنستابل): "لكن ماذا تفعلون بشأن الصحف والنقد؟".

شرح له (كريستال) كيف أنه كان ثمة فرق كبير بين الأخبار ومناقشتها فى اليوتوبيا – فقد كانت هناك منازل – لا يزال أحدها موجوداً على مرمى البصر، تستخدم كحجرات قراءة يذهب إليها الناس لكى يعرفوا الأخبار. وكانت توجد هناك تقارير عن كل الأشياء التى تحدث على الكوكب والأشياء التى يتم العثور عليها والأشياء المكتشفة والأشياء التى تم عملها وهكذا. هذه التقارير كان يتم إعدادها بحسب المطلوب.. ولم تكن هناك عقود الإعلانات التى تطلب الحجم نفسه من الأخبار كل يوم. ولبعض الوقت قال (كريستال): إن التقارير كانت ممتلئة للغاية وممتعة بأخبار

الأرضيين، غير أنه لم يكن يقرأ التقارير لأيام كثيرة بسبب الاهتمام بالتاريخ الذى ولدته عنده أخبار الأرضيين. وكانت هناك دائماً أخبار الاكتشافات العلمية الحديثة التى تثير الخيال والفكر.

كان أحد الأشياء المتكررة التى تثير اهتماماً واحتياجاً عاماً، هو طرح الخطوط العامة لمشروع بحثى كبير. مثلاً البحث الفضائى الجديد، الذى مات (آردن) و(جرينليك) فيه، طرح الكثير من الأخبار المهمة. وعندما يموت شخص فى اليوتوبيا، فإن العادة هى إخبار الناس بقصة حياته. ووعد (كريستال) السيد (بارنستابل) بأن يأخذه إلى مقر إخبارى ليسليه بأن يقرأ له بعض الأوصاف اليوتوبية للحياة الأرضية المستخلصة من الأرضيين أنفسهم، وطلب منه السيد (بارنستابل) بعد إتمام ذلك أن يسمع قصتى (آردن) و(جرينليك) اللذاين لم يكونا فقط مستكشفين عظيمين وإنما حبيبان عظيمان أيضاً، وكذلك أن يسمع قصة (سربنتين) و(سيدار) اللذين يعجب بهما كثيراً.

بالطبع الأخبار اليوتوبية تفتقر إلى "التوابل" الكثيرة التى تزخر بها الصحافة الأرضية، مثل قصص القتل المثيرة والتصرفات السيئة الممتعة، والنتائج المسلية والممتعة للجهل الجنسى والانتهاكات الجنسية وقضايا القذف والتشهير والكشف عن عمليات النصب والاحتيال وتحركات المواكب الملكية الضخمة التى تخالف قواعد المرور والتذبذبات الغريبة المفاجئة فى أسعار صرف العملات وفى مجال

الرياضة. ولكن بينما تفتقر أخبار اليوتوبيا إلى الحيوية والإثارة، فإن حيوية وإثارة المناقشة تعوض ذلك، ذلك أن المبدأ الخامس للحرية فى اليوتوبيا هو حرية المناقشة والنقد.

أى يوتوبى حر فى أن ينتقد ويناقش أى شىء فى الكون بأكمله، شريطة ألا يكذب بأى شكل مباشر أو غير مباشر، ويمكنه أن يكون محترماً أو لا يستحق أى احترام، الأمر متروك له، وبمقدوره أن يطرح أى رأى مهما كان هداماً، ويمكنه أن يستخدم أسلوب الشعر أو الخيال حسبما يشاء.. ويمكنه أن يعبر عن نفسه بأى شكل أدبى يرغب فيه أو بأى شكل تخطيطى أو كاريكاتيرى بحسب مزاجه.. المهم فقط هو أن يحجم عن الكذب؛ لأن هذه هى قاعدة المعارضة الصلبة الوحيدة. ويمكنه أن يطبع ما يريد أن يقوله ويوزعه على الحجرات الإخبارية، حيث تُقرأ هناك أو يطويها النسيان حسبما تروق للزائرين أم لا. والمعتاد أنهم لو أعجبوا بما يقرأونه، فإنهم يأخذون معهم نسخة منه.

كان لدى (كريستال) بعض الأفكار الخيالية الرائعة الجديدة حول استكشاف الحيز الفاصل بين كتبه، وهى القصص الخيالية التى ينكب الأولاد على قراءتها بشغف، تكون على شكل كتيبات من ثلاثين أو أربعين صفحة مطبوعة على ورق فاخر، قال: إنه يُصنع مباشرة من الكتان وبعض الأعشاب. ويسجل أمناء المكتبات كل

الكتب والمذكرات والأبحاث التى تُقرأ ويأخذها القراء معهم ثم يضعون نسخاً جديدة محلها. أما أكوام المطبوعات التى لا تقرأ فيجرى الآن اختصارها إلى نسخة واحدة أو نسختين ثم ترسل كل النسخ الأخرى إلى ماكينات عجن الورق. لكن كثيرًا من الشعراء والفلاسفة وقصاصى الحكايات الذين لا تجد ابداعاتهم الفنية أو الشعرية صدى واسعًا لدى أغلبية القراء، يتم مع ذلك ادخارهم وحفظ ذكراهم حية عن طريق القليل من محبيهم المخلصين لهم.

(٤)

قال السيد (بارنستابل): "ثمة شىء ليس واضحاً تماماً فى ذهنى.. أنا لم أر هنا أية عملات نقدية أو أى شىء يمثل المال ويستخدم فى هذا الكوكب، فمن حيث المظاهر الخارجية ربما تكون هذه فكرة شيوعية مثل تلك المطروحة فى كتاب نقدره كثيراً على الأرض، وهو كتاب يسمى "أخبار اللامكان"(١) تأليف رجل أرضى يدعى (ويليام موريس)(٢). إنه كتاب رائع، ولكنه مستحيل التطبيق فى هذا الحلم نجد أن كل إنسان يعمل من أجل التمتع بالعمل ثم فى النهاية

---

(١) من أوائل روايات اليوتوبيا، صدرت عام ١٨٩٠ (المترجم).

(٢) كاتب إنجليزى (١٨٣٤ – ١٨٩٦) (المترجم).

يحصل على ما يحتاج إليه. غير أننى لم أؤمن قط بالشيوعية؛ لأننى أدرك هنا فى اليوتوبيا أنه يبدو أنكم تدركون القسوة الطبيعية والجشع التلقائى لأى إنسان جاهل غير متعلم. نعم هناك فرحة فى أى شىء نبدعه لكى يستخدمه آخرون، لكن ليس ثمة فرح طبيعى فى أى خدمة بدون مقابل أو جزاء. إن إحساس المرء بالعدالة بالنسبة إلى نفسه أكبر من إحساسه بتلقى خدمة. لابد أن يقوم شخص ما هنا بموازنة العمل الذى يقوم به أى شخص لصالح اليوتوبيا، مقابل أى دمار أو استهلاك أو نقص.. فكيف تفعلون ذلك؟".

فكر (كريستال) ثم أجاب: "كان هناك شيوعيون فى اليوتوبيا فى آخر عصر من عصور الفوضى.. وفى بعض أجزاء من كوكبنا حاول البعض إلغاء النقود فجأة وبعنف، مما تسبب فى حدوث اضطراب اقتصادى هائل وانتشر الفقر والفاقة والبؤس. وعلى ذلك فشلت الخطوة المباشرة تجاه الشيوعية ولكن بشكل درامى جداً. ومع ذلك فإن اليوتوبيا الآن عبارة عن شيوعية من الوجهة العملية، ولولا صفة حب الاستطلاع عندى، لما أمسكت بيدى قط عملة نقدية طوال حياتى".

وشرح (كريستال) كيف أنه على اليوتوبيا، تماماً مثلما الحال على الأرض، ظهرت النقود كاكتشاف عظيم أو طريق إلى الحرية. وحتى ذلك الوقت – أى اختراع النقود – كانت كل الخدمات بين

شخص وآخر تتم من خلال العبودية أو المقايضة، فقد كانت الحياة وقتئذ مجرد عبودية واختيارات محدودة.

إلا أن المال فتح الباب أمام إمكان إعطاء العامل حريته فى اختيار مكافأته عن العمل والحقيقة أن اليوتوبيا احتاجت إلى ثلاثة آلاف عام وأكثر لكى تحقق هذه الإمكانية

إلا أن فكرة المال انطوت على أخطاء ومخاطر، وكان من السهل حدوث فساد فى التعامل بها، ومن ثم تخبطت اليوتوبيا – وهى تتقدم تجاه النجاح الاقتصادى – عبر قرون طويلة من تطبيق الائتمان والاقتراض واستخدام النقود الزائفة ومنخفضة القيمة واتباع الربا الفاحش، وكل طريقة ممكنة للمضاربة بالأموال.. وفيما يتعلق باستخدام الأموال، أكثر من أى اهتمام بشرى آخر، فقد أبرز المكر والخداع البشرى نفسه بأقصى حقارة وخسة لنهب أية مبالغ ممكنة. وذات مرة حملت اليوتوبيا، مثلما تحمل الأرض الآن، عدداً كبيراً من الفاسدين والمضاربين والمحبطين والمقامرين والمرابين الذين لا يرحمون ويحققون أكبر مكاسب ممكنة، من خلال استغلال نقاط ضعف النظام المالى، ولذلك فإنها احتاجت إلى قرون عديدة للمعافاة اقتصادياً.

وفقط عندما دخلت اليوتوبيا فى بدايات الوحدة السياسية على مستوى العالم، أصبحت إحصائيات الموارد العالمية والإنتاج الدولى، كاملة بشكل كاف بحيث تمكن المجتمع البشرى أخيراً من إعطاء العامل الفرد ضمانًا لحصوله على عملة ذات قيمة ثابتة تعنى بالنسبة إليه اليوم أو غداً أو فى أى وقت لاحق ضمان حصوله على قدر محدد من القيم الأساسية. ومع توفر الأمن والسلام في جميع أرجاء الكوكب وزيادة الاستقرار الاجتماعى فيه فإن الفائدة التى هى مقياس للخطر والشك تضاءلت إلى لا شىء تقريباً. وأصبحت المعاملات المصرفية خدمة عامة بحكم الضرورة؛ لأنها لم تعد تحقق أرباحاً لأصحاب المصارف المنفردين. وأضاف (كريستال) أن "طبقات أصحاب الدخول لم تعد عنصراً دائماً فى أى مجتمع، وأنهم أصبحوا مجرد مرحلة انتقالية بين فترة عدم الاستقرار وفترة انعدام الفائدة، وبتعبير آخر فإنهم مجرد ظاهرة بدائية لا أكثر".

استوعب السيد (بارنستابل) هذا الكلام بعد فترة من عدم التصديق، ولم يلبث أن أقنع نفسه ببضعة أسئلة. كان اليوتوبى الصغير لديه فكرة ما عن ماهية طبقة أصحاب الدخول، وما هى على الأرجح أخلاقياتها والقيود المتصورة لها والدور الذى يحتمل أن تكون قد لعبته فى التطور الفكرى للكوكب من خلال توفير طبقة من العقول المتميزة المستقلة.

قال (كريستال) وهو يكرر بديهية معروفة: "الحياة لا يمكنها تحمل كل الطبقات المستقلة.. فأنت إما أن تكسب رزقك بشرف وإما أن تسرق.. ونحن تخلصنا من السرقة تماماً".

استمر الصبى اليافع يتحدث بما تعلمه من كتابه شارحاً كيف تحقق الهجر التدريجى للنقود، وكان ذلك نتيجة للتنظيم المستمر العام للمنظومة الاقتصادية واستبدال المشروعات الجماعية بمشروعات تنافسية وتجارة الجملة بتجارة التجزئة. ومر على اليوتوبيا وقت كان فيه المال ينتقل من يد إلى يد فى كل صفقة أو خدمة تتم. فكان المرء يدفع نقوداً إذا أراد شراء جريدة، أو علبة ثقاب أو باقة من الورود أو ركوب أى وسيلة نقل فى الطريق. كل إنسان كان يذهب هنا وهناك وجيوبه ممتلئة بعملات صغيرة لكى يدفع فى أية عملية فى أى وقت.

بعد ذلك أصبح علم الاقتصاد أكثر استقراراً ودقة، وسرعان ما اتسعت طرق توزيع النفقات وتغطية الاشتراكات المتباينة.وكان بمقدور الناس شراء تذاكر ركوب مخفضة لكل وسائل المواصلات المتاحة لعام أو عشرة أعوام أو طوال حياة المرء. وطلبت النوادى والفنادق من الدولة توريد أعواد الثقاب والجرائد والأدوات الكتابية وتوفير الانتقالات منها وإليها مقابل رسم سنوى ثابت. وهذا النظام الشامل ذاته تم نشره لكل الأشياء الصغيرة والعرضية، إلى الأمور الجوهرية الكبرى والإسكان والغذاء وحتى شراء الملابس.

ونظام البريد الحكومى، الذى يعرف مكان تواجد كل مواطن يوتوبى، أصبح الآن قادراً، بالاشتراك مع النظام المصرفى العام، على ضمان رصيده فى أى جزء من الكوكب. وتوقف الناس عن تلقى المال لقاء عملهم، ودأبت كل المرافق الخدمية المختلفة والمؤسسات الاقتصادية والتعليمية وكل الأنشطة العلمية على إيداع مستحقات كل شخص فى مصرف عام وخصم أية نفقات نظير جميع الخدمات العادية التى يحصل عليها طوال حياته من تلك المستحقات.

قال السيد (بارنستابل): "يحدث شيء ما مثل ذلك على الأرض حتى الآن، فنحن نستخدم المال كملجأ أخير، غير أن قدراً كبيراً من أنشطتنا وتجارتنا تعتمد بالفعل على إمساك دفاتر الحسابات".

أعطت قروناً من الوحدة والطاقة اليوتوبيا سيطرة كاملة على مصادر كثيرة للطاقة الطبيعية على الكوكب، وبقى هذا تراثاً لكل طفل أو طفلة تولد هناك. فمثلاً وجد هو فى حسابه عند ولادته رصيداً من المال يكفى لتعليمه وتربيته حتى عمر الرابعة أو الخامسة والعشرين، وفى ذلك الوقت فإن المتوقع له أن يختار له مهنة ما تدر له عائداً يرفع من رصيد حسابه أكثر وأكثر.

قال السيد (بارنستابل): "ولكن ما الذى يحدث لو لم يفعل الطفل ذلك؟".

:"ولكن كل إنسان يفعل هذا.. هذا أمر طبيعى".

:"لا بأس.. ولكن لنفترض أنه لم يفعل ذلك.. فما الذى يحدث له؟"

:"إنه سوف يكون فى حالة بائسة وغير جيدة.. أنا لم أسمع قط بمثل هذه الحالة.. أعتقد أنه سوف تتم مناقشته.. ولعل علماء النفس يفحصون حالته.. لكن على أية حال، فلابد للمرء من أن يعمل شيئاً.

:"لكن لنفترض أن اليوتوبيا لم تجد أى عمل له؟"

لم يستطع (كريستال) أن يتصور هذا الأمر وقال: "هناك دائماً شىء يمكن للمرء أن يعمله".

:"لكن ذات مرة عندكم فى اليوتوبيا فى الزمن القديم تفشت البطالة بين الناس، أليس كذلك؟".

:"بلى ولكن ذلك كان جزءاً من الفوضى أو الاضطراب السائد وقتئذ. كان هناك نوع من تفشى الديون وتعاظمها لدرجة شلّت المجتمع.. والغريب أنه حدث فى وقت هذه البطالة ذاته نقصاً فى المساكن والغذاء والملابس للجميع. أى أن المجتمع عانى فى اللحظة ذاتها من البطالة ونقص الإمكانات.. إن هذا شىء لا يمكن تصديقه".

:"هل يحصل كل فرد عندكم على القدر نفسه من الراتب لقاء عمله؟".

:"الأفراد النشطون والمبدعون يحصلون غالباً على عائدات أكبر إذا ثبت أنهم يساعدون الآخرين، أو يسيطرون على الموارد الطبيعية.. وأحياناً يصبح الفنانون أغنياء إذا كان عملهم مطلوباً للغاية".

:" هل اضطررت إلى شراء سلسلتك الذهبية هذه؟"

:" نعم من صانعها فى ورشته.. ولكن أمى هى التى اشترتها فى الحقيقة".

:" إن هذا يعنى أن لديكم محلات وورشًا كثيرة.. أليس كذلك؟"

:"سوف ترى بعضها قريباً.. إنها أماكن يرتادها الناس لرؤية أشياء جديدة ورائعة".

:" وإذا أصبح أحد الفنانين ثرياً، ترى ما الذى يمكن أن يفعله بالنقود التى معه؟"

:"يتمتع بوقته ويبذل جهده لإبداع شىء رائع جداً لكى يمكنه مغادرة الكوكب.. أو يشترك مع الفنانين الآخرين ويساعدهم فى أعمالهم.. أو يفعل أى شىء آخر يحبه لتعليم وترقية الإحساس

بالجمال فى اليوتوبيا.. أو حتى لا يفعل شيئاً.. فاليوتوبيا يمكن أن تتحمل ذلك.. إذا تمكن من هذا".

(٥)

قال السيد (بارنستابل): "(سيدار) و(ليون) شرحا للأرضيين كيف أن حكومتكم أفلست وتشتت بين الناس الذين لديهم معرفة خاصة بالأمور المعقدة. واستنتجنا أن التوازن بين الفوائد تم تحقيقه بمعرفة أولئك الذين درسوا علم النفس العام والتنظيم التعليمى لليوتوبيا. وفى البداية كان غريباً جداً على عقولنا الأرضية أنه يجب أن يكون هناك علم تام كلى المعرفة وعلم تام عملى.. أو ما يمكن تسميته (شىء مطلق).. أى شخص أو مجموعة أشخاص يكون قرارها أو حكمها نهائياً، وذوى معرفة غير محدودة وبكل شىء".

"واعتقد السيد (بيرليه) والسيد (كاتسكيل) أن وجود هذا الشىء ضرورى جدا.. غير أننى أقل ثقة فى ذلك.. وكان ما يشغلها فعلاً هو (من الذى يقرر؟).. واعتقد أن الأمر ينبغى عرضه على الرئيس أو مجلس اليوتوبيا الأعلى.. ولكننى أتصور أنه يبدو أن السير الطبيعى جداً للأشياء، هو ألا يكون هناك شىء مثل هذا، وأن هذا

الأمر يجب أن يذهب ببساطة وبشكل طبيعى إلى الشخص الذى يعرفه أكثر من أى إنسان آخر".

قال (كريستال): "مع خضوعه للنقد الحر الصريح".

:"ومع خضوعه العملية نفسها التى جعلته شهيراً أو مسئولاً.. ولكن ألا يلقى الناس بأنفسهم إلى الأمام – حتى هنا – بسبب الغرور.. وأليس الناس يجدون أنفسهم مدفوعين إلى الأمام أمام أفضلهم بسبب الحقد؟".

قال (كريستال): "هناك الكثير من الغرور والحقد فى نفس كل إنسان يوتوبى.. لكن الناس هنا يتحدثون بصراحة تامة، كما أن النقد هنا لاذع وحر.. وعلى ذلك فإننا نتعلم أن نستكشف نوايانا ودوافعنا قبل أن نمدح أو ننتقد".

قال السيد (بارنستابل): "إن ما تقوله وتفعله هنا يظهر بوضوح بقيمته الحقيقية.. إنك لا تستطيع أن تشّهر بأحد علانية أو فى الخفاء بدون أن يعترض عليك أحد أو تقيم دعوى كيدية".

:" منذ بضعة أعوام كان هناك رجل، فنان، أثار ضجة كبيرة بخصوص عمل والدى.. وغالباً ما يكون النقد الفنى هنا لاذعاً جدا.. إلا أنه كان فى الحقيقة لاذعاً بشكل يفوق كل الحدود.. لقد سخر منه وشوّه صورته وألحق به الأذى بشكل متواصل.. كما أنه تتبعه من

مكان إلى آخر.. وحاول إيقاف وصول كل المواد والأدوات المخصصة له إليه، ومع ذلك فإنه لم يضره بشئ، لأن بعض الناس ردوا عليه، وفى أغلب الأحوال لم تلق مزاعمه إلا الإعراض التام من الجميع.." ثم توقف الفتى لبرهة.

:"حسناً.. وماذا بعد؟"

:"لقد قتل نفسه، لأنه لم يستطع الهروب من غبائه وحماقته.. فكل الناس كانوا يعرفون ماذا قال وماذا فعل"

قال السيد (بارنستابل) وهو يعود إلى النقطة الرئيسية: "ولكن فى الماضى كان هناك ملوك ومجالس ومؤتمرات فى اليوتوبيا، أليس كذلك؟".

:" إن كتبى تعلمنى أن دولتنا نمت وتطورت بهذه الطريقة بالضبط.. وكان من الضرورى لنا وجود هؤلاء البسطاء والمنظمين العامين فى العلاقات البشرية، مثل السياسيين والمحامين، باعتبارهم مرحلة ضرورية فى تطورنا السياسى، والاجتماعى.. مثلما احتجنا إلى وجود جنود ورجال شرطة لحماية الناس من العنف المتبادل.. وببطء شديد بدأ السياسيون والمحامون يعترفون باحتياجهم إلى معلومات خاصة عن الأشياء المطلوب منهم عملها..".

"كان السياسيون يضعون حدوداً بدون أية دراية صحيحة بعلم الأجناس والسلالات البشرية أو الجغرافيا الاقتصادية.. وكان المحامون يقررون ما يرونه بشأن المشيئة والإرادة بدون أدنى دراية بعلم النفس.. ومن ثم كانوا يتوصلون إلى أسوأ الترتيبات والتدابير وأكثرها بعداً عن المنطق وصعوبة في التطبيق، بأسوأ صورة ممكنة".

قال السيد (بارنستابل): "مثل وثيقة (ابرشية تريسترام شاندى)[1] التى بدأت عملية سلام العالم فى مدينة فرساى الفرنسية". فبدت الحيرة على وجه (كريستال).

قال السيد (بارنستابل): "إنها إشارة معقدة لأمر أرضى صرف.. وهذا الانتشار الكامل للأنشطة السياسية والقانونية بين الناس، مع توفر المعرفة، أحد الأمور المهمة جداً لى فى هذا الكوكب.. ومثل هذا الانتشار بدأ بالفعل على الأرض.. فمثلاً الناس الذين يفهمون ازدهار هذا الكوكب أصبحوا غير قادرين على العمل لأسباب سياسية وقانونية، وهذا هو نفسه مصير الكثير من أفضل رجال الاقتصاد لدينا.. ومعظم الناس لا يدخلون أى محكمة ولا يحلمون بذلك بسبب تجارتهم أو صناعتهم ذاتها، من تاريخ ولادتهم

(١) وثيقة رسمية أصدرها بابا الكنيسة الكاثوليكية (المترجم).

إلى وفاتهم.. فماذا أصبح حال السياسيين والمحامين عندكم؟.. هل حدث أى صراع؟".

:"عندما ازداد التنوير وانتشر الذكاء، أصبح أولئك غير ذى فائدة بشكل أكثر فأكثر.. ولذلك اجتمعوا أخيراً فقط لاختيار خبراء منهم كمقيّمين وغير ذلك.. وبعد بعض الوقت أصبحت تلك الاختيارات أمراً حتمياً.. ثم تبلورت أعمالهم وأنشطتهم فى هيئة عامة للنقد والحوار والمناقشة. وفى بعض الأماكن لازالت هناك مبان قديمة تستخدم كحجرات مداولة ومحاكم.. وآخر سياسى تم انتخابه في مجلس تشريعى مات في اليوتوبيا منذ حوالى ألف سنة مضت، وكان رجلاً عجوزاً محترماً لكنه ثرثار وغريب الأطوار، وكان المرشح الوحيد ولم يصوت له سوى رجل واحـــد .. وأصـــر على عقد اجتماعاتهم انفرادياً، وأمر بتسجيل كل أحاديثه وجلساته بطريقة الاختزال[١].. واعتاد الأولاد والبنات الذين يتعلمون الكتابة بالاختزال على الذهاب إليه لكتابة تقارير عنه.. وأخيراً فقد تم التعامل معه كحالة عقلية".

- وما بال القاضى الأخير؟".

قال (كريستال): "لم أقرأ أى شيء يمت بصلة لآخر قاض بعد.. وعلىّ أن أسأل معلمى الخاص.. لكننى أعتقد أنه كان هناك

---

(١) تدوين الإملاء والشهادات بطريقة مختصرة (المترجم).

قاض أخير.. بيد أننى أظن أن أحداً لم يطلب منه أن ينظر فى أى قضية.. ولعله اختار مهنة أخرى أكثر احتراماً لكى يمارسها".

(٦)

قال السيد (بارنستابل): "لقد بدأت أفهم طبيعة الحياة اليومية فى هذا الكوكب.. إنها حياة يعيشها أنصاف آلهة يتمتعون بحرية شديدة، وفردية كبيرة، ويتبع كل منهم ميوله الخاصة ويشارك كل منهم فى الأهداف العظيمة لبنى جنسه، إنها ليست فقط حياة صريحة وعذبة ورائعة ولكنها كذلك مليئة بالنبل الفردى، إنها كما رأى شيوعية عملية تم تنظيمها والتخطيط لها منذ قرون طويلة من التعليم والانضباط والتحضير الجماعى. وأنا لم أفكر من قبل فى أن الاشتراكية يمكنها أن ترفع قيمة الفرد وتشرفه بينما الفردية تحط من قدره، غير أننى أرى الآن بوضوح أن هذا الوضع نجح بالفعل هنا. ففى هذا الكوكب السعيد أو المحظوظ لا يوجد أى زحام بالمرة، وهذا بالقطع قمة رقيه وسعادته، فالعالم القديم - الذى أنتمى إليه - وفى الكون الذى أعيش فيه كان، ومازال حتى الآن، يعانى من الزحام، ويحق لى أن أسميه عالم الزحام، ذلك أنه عالم يعج بتزاحم كتل زاحفة من بشر فاسدين لا يتميزون بشئ..

"إنك لم تر زحاماً قط يا (كريستال).. ولن تراه أبداً فى حياتك السعيدة هنا.. فأنت لم تر مثلاً زحاماً متجهاً إلى مباراة كرة قدم أو سباق خيل أو مصارعة ثيران أو تنفيذ حكم بالإعدام علناً أو أى زحام مبتهج آخر.. وأنت لم تر اختناقاً وتوقفاً للمرور فى مكان ضيق أو صراخاً وعويلاً فى كارثة أو مصيبة.. وأنت لم تر زحاماً يجوب فى بطء وبلادة الشوارع من أجل الحملقة فى ملك أو قائد مغوار أو الهتاف من أجل الحرب أو ربما بالقوة نفسها من أجل السلام.. وأنت لم تر زحاماً أصابه هياج مفاجئ وتحول من زحام عادى إلى مجموعة من الغوغاء والمجرمين لا يلبثون أن يعيثوا فساداً وإزعاجاً وهرجاً ومرجاً. إن كل الاحتفالات الحاشدة خرجت من هذا العالم، كل آلهة الزحام. أما هنا فلا توجد أية سباقات أو رياضات أو مظاهرات تطالب بالحرب أو حفلات تتويج أو جنازات عامة.. وكذلك لا توجد أية عروض فنية ضخمة.. لا يوجد هنا سوى القليل من المسارح.. أليس كذلك؟ ما أسعدك يا (كريستال)! فإنك لم تر زحاماً أبداً!".

قال (كريستال): "ولكننى رأيت زحاماً بالفعل!".

:"عجباً، وأين كان ذلك؟"

:"رأيت أفلاماً سينمائية تصور زحامات عديدة صورت منذ ثلاثين قرناً أو أكثر.. إن متاحف التاريخ لدينا تعرض عادة مثل هذه الأفلام.. مثلاً رأيت زحامات تتدفق فوق المنحدرات بعد سباق خيل كبير، وصورت تلك الأفلام من الطائرة.. ورأيت زحاماً وشغباً فى ميدان عام بينما تقوم قوات الشرطة بتفريقهم.. نعم رأيت آلافاً وآلافاً من البشر المحتشدين.. غير أن ما تقوله صحيح إذ لم يعد هناك أى زحام فى اليوتوبيا.. و الحقيقة أن الزحام والعقول المثقلة بأفكار لا لزوم لها اختفت تماماً من الوجود".

(٧)

عندما اضطر (كريستال) إلى العودة لدراساته الرياضية بعد بضعة أيام، أدى رحيله إلى شعور السيد (بارنستابل) بالوحدة الشديدة. لم يجد أى رفيق آخر. (ليكنيس) بدت دائماً قريبة منه ومستعدة للحياة معه، إلا أن احتياجها إلى الاهتمامات الفكرية القوية المهمة جداً فى هذا الكوكب المتميز بأنشطته الفكرية الواسعة نفرته منها يوتوبيون آخرون جاءوا وذهبوا.. كانوا كلهم أصدقاء وسعداء ومهذبون لكنهم مهتمون جداً بأعمالهم.. وهم يسألونه باهتمام وحب استطلاع وربما

يستمعون إلى سؤال منه أو نحو ذلك ويردون عليه بهدوء ثم لا يلبثون أن ينصرفوا بزعم احتياج الآخرين إليهم.

الآن بدأ يدرك أن (ليكنيس) "أحد نماذج الفشل اليوتوبى".. فهى من النوع الرومانسى الخيالى وتكن فى قلبها حزناً دفيناً، كان لها طفلان تحبهما حباً جماً وكانا لا يخافا تقريباً، وذات مرة دفعتهما بكبرياء حمقاء إلى السباحة بعيداً فى البحر، ولم يلبثا أن تعرضا إلى تيار شديد وغرقا. وهرع إليهما أبوهما فى محاولة منه لإنقاذهما إلا أنه غرق هو الآخر.. وبدون تردد ألقت (ليكنيس) بنفسها فى الماء لمحاولة انقاذهم وكادت تدفع بحياتها ثمناً لذلك، لكنه تم إنقاذها. إلا أن حياتها العاطفية "تجمدت" عند هذه اللحظة، إذا جاز هذا التعبير واتخذت له موقفاً وثبتت عليه.

لقد غلبتها مأساتها، وأدارت ظهرها للسعادة والمرح والضحك وبدأت تبحث عن المآسى والآلام. أعادت اكتشاف قدرتها المفقودة على الشفقة والرحمة، أولها تجاه نفسها ثم تجاه الآخرين، لم تعد تهتم بعد ذلك بالناس العاديين الأقوياء الذين يعيشون حياة كاملة، وبدأ عقلها يركز فى مواساة نفسها من خلال مواساة الآخرين فى آلامهم والمحن التى تصيبهم. وقررت أن تعالج جرح قلبها بمساعدة الآخرين على التغلب على جراحهم. لذلك لم تشأ التحدث مع السيد (بارنستابل) عن روعة اليوتوبيا، وإنما أرادت منه أن يحدثها عن مآسى ومشاكل

الأرض، وأيضاً عن أى ألم أو بؤس تعرض له هو شخصياً ويمكنها أن تتعاطف معه بشأنه وتواسيه. إلا أنه لم يكن ليخبرها بمتاعبه لأنه وفقاً لطبيعته ومزاجه الخاص، لم يكن يعانى من أى بؤس، وإنما فقط من الضيق والغضب والأسى.

أما هى فكانت تحلم وتتصور أن تصبح قادرة على الذهاب إلى الأرض، حيث يمكنها أن تهب جمالها وحنانها إلى المرضى والفقراء، قلبها كان متعلقاً – بشغف وإصرار – بمنظر البشر، الذين يعانون من الضعف أو الفقر أو المرض.

وقبل أن يكتشف انجراف عقلها أخبرها بأشياء كثيرة عن مرض وفقر البشر، إلا أنها تحدثت عن تلك الأمور ليس بشفقة ورحمة وإنما بغضب شديد باعتبار أن مثل هذه الأشياء كان يجب ألا تحدث أصلاً! وعندما فهم اهتمامها الشديد بهذه الأشياء تحدث عنها بالكاد وبسرور باعتبارها أمورًا لم يعد لها وجود حالياً.

قالت: "لكن المعاناة منها سوف تستمر فى المستقبل". ولأنها كانت قريبة منه دائماً فإنها سدت تقريباً فراغاً بالنسبة إليه أكثر من دورها الرسمى فى الإطار اليوتوبى.. إنها تمددت عبر هذا الإطار كظل أخاذ.. وكان يفكر كثيراً جداً فيها وفى شفقتها واستيائها من الحياة والنشاط الذى تجسده. وفى عالم من المخاوف والضعف

والعدوى والظلام والفوضى والشفقة والرثاء، فإن أعمال الخير والإحسان وإيواء المحتاجين والأعمال التى تتم عن الإخلاص والتفانى، ربما تبدو فى الحقيقة كلمات عذبة ومضيئة وكريمة.. لكن فى مثل هذا الكوكب المتسم بالصحة والنشاط والمشروعات الرائعة، فإن الشفقة تكشف عن حقيقتها كرغبة فاسدة أو خبيثة.

إن (كريستال)، وهو شاب يوتوبى، كان صلباً مثل اسمه، فعندما انزلق يوماً ما على بعض الصخور والتوى وتضخم كاحله، عرج فى مشيته لكنه كان يضحك. وعندما اندفع السيد (بارنستابل) أثناء هبوطه من على سلم منحدر، كان (كريستال) مهذباً أكثر منه متعاطفاً معه. وعلى ذلك فإن (ليكنيس) لم تجد أى شخص يؤيد تكريسها حياتها للندم، وحتى السيد (بارنستابل) لم تستطع الحصول على تعاطفه معها، وأدرك بالفعل أنه من الناحية المزاجية كان أكثر "يوتوبية" منها نفسها.

بالنسبة إليه وبالنسبة إلى اليوتوبيا فإن موت رجلها وطفليها بشجاعة ودون خوف بدا فرصة لسعادتها أكثر من حزنها، فهم ماتوا ميتة رائعة جداً، ولازالت مياه البحر تتألق وتلمع كما أن الشمس لازالت تشرق وتضئ. إلا أن خسارتها كشفت عن وصمة عنصرية كامنة لديها، ترجع إلى شيء قديم جداً فى جنسها، شيء مازال يتوالد ببطء شديد فى اليوتوبيا، إنه ميل كئيب للتضحية يستجيب للحزن

والكآبة. وكان غريباً وربما حتمياً أن السيد (بارنستابل) مضطر إلى أن يقابل مرة أخرى فى اليوتوبيا الروح التى تعرفها الأرض جيداً، والتى تتحول من مملكة السماء إلى عبادة الأشواك والمسامير، والتى يسعدها تمثيل إلهها، ليس من خلال البعث والحياة، وإنما من خلال كونها جثة مروعة مهزومة.

إنها تحدثه عن أولاده كما لو كانت تحسده بسبب فقدها لولديها، إلا أن كل ما قالته ذكره بالمميزات التعليمية والآمال المحدودة لأولاده وبأن حياتهم فى اليوتوبيا كانت ستصبح أكثر جرأة وجمالاً وسعادة، لعله كان سيجازف بإغراقهم عشر مرات لينقذهم من العمل كتبة أو أجراء لدى أفراد آخرين. وحتى بالمقاييس الأرضية فإنه يشعر الآن أنه لم يفعل أفضل ما فى وسعه لهم وترك أشياء كثيرة تعصف بحياتهم وحياته هو نفسه وزوجته، بحيث يشعر الآن بأنه كان عليه أن يسيطر على تلك الأمور. ولو أمكنه أن يعيش حياته من جديد لكان عليه أن يضمن لأولاده حياة أكثر إثارة فى مجالى السياسة والعلوم، وأنهم لن ينغمسوا تماماً فى تفاهات الحياة فى ضواحى المدينة أو لعب التنس أو هواية المسرح أو المغازلات وأعمال العبث التافهة وما شابه ذلك.

إنه يشعر أنهم كانوا أساساً أولاداً صالحين، لكنه تركهم فى رعاية أمهم، وقد ترك أمهم وشأنها بدلاً من مواصلة النزاع معها

لصالح أفكاره. إنهم كانوا يعيشون بشكل عادى فى ظل مأساة واحدة كبيرة وبدون أمان ضد أية مأساة أخرى، كانوا يعيشون فى عالم من الحماقة والضياع والقصور المزرى، وكذلك كانت حياته ذاتها عبارة عن حماقة وضياع.

بدأت حياته فى (سيدنهام) تنتاب فكره وتطارده وتؤرقه. وقال: "لقد انتقدت كل شئ، بيد أننى لم أتمكن من تغيير شىء منها.. إننى إنسان نِكدىّ دائم الندم.. هل كنت مفيداً على الأرض أكثر من فائدتى هنا؟.. وعموماً على الأرض كلنا فاسدون وضائعون..".

تجنب (ليكنيس) ليوم أو نحو ذلك وأخذ يتجول فى الوادى بمفرده، ودخل فى غرفة قراءة ضخمة وتصفح كتباً لكنه لم يقرأها. كان يتألم لوقوفه فى ورشة، وراقب فناناً ينحت من الذهب فتاة عارية تمثالها أجمل من أى تمثال أرضى، ثم لعله شعر بعدم الرضا فصهرها مرة أخرى، ثم صادف رجالاً يشيدون وآخرون يعملون فى الحقول، ورأى فتحة ضخمة فى جانب التل وشئ ما فى أعماق التل يومض ويتألق بطريقة غريبة، لكنهم لم يكونوا ليسمحوا له بالنزول إليه، ورأى آلاف الأشياء التى لم يستطع فهمها.

بدأ يشعر ربما مثل كلب ذكى جداً فى عالم من البشر، غير أنه ليس له سيد ولا غريزة تجد عزاءها فى خسة ودناءة الكلب. واليوتوبيون يباشرون أعمالهم فى النهار ويبتسمون له عندما يمرون بجواره، امتلأ قلبه حسداً لهم. فهم يعرفون ما يفعلون وينتمون إلى عالم رائع.. إنهم يسيرون فى ثنائيات أو ثلاثيات فى المساء ويتحادثون مع بعضهم البعض، وأحياناً يغنون مع بعضهم البعض. ويمر العشاق من جانبه ويرى وجوههم تقترب من بعضها البعض وتبتسم فى عذوبة، وسرعان ما تحول شعوره بالوحدة إلى صراع من الرغبات المستحيلة.

على الرغم من أن السيد (بارنستابل) رغب بشدة – رغم أنه بذل كل جهده لإخفاء تلك الرغبة تحت حد الشعور – فى أن يحب ويُحب فى اليوتوبيا.. والحقيقة أن إدراكه بأن لا أحد من هؤلاء الناس يمكنه أن يتصور مثل تلك الحميمية بين جسده وروحه، كان بمثابة إذلال له أكثر وطأة حتى من انعدام فائدته. إن فتنة ودلال الفتيات والنساء اليوتوبيات اللاتى نظرن إليه باستغراب أو مررن بجواره بلامبالاة وهدوء سحقت احترامه لذاته، وجعلت الكوكب اليوتوبى غير محتمل بالمرة. وركزت تلك اليوتوبيات الفاتنات، فى صمت وبشكل لا شعورى، لديه الشعور بأقصى إذلال لمكانته الاجتماعية وتدنى مرتبة جنسه.

لم يستطع كبح جماح أفكاره عن الحب، بينما بدا أن كل إنسان هنا لديه حبيب، وكان الحب بالنسبة إليه فى هذا الكوكب اليوتوبى شيئاً بالغ الغرابة ولا يمكن تصوره. ثم فى إحدى الليالى وهو ممدد مستيقظاً ومهموماً إلى أقصى حد بأفكار من هذا النوع، خطرت له فكرة، بدا له أنها سوف تعيد إليه احترامه لذاته وتكسبه نوعاً من المواطنة فى اليوتوبيا، وعندئذ سوف يتحدثون عنه ويذكرونه باهتمام وتقدير ويظهرون تعاطفاً معه.

الفصل الثالث

الخدمة التى يمكن أن يقدمها الأرضيون

كان الرجل الذى يجب أن يقابله السيد (بارنستابل) - بعد التحقيقات اللازمة - ليتكلم معه، هو شخص يدعى (سان جولد). من المحتمل أنه كان طاعناً فى السن، إذ كانت ثمة تجعيدات حول عينيه وعلى جبينه الوضاء. كانت بشرته متوردة تدل على الصحة والعافية مع لحية ذات لون بنى محمر، تتخللها شعيرات بيضاء. وكانت عيناه بنيتى اللون تنمان عن الذكاء وحضور البديهة، وتوجدان تحت حاجبين كثيفين.وكان شعره خفيفاً إلى حد ما، وقد ذهب عنه اللون الأحمر النحاسى، وكان يتهدل على كتفيه وكأنه عُرف الفرس. كان الرجل جالساً أمام منضدة يتناثر عليها كثيرٌ من الأوراق، وكان يدون بعض الملاحظات. ابتسم فى وجه السيد (بارنستابل)، وبدا أنه كان ينتظر قدومه. وأشار - بيد عضلية ينتشر عليها النمش[1] - إلى مقعد

(١) بقع داكنة على الجلد (المترجم).

ليجلس عليه. بعدها ابتسم للسيد (بارنستابل) وانتظره لكى يبدأ حديثه.

قال السيد (بارنستابل): "يمثل هذا العالم انتصاراً للرغبة فى أن يتحقق النظام ويسود الجمال فى أذهان الناس، لكنه لن يسمح بوجود أشخاص عديمى الفائدة. إن كل شخص فى هذا العالم سعيد بالنشاط الذى يؤديه، إلا أنا. إننى أنتمى إلى لا مكان، وليس لدىّ ما أعمله. ولا توجد لى أية علاقات بأى شخص..".

حرك (سان جولد) رأسه بخفة، ليوضح للسيد (بارنستابل) بأنه يفهم كلامه.

"... إنه من الصعب على شخص أرضى نال قسطاً من التدريب فوق كوكب الأرض، الاستقرار هنا فى اليوتوبيا. ليؤدى عملاً روتينياً عادياً، أو أن يكوّن علاقات من نوع ما. أشعر بأننى غريب. ولكن لا يزال الأمر صعباً ألا يكون لى أى مكان على الإطلاق. فى العمل الجديد – الذى تم إبلاغى أنك على معرفة به أكثر من أى شخص آخر، وأنك القائد والمعلم – ربما أحقق فيه فائدة ما، وقد أصبح فى كفاءة اليوتوبيين. لو كان الأمر كذلك، فإننى أريد أن أكون ذى نفع. قد تكونون فى حاجة شخص ما لا يهاب الموت، أو أن يخاطر بحياته فى مكان غريب. وشخص يريد أن يخدم

اليوتوبيا، وفى الوقت نفسه لا يشترط تمتعه بمهارة أو معرفة، أو أن يكون حسن الطلعة وقادراً".

توقف السيد (بارنستابل) قليلاً عن الكلام. واستعرض (سان جولد) كل الأفكار التى فى ذهن محدثه. جلس السيد (بارنستابل) ينتظر تساؤلات واستفسارات (سان جولد)، الذى راح يواصل تفكره. عندها بدأت الكلمات والجمل تتجمع معاً فى ذهن السيد (بارنستابل). وتساءل (سان جولد) عما إذا كان السيد (بارنستابل) يتفهم مدى حدود الاكتشافات العظيمة التى تجرى على قدم وساق فى الوقت الحاضر باليوتوبيا. وقال: إن اليوتوبيا تمر بمرحلة من المجد الفكرى المتعاظم، وأن قوى جديدة وإمكانيات لم تستخدم من قبل، تثير خيال الجنس اليوتوبى. وكان مقتنعاً – إلى حد كبير – بأن أى شخص أرضى لم ينل قسطاً كافياً من التعليم ويعانى من الارتباك والحيرة، وسوف يكون قلقاً ومنزعجاً، إزاء كل تلك الأنشطة الغريبة عليه، والتى تجرى بلا توقف فى اليوتوبيا. وأكد (سان جولد)، بأن بعضاً من اليوتوبيين أنفهسم – الذين وصفهم بالمتخلفين عن الآخرين فى التقدم والتطور – يقفون عاجزين وحائرين أمام تلك الأنشطة الحديثة. وأضاف أنه لقرون طويلة كان فلاسفة اليوتوبيين وعلماؤهم التجريبون، ينتقدون وينقحون ويعيدون تشكيل أفكارهم التقليدية غير المصحوبة بروّية. والتى سادت فى الماضى، بخصوص الفضاء والزمن، وبنية الأشياء والمادة. أما فى

الوقت الحاضر – وبسرعة هائلة – أصبحت طرق التفكير الجديدة، واضحة جلية وتميزت بالبساطة وعدم التعقيد، وأسفرت عن نتائج رائعة – وكأنها شجرة تحمل الثمار اليانعة – لها تطبيقات عملية مدهشة. كما أمكن تخطى حدود الفضاء التى بدت مستعصية دوماً، حدث هذا بطريقة جد غريبة ومعقدة، ولكن على أية حال فقد تم تجاوزها. وأصبح الأمر ممكناً نظرياً، وسرعان ما صار ممكناً أيضاً من الناحية العملية. وهكذا يمكن الارتحال من كوكب اليوتوبيا – الذى كان جنسنا مقيداً فيه – إلى نقاط أرحب فى كوكبنا الأصلى، وأعنى به الكواكب النائية والنجوم السحيقة.. هذا هو جوهر الموقف الحالى.

قال السيد (بارنستابل) بدهشة: "إننى لا أستطيع أن أتخيل هذا".

وافق (سان جولد) بود واضح وقال: "إنك لا تستطيع أن تتخيل هذا! لكن ذلك هو واقع الأمر. منذ مئات السنين كان الأمر غير مقنع هنا أيضاً" رد السيد (بارنستابل) قائلاً: "هل سوف تصل إلى هذا الكون الآخر، بواسطة نوع من السلالم الخفية التى توجد فى بُعد آخر؟"

أخذ (سان جولد) هذا التخمين بعين الاعتبار، على الرغم من قوله بأنه تصور غريب على نحو بشع، ولكن باعتباره صادراً عن

وجهة نظر أرضى، فإن هذا المفهوم يكون مقبولاً. حيث إنه يتناسب مع مستواه الفكرى، ومع هذا كان أمراً عجيباً لحد كبير.

:"إن سياقاً جديداً ومذهلاً للحياة قد بدأ هنا، ولقد تعلمنا – منذ زمن طويل – الأسرار الأساسية للسعادة فوق هذا الكوكب. إن الحياة هنا رائعة وممتعة. هل تجدها كذلك؟.. "تريث لبرهة ثم استطرد قائلاً:

:".. لآلاف من السنين سيكون هذا الكوكب مقرنا وحصننا. بيد أن رياح مغامرة جديدة بدأت تهب على حياتنا".

دفع (سان جولد) أوراقه أمام ناظرى السيد (بارنستابل) ثم أشار بإصبعه وراح يتحدث بصوت عال مسموع. ليجعل كلماته واضحة. وقد بدا للسيد (بارنستابل) أن كل كلمة يتفوه بها (سان جولد)، تترجم نفسها لحظياً إلى اللغة الإنجليزية. وعلى أية حال فقد فهم ما يقوله.

:"إن تصادم كوكبنا يوتوبيا مع كوكبكم الأرض، كان حادثاً مثيراً للاهتمام للغاية، إلا أنه كان حادثاً غير ذى شأن فى قصتنا هذه.. أريدك أن تفهم. أن كوكبكم وكوكبنا، مجرد عالمين من عدد هائل من العوالم لها جاذبيتها الخاصة وزمنها المتفرد، تم خلقها بالقدرة غير المحدودة للإله جل شأنه. وهناك الكثير بينها من العوالم

المتشابهة ولكنها ليست متطابقة فى عناصر الحياة بها. وتصادف أن كوكبكم وكوكبنا يسيران جنباً إلى جنب - إن صح هذا التعبير - ولكنهما لا يتخذان الاتجاه نفسه ولا يتحركان بذات السرعة. إنهما سوف يبتعدان من جديد، عن بعضهما البعض ويتبعان أقدارهما المختلفة. وعندما أجرى (آردن) و(جرينليك) تجربتهما، كانت الفرصة في أن يصطدما بشيء ما فى كونكم، أمر نادر للغاية. حتى أنهما تجاهلا هذا الاحتمال، وتوقعا أن يقتصر الأمر على الدوران حول كوكبنا ثم العودة إلى كوكب الأرض. ولكنكم وقعتم فوق كوكبنا، وكان الأمر مذهلاً بالنسبة لنا ولكم. إن أهمية اكتشافاتنا تتحقق فوق كوكبنا وليس فوق كوكبكم. ونحن لم نكن نريد أن ننتقل إلى عالمكم، كما لم نرد أن يأتى أحد عوالمكم إلينا. إنكم تشبهوننا كثيراً ولكنكم جهلة تنقصكم المعرفة ومثيرون للمشاكل ومصابون بالأمراض المعدية، ونحن لا يمكننا مساعدتكم لأننا لسنا آلهة..".

صدرت عن السيد (بارنستابل) إيماءة بالموافقة . وقال (سان جولد):

".. ما الذى يمكن لليوتوبيين أن يفعلوه مع الأرضيين. نحن لا نمتلك غريزة قوية للتعليم أو السيطرة على البالغين الآخرين. لقد تخلصنا من هذه الغريزة على مدى قرون طويلة من المساواة والتعاون البناء. وبالنسبة لنا فإن أعدادكم هائلة تفوق قدراتنا على

تعليمكم بالإضافة إلى أن الكثير منكم سيكبرون وينشرون بيننا عاداتهم السيئة الضارة. إن حماقاتكم ستكون عثرة فى طريقنا، كما أن صراعاتكم وغيرتكم وتقاليدكم وضعفكم وأديانكم وإضماركم الضغينة والشر داخل نفوسكم وإخمادكم لرغباتكم، كل هذا سيعيق الأنشطة التى نود القيام بها. يجب أن نكون نافدى الصبر معكم وظالمين ومستبدين. ومن الصعب علينا أن نصبر على محاولاتكم الفاشلة فى أى مجال، أو أن نتذكر على الدوام درجة السوء التى أنتم عليها أيها الأرضيون. لقد اكتشفنا فى اليوتوبيا – منذ زمن طويل – أنه لا يوجد جنس بشرى واحد، عظيماً بدرجة كافية وبارعاً وقوياً، لكى يفكر ويعمل لأجل أى جنس آخر. وربما تكونون قد اكتشفتم هذا الأمر نفسه على كوكب الأرض، عندما بدأت أجناس الأرض تتواصل عن قرب، مع بعضها البعض. وسيحدث الشيء ذاته – وربما أكثر – فيما يتعلق باليوتوبيا والأرض. إن معرفتى بالأرضيين وجهلهم وعنادهم، يجعلنى على يقين بأن الجنس اليوتوبى سوف يحتقركم، وسيكون هذا الازدراء هو سبب كل الظلم الذى سيقع عليكم. وقد ينتهى الأمر بإصدار قرار بإبادتكم. فلماذا نجعل هذا ممكناً؟ من الأفضل أن ندعكم وشأنكم، ولكننا لن تكون لدينا ثقة تامة بقدرتنا على الاعتناء بكم. صدقنى هذا هو الحل الوحيد المعقول من وجهة نظرنا..".

وافق السيد (بارنستابل) دون أن يتفوه بكلمة واحدة، بل آثر الصمت.

:"... أنت وأنا – كشخصين – يمكننا أن نصبح صديقين وندرك الأمور ونتفهمها".

قال السيد (بارنستابل): "إن ما تقوله حقيقى، ولكن يحزننى للغاية أنه حقيقى. ومع هذا، أعتقد أننى – على أقل تقدير – ربما أكون نافعاً لليوتوبيا!".

:"كيف؟ بأن تعود إلى عالمك!".

فكر السيد (بارنستابل) للحظات. لقد كان هذا ما يخشى أن يقال له، ولكنه أراد أن يكون سباقاً فى عرض خدماته: "سوف أفعل ذلك".

: "إن محاولتك العودة إلى كوكب الأرض، سوف تعرضك للمخاطر. وربما تُقتل!"

:"يجب أن أقدم على هذه المخاطرة".

:"نريد أن نتأكد من كل البيانات التى جمعناها عن العلاقات الفضائية بين عالمنا وعالمكم. ونود أن نعكس تجربة (آردن) و(جرينليك)، ونرى إذا ما كان يمكننا أن نعيد كائناً حياً إلى عالمكم.

نحن متأكدون الآن – إلى حد ما – من قدرتنا على أن نفعل ذلك. ويجب أن يكون الإنسان الخاضع للتجربة، مهتماً بنا بدرجة كافية وكذلك بعالمه، بحيث أنه عندما يعود، يعطينا إشارة تفيد أنه وصل إلى هناك سالماً..".

تحدث السيد (بارنستابل) بصوت أجش قائلاً: "أستطيع القيام بهذه المهمة".

:"يمكننا أن نضعك فى الآلة التى جئت بها إلى هنا، وبتلك الملابس التى كنت ترتديها. لسوف نعيدك إلى عالمك بالحالة ذاتها التى غادرته بها.".

:"إننى أفهمك تماماً".

:"وعلى الرغم من أن عالمك بغيض ومثير للاشمئزاز ويزخر بالنزاعات والمعارك، إلا أن به – وهذا أمر غريب – بعض العقليات البارعة ذات القدرة الكافية. لا نريد أن يعلم شعبك بوجودنا، وأننا نعيش جد قريبين منكم. إذ سوف نكون قريبين منكم لعدة مئات من السنين، على أقل تقدير. ونحن لا نريدهم أن يعلموا بنا، خوفاً من أن يأتوا إلينا فى المستقبل القريب، يقودهم مجموعة من العلماء الذين تنقصهم المعرفة والمقدرة. يجيئون إلى كوكبنا – بحماقاتهم وجشعهم – فى حشود، كأسراب جراد، يحاولون اقتحام أبوابنا، ويهددون حياتنا

ويفسدون مغامراتنا الرائعة. ومن ثم يكون من الواجب التغلب عليهم وقتلهم. كما نفعل فى مواجهة غزو من الفئران أو الطفيليات. قال السيد (بارنستابل): "نعم. قبل أن يأتى الأرضيون إلى اليوتوبيا، يجب أن يتعلموا أن يعيشوا فى تناغم مع أساليب الحياة هنا. والرأى عندى أن اليوتوبيا تصلح موطناً فقط، لأولئك الذين تعلموا أساليب الحياة بها..".

تريث لعدة ثوان، ريثما يجيب عن التساؤلات التى أخذت تتدافع فى رأسه. ثم استطرد قائلاً: "...عندما أعود إلى كوكب الأرض، هل أبدأ فى نسيان اليوتوبيا؟". ابتسم (سان جولد) ولم يقل شيئاً..

عاد السيد (بارنستابل) يواصل حديثه قائلاً: "... كل أيام عمرى سيكون حنينى لليوتوبيا، مسبباً لمعاناتى وألمى".

:"ولسوف يدعمك هذا الحنين فى حياتك".

:"سأبد حياتى فوق كوكب الأرض، انطلاقاً من النقطة التى تركته فيها. وعلى الأرض سأكون يوتوبياً. لأننى عندما عرضت خدماتى وتم قبولها، لم أعد منبوذاً بل إننى أنتمى إليها".

: "تذكر أنه يمكنك أن تقتل. قد تموت أثناء المحاولة".

:"فليكن. إننى لا أبالى".

:"حسناً يا أخى..".

مد (سان جولد) يده وضغط بها بقوة على يد السيد (بارنستابل)، وابتسمت عيناه العميقتين.

: ".. بعد أن تعود إلى كوكب الأرض وتعطينا الإشارة، فإن عدداً آخر من الأرضيين يمكن إعادتهم أيضاً".

ارتفع السيد (بارنستابل) قليلاً عن مقعده مستنداً على ذراعيه، وتنفس بصعوبة ثم أصبح صوته عالياً من فرط الصدمة والدهشة.. وصاح: "لقد اعتقدت أنه تم الدفع بالأرضيين إلى الفضاء الفارغ فى عالم آخر، وأنهم ماتوا جميعاً".

: " العديد منهم قُتل، لقد قتلوا أنفسهم بأن تدافعوا هابطين إلى جانب القلعة القديمة، حيث الظلام الدامس، عندما تم تدوير المقر الصخرى. الرجال الذين كانوا يرتدون السترات الجلدية. و الرجل الذى تدعونه (لونج بارو)..".

: "(بارالونجا)؟".

: "نعم. والرجل الذى هز كتفيه وقال: ماذا سيفعلون بنا؟ وعاد الآخرون عندما أتم المقر الصخرى دورته، فى وقت متأخر من

النهار، كانوا مصابين بالاختناق وأجسامهم متجمدة، ولكنهم على قيد الحياة. لقد أمكن الحفاظ على حياتهم، ونحن نتدارس الآن الحلول المختلفة للتخلص منهم. إذ ليس لهم أية فائدة فى عالمنا، بل يمثلون عبئاً علينا.".

قال السيد (بارنستابل): "إن الأمر واضح للغاية".

:"إن الرجل الذى يدعى (بورليه) يبدو أن له مكانة مرموقة فى عالمكم الأرضى، لقد أجرينا أبحاثاً على مخه، واتضح أن قواه العقلية متدنية، خاصة قدرته على الاقتناع. ومن المشكوك فيه أن يقتنع بحقيقة أى جزء من التجربة التى مر بها. وسوف نبذل كل جهدنا، لكى نجعله يعتقد أن كل ما مر به من أحداث، مجرد حلم تخيلى.وسيعتبر وصولكم إلى اليوتوبيا وعودتكم منها، أمراً عجيباً إلى الحد الذى لا يسمح بالحديث عنه. ويبدو واضحاً جداً أنه متخوف من خياله الشخصى. وسوف يجد نفسه من جديد فى عالمكم، بعد عدة أيام من وصولك إليه، وسيذهب إلى منزله بشكل طبيعى. إنه سيعود بعدك مباشرة. وستراه منخرطاً فى المعترك السياسى. ولكنه ربما سيكون أكثر حكمة.".

قال السيد (بارنستابل): "سيكون هذا أمراً حسناً".

:"ولسوف يعود أيضاً (روبرت كاتسكيل)، هل أنطق اسمه صحيحاً؟ فإن عالمكم سوف يفتقده".

قال السيد (بارنستابل) باقتناع: "لا شيء سيجعله أكثر حكمة".

:"كذلك ستعود إلى عالمكم الليدى (ستيلا)".

:"أنا سعيد جدا لأنها استطاعت الهروب، وهى لن تتفوه بكلمة واحدة عن اليوتوبيا، إذ أنها تتمتع بالحكمة البالغة".

- "أما عن القس فقد أصيب بالجنون. إذ أصبح سلوكه عدوانياً وفظاً تعافه النفس، إنه موضوع تحت المراقبة".

:" ما الذى فعله؟".

:"لقد صنع عدداً من الأردية مستخدماً الحرير الأسود، واندفع يهاجم شبابنا بطريقة مخجلة(١)".

قال السيد (بارنستابل) بعد أن فكر قليلاً: "يمكنكم إرساله إلى كوكب الأرض".

: "لكن هل يسمح عالمكم بهذا النوع من السلوك؟".

---

(١) اليوتوبيون عرايا لهذا حاول القس تغطية أجسامهم (المترجم).

:"إننا نسمي هذا الهوس بالطهارة والتحرر من الخطيئة. ولكنكم إذا أردتم الاحتفاظ به..".

رد (سان جولد) قائلاً: "كلا.. بل سوف يعود".

قال السيد (بارنستابل): "أما عن الأرضيين الآخرين فيمكنكم الاحتفاظ بهم. وفى الحقيقة يجب عليكم الاحتفاظ بهم. فلن يعير أحداً على كوكب الأرض اهتماماً ما باختفائهم. ففى عالمنا هناك بعض من الأشخاص يُفقدون. هذا أمر طبيعى. أما إعادة عدد من الأرضيين، فسوف يثير الاهتمام.

فإن السكان المحليين ربما يلاحظون هؤلاء الذين جاءوا من المجهول، ويسألون عن الطريق إلى منازلهم، عبر شارع (ميدن هيد)، وسوف يدفعهم هذا للتساؤل. إنك لا يمكنك أن ترسل المزيد من الأرضيين. ضع الآخرين فوق جزيرة أو شيء من هذا القبيل. وكنت أتمنى أن أنصحك بالاحتفاظ بالقس أيضاً. ولكن كثيرًا من الناس سوف يفتقدونه، وربما يعانون من الخطايا المكبوتة[1]، ومن ثم يبدأون فى التصرف بطريقة غريبة وغير سوية. وأعتقد أنه من السهل إقناع القس بأن اليوتوبيا لم تكن أكثر من حلم وتوهم. إن كل القساوسة مقتنعون

---

(١) يقصد المؤلف هنا اعترافات المسيحيين بخطاياهم للقس الذى يطلق عليه "أب الاعتراف" (المترجم).

بأنهم يوتوبيون. ولسوف يعتقد القس بأن عالمكم - إذا فكر فيه - ليس أكثر من كابوس أخلاقى.

(٢)

انتهت المقابلة مع (سان جولد)، ولكن السيد (بارنستابل) لم يكن يريد أن يذهب. لقد نظر مباشرة إلى عينى (سان جولد)، ووجد شيئاً ما ينم عن طيبة القلب فيهما، فقال له : "لقد أخبرتنى بكل ما يجب علىّ عمله، وسيجئ وقت أغادرك فيه، لأن كل لحظة فى حياتك أكثر قيمة من يوم كامل فى حياتى. فعلىّ الذهاب سريعاً - مطيعاً للأوامر - من هذا العالم الواسع الباهر الذين تعيشون فيه، إلى الفوضى الأرضية ثانية. إننى أشعر فى أعماق نفسى، أنه يمكننى أن أسألك أن تخبرنى ببساطة ووضوح، عن تلك الأيام العظيمة والإنجازات الرائعة التى بدأت تتحقق على هذا الكوكب. لقد تحدثت عن أنه يمكنكم عما قريب، الانطلاق من اليوتوبيا إلى العوالم النائية فى كونكم. وهذا يحير ذهنى. من المحتمل أنه لا يمكننى استيعاب هذه الفكرة، ولكن فهمها أمر بالغ الأهمية لى. ثمة اعتقاد فى عالمنا، بأن الحياة لابد أن تنتهى فى يوم ما، لأن شمسنا وكواكبنا تبرد بانتظام. ويبدو أنه لا هروب من كوكب الأرض الذى نشأنا فيه، ولسوف نعيش ونموت عليه. وهذا ما جعل

بعضنا يفقدون الأمل والحماسة، لأنه لماذا نعمل لتقدم كوكب مصيره التجمد والفناء؟".

ضحك (سان جولد) وقال: "إن فلاسفتكم أنهوا الأمر بسرعة، وتوصلوا لنتائج سابقة لأوانها".

مال (سان جولد) على المائدة بجسمه، ليقرب المسافة بينه وبين المنصت له السيد (بارنستابل)، وحدق فى وجهه بجدية قائلاً: "ما الزمن الذى استغرقته علومكم الأرضية لتحرز تقدماً؟".

:"مائتان.. ثلاثمائة عام؟".

أشار (سان جولد) بأصبعيه وقال: "كم عدد العاملين بالبحث العلمى؟".

: "يحظى هذا المجال الحيوى باهتمام عدة مئات من كل جيل".

: "إننا قادمون على درب البحث العلمى لثلاثة آلاف عام حتى الآن، وعدد مائة مليون من العقول العبقرية تعمل معاً فى تناغم من أجل التقدم العلمى. وفى الوقت الحاضر، نحن نعلم أننا نعرف القليل جداً من المعرفة المكتسبة من خلال التجربة. إن الأمر لم ينضج بعد، ومازلنا نفتقر إلى المزيد من التجارب والملاحظات العلمية الناجحة والمحققة لأهدافنا. ولم توجد أبداً قياسات موثوق بها، ولكن مجرد

حقيقة خادعة ومراوغة. وثمة هامش للخطأ يكون دائماً متوقعاً ولا يمكن تلافيه. لدىّ معلومات لا بأس بها عن أماكن تواجد علمائكم، وأن كل السلطة والقوة يملكها الغوغاء الهمج! لقد درست بدايات البحث العلمى عندنا عبر التاريخ السحيق لليوتوبيا. ويصعب علىّ أن أشرح لك الفترات الزمنية الفاصلة، بين كل اكتشاف علمى وآخر. منذ تلك الأيام الموغلة فى القدم تاريخياً، درسنا واختبرنا وأجرينا التجارب عدة مرات على أساسيات طرق جديدة للتفكير فى الزمان والمكان. حيث إن الزمان هو الجوهر. إننا لدينا أساليب للتعبير لا يمكننا شرحها لك، ومن ثم فإن الأمور التى تبدو لكم صعبة ومتناقضة، فقدت كل صعوبتها فى أذهاننا. لكن من الصعب توضيح الأمر لكم. إننا ننظر إلى المكان مدمجاً فى الزمان[١] . وليس كما تنظرون إليهما كشيئين منفصلين. إن أذهاننا قد تجاوزت حياتنا، كماسوف يحدث لكم فى المستقبل. نحن لا زلنا من لحم ودم، تحدونا الآمال والرغبات . ويمكننا أن نتجول فى كل مكان، ننظر إلى أعلى وأسفل، مستوعبين كل الأفكار. ولكن الأشياء التى كانت تبدو نائية، أصبحت قريبة وأمكن استغلالها من أجل البحث العلمى. كذلك فإن الأشياء التى كان من المتعذر الحصول عليها، صارت فى متناول أيدينا وتحت سيطرتنا".

---

(١) يشير المؤلف إلى "الزمكان" (المترجم).

- "لذلك فأنتم لا تعتقدون - بسبب كل هذه القدرات - أن جنسكم سوف يفنى كجنسنا".

:"فناء! إننا مازلنا فى البداية".

كان الرجل العجوز (سان جولد) يتحدث بجدية. وكأن نيوتن[1] يتكلم:

:"نحن مثل أطفال صغار تم إحضارهم إلى شاطئ محيط بلا حدود. وكل المعرفة التى جمعناها فى عدة أجيال وحققت الكثير يمكن تشبيهها بحفنة صغيرة من الحصى تم جمعها من هذا الشاطئ..".

تريث للحظات ثم أضاف قائلاً: "كانت المعرفة أمامنا بلا نهاية، كان يمكننا أن نأخذ منها كما نشاء. وبهذه المعرفة يمكن أن ننمو ونتقدم. لقد أصبحنا أكثر قوة وشجاعة وجددنا شبابنا. حتى عوالمنا أصبحت أكثر شباباً. والأجيال القديمة من القرود وأشباه الرجال، الذين عاشوا قبلنا، كانت أذهانهم محدودة التفكير وحكمتهم ضيقة الأفق، ومن ثم غير مرغوب فيها ولا تحقق أية فائدة. وكانوا يتخوفون من الأشياء الجديدة، ويعتنقون أفكاراً قديمة بالية. لكن معنى التعلم هو أن تتغير وتصبح شاباً ثانية وأن تحرر ذهنك من كل ما يعيقه، وأن تبدأ من جديد. إن عالمك - مقارناً بعالمنا - يعيش فيه

(١) السير إسحق نيوتن (١٦٤٣ - ١٧٢٧) رياضى وفيزيائى إنجليزى (المترجم).

جنس جاهل يمارس تقاليد متخلفة، أساسها الكراهية والصراعات الدامية وكل الأمور السيئة الأخرى، التى لا يمكن نسيانها. لكن يوماً ما سوف تعودون أنتم أيضاً، كما الأطفال الصغار، وقتئذ ستجدون فى البحث عن الطريق الذى يوصلكم لنا، وسوف نكون عندئذ فى انتظاركم. فى هذه الحالة، سيتقابل عالمانا ويتعانقان وينشأ عنهما عالم أعظم. إنكم أيها الأرضيون لم تبدأوا بعد فى إدراك عظمة الحياة. وحتى نحن اليوتوبيين بالكاد نستوعب مدى أهميتها. يمكن اعتبار الحياة مثل شيء موعود به، مازالت تنتظر لحظة الميلاد، لتنطلق خارجة عن هذا التراب الذى يغلف عوالمنا. أنا وأنت مجرد ذرات متوقع لها أن تدور فى شكل دوامىّ. وسوف تستيقظ الحياة بالتأكيد، حياة جماعية مثيرة للعجب ومبدعة، كيقظة طفل يدرك ذهنياً - لأول مرة - حقيقة الوجود. ولسوف تفتح الحياة عيونها الناعسة وتتمدد وتبتسم وتنظر عظمة الله جل شأنه وجهاً لوجه، كما ينظر أى كائن إلى شمس النهار البازغة. وقتئذ سنكون هناك، نواجه معاً كل الأمور التى تهمنا، أنت وأنا..

- "ولن تكون هذه أكثر من البداية.. أكثر من البداية...".

الفصل الرابع

عودة الأرضّ

(١)

أتى الصباح مبكراً عندما هم السيد (بارنستابل) بإلقاء نظرته الأخيرة على تلال اليوتوبيا الساحرة ومواجهة التجربة العظيمة التى كان قد كرس لها ذاته. بدا كارهاً للنوم بالرغم من أنه لم ينم إلا قليلاً تلك الليلة. وفى مطلع الفجر خرج من البيت مرتدياً، وللمرة الأخيرة، نعليه والرداء الأبيض اللون الذى أصبح زيه اليوتوبى. فعليه الآن أن يبذل جهداً لكى يرتدى الجوربين والحذاء ذى الرقبة والسروال والياقة. أحس أن هذا الزى سيخنقه. ومد يديه نحو السماء وتثاءب ليملأ رئتيه بالهواء تماماً، فى حين أن الوادى بالأسفل مازال نائماً تحت غطاء من الضباب الصوفى. ثم رفع وجهه ناحية التل سريعاً ليرى الشمس.

لم يخرج من قبل؛ ليتمشى بين زهور اليوتوبيا فى ساعة مبكرة كهذه. كان رائعاً أن يرى كيف أن بعض الزهور كأسية الشكل

مازالت متدلية نائمة، بينما بعض الزهور الأخرى الأكبر حجماً منتصبة واقفة. كثير من الأوراق أيضاً كان ملتفاً وبدا منهكاً كفراشة حاضنة بيضها. كانت العناكب منهمكة فى غزل خيوطها المتشابكة. كل شيء كان مبتلاً من الندى. وفجأة رآه نمر ضخم ذو عينين مستديرتين صفراوين من طريق جانبى وأخذ يحملق فيه لبضع لحظات، فربما كان يحاول أن يتذكر غريزته المنسية التى نشأ عليها.

سار فى طريقه قليلاً، مر بعدها تحت قنطرة قرمزية اللون وصعد مجموعة من الدرجات الحجرية تساعده على الوصول مبكراً للقمة.

طار نحوه عدد من الطيور الصغيرة الزاهية الألوان وحط واحد منها على كتفه ولكنه عندما مد يده ليربت عليه، تهرب منه وطار بعيداً. كان لا يزال صاعداً الدرج عندما أشرقت الشمس. بدا جانب التل وكأنه يتخلص من ستار أزرق رمادى ليكشف عن جمال تكوينه الذهبى.

وقف السيد (بارسنتابل) ساكناً فى مكان منبسط فوق الدرج، ليشاهد شروق الشمس يبحث ويثير أعماق الوادى تحته. وبعيداً جداً ظهر ضوء باهر فى البحر كسهم مارق من الشرق إلى الغرب.

(٢)

همهم قائلاً: "صفاء، جمال كل أعمال الإنسان فى تناغم مثالى.. العقول عادت إلى التناغم" وكعادته الصحفية أخذ يجرب بعض العبارات: "سلام فعال – تبدد الارتباك – عالم واضح كالبلور من الأرواح..".

ماذا كانت فائدة الكلمات؟

ظل يستمع لبعض الوقت شدو طائر مغرد يحلق ناحية السماء تاركاً نغمات عذبة. حاول أن يراه ولكن سطوع لون السماء الأزرق غشى عينيه. ثم هبط الطائر ثانية وتوقف عن الغناء فأصبحت اليوتوبيا ساكنة عدا انبثاق ضحكة طفولية فى مكان ما أسفل التل.

اتضح للسيد (بارنستابل) كيف أن هواء اليوتوبيا هادئ مقارنة بجو الأرض المضطرب. فهنا لا يوجد عواء كلاب منزعجة. لا يوجد نهيق أو خوار أو صرخات أو صيحات ألم لحيوانات معذبة، لا يوجد صخب الحقول، لاصرخات غضب، لا نباح ولا سعال، لا أصوات طرقات، لا أصوات نشر أو طحن، لا توجد أصوات آلات ميكانيكية، لا أصوات صفير أو صراخ أو ما شابه. لا توجد جلبة القطارات، لا أصوات سيارات أو آلات أخرى سيئة الصنع، ولم تعد تسمع الضوضاء المرهقة والقبيحة لكثير من المخلوقات الكريهة كما

فوق الأرض. الأذن والعين فى اليوتوبيا ينعمان بسلام تام. الهواء الذى كان ملوثاً بالضوضاء أصبح الآن ساكناً تماماً. الأصوات التى نسمعها فى هذا السكون تبدو وكأنها نقش جميل على صفحة بيضاء.

عادت عينا السيد (بارنستابل) لمنظر الطبيعة بالأسفل، وبمجرد أن ذابت آخر ذرات الضباب بدت صهاريج المياه والطرق والجسور والمبانى والسدود وصفوف الأشجار والبساتين والحدائق والقنوات والشلالات وينابيع المياه جلية، وكأنها منحوتة تحت فرع شجرة بيضاء الساق لها أوراق داكنة متشبثة بالصخور بقوة.

"منذ ثلاثة آلاف سنة كان عالمنا كهذا.. فكر بها – خلال مائة جيل. ثلاثة آلاف سنة وربما نحول عالمنا المتهالك، الغابة والصحراء، كومة الحطام إلى جنة من الجمال والقوة كهذه..".

"العوالم كلها متشابهة ولكنها ليست متماثلة..".

"لو أستطيع أن أخبرهم بما رأيت!".

"وبفرض أن كل الناس رأوا اليوتوبيا".

"لن يصدقوا لو أخبرتهم لا لن أخبرهم".

"لن يترددوا فى أن يطلقوا أصوات استهجانهم فى وجهى وينبحون كالكلاب! لن يكون لهم عالم إلا عالمهم. فالتفكير فى عالم

آخر قد يجرحهم. فبالنسبة لهم لم يكن في الإمكان أفضل مما كان، أن يفكروا بخلاف هذا قد يكون إذلال لهم. الموت، العذاب، العبث – كل شيء ممكن إلا الذل! لذلك؛ فالأحرى بهم أن يجلسوا بين العشب والقاذورات يحكون جلدهم ويومئون بعضهم لبعض فى مهابة. يتمنون قتالاً عنيفاً ليشعروا بالارتياح والسعادة للجهد والألم الذى لم يشاركوا فيه بالتأكيد ستتعفن أفكار الجنس البشرى هذه، لابد وأن تتعفن . فهذا العفن شيء محبب للغاية لهم. إذ لا جديد تحت الشمس.".

تحولت أفكاره إلى فتاتين فى سن الشباب آتيتين ركضاً واحدة تلو الأخرى على الدرج. واحدة منهما كانت أكثر اسمراراً من ظلمة أول الليل وكانت يداها مملوءتين بالورود الزرقاء. أما الأخرى التى كانت تلاحقها فكانت أصغر عاماً أو ما يقرب، ولكنها شقراء ذهبية الشعر. كانتا مملوءتين إثارة غير محدودة كالتى للحيوانات الصغيرة عندما تلعب. تباهت الفتاة الأولى على الأخرى بأنها اكتشفت مكان السيد (بارنستابل) وصاحت صيحة دهشة بعد أن وصلت إلى مكانه. حملقت فيه الفتاة بنظرة فاحصة تنم عن رغبة فى البحث عن الحقيقة. ثم صعدت الدرج بعدما ألقت بوردتين فى وجهه. أما رفيقتها فصعدت بجانبه مصممة على أسر أفكاره. رفرفتا على الدرج كفراشتين إحداهما صفراء برتقالية والأخرى وردية. ثم توقفتا بالأعلى واجتمعتا

لتتشاورا سريعاً فى أمر الغريب. ثم لوحتا له بأيديهما واختفتا. فرد السيد (بارنستابل) تحيتهما وظل فرحاً.

(٣)

كان المنظر الطبيعى الذى وجهت (ليكنيس) السيد (بارنستابل) إليه ممتداً على سلسلة الجبال بين الوادى الكبيرة، حيث أمضى هناك الأيام القليلة الماضية، وواد صغير منحدر مقفر يجرى تحته سيل من الماء ليصل بعد مئات الأميال من المنعطفات إلى النهر بالسهل. كانت الشرفة على قمة الجرف، مبنية على دعامات قوية لتبدو معلقة عمودية، على انحناءة فى سيل الماء بالأسفل. كان منظر الجبال وصورة النبات الأخضر أسفلها من ناحية، والمساحات الخضراء الممتدة كمنظر مثالى للطبيعة من الناحية الأخرى. تفحص السيد (بارنستابل) هذا الوادى الصغير، والذى يراه لأول مرة لبعض الوقت، كان العمق تحته يقدر بخمسمائة قدم أو ما يقرب.

اعتقد السيد (بارنستابل) أن كثيراً من الأشجار تحته لابد أن تكون أشجار فاكهة، ولكنها كانت بعيدة جداً ليجزم بذلك. ولكنه استطاع أن يميز ممراً يتلوى صاعداً بين الأشجار والصخور. كان هناك العديد من المقصورات الصغيرة بين الكتل الخضراء حيث يستطيع عابر السبيل أن يستريح ويجلس لاحتساء الشاى وتناول

البسكويت أو بعض الوجبات الخفيفة، أو ربما يجد مقعداً وكتاباً. كان يعرف أن هذا العالم بأسره ملىء بالمنازل الصيفية والملاجئ الآمنة.

عاد السيد (بارنستابل) إلى جانب مكان رؤيته الذى أتاه قبلاً، ونظر إلى الوادى الكبير الذى انتهى عند البحر، ثم خطرت كلمة "بينو"[1] فى خاطره لأن أرض الميعاد للرغبات الإنسانية كانت تحته بالفعل. فهنا أخيراً تأسس ورسخ السلام والقوة والصحة والنشاط السعيد وطول الأيام والجمال. كل ما نتمناه موجود هنا وكل حلم يتحقق فى هذا المكان ترى كم تطول المدة؟ كم قرناً أو ربما آلاف السنين قبل أن يستطيع الإنسان أن يقف على قمة الأرض وأن يرى الجنس البشرى منتصراً ويعيش فى سلام تام وإلى الأبد؟ حينئذ طوى السيد (بارنستابل) ذراعيه تحته تجاه سور الجدار الذى يقف عنده، وتأمل بعمق.

لا توجد معرفة فى اليوتوبيا هذه، لا يوجد أصلها على الأرض. ولا توجد قوة استخدمت هنا ولم يستخدمها الأرضيون. ولولا الجهل والظلام والحقد والمكر الذى تفشى فى عالمه، لكانت الأرض اليوم مثل اليوتوبيا.

---

(١) الجبل الذى يقع شرق بحر الأردن وشمال البحر الميت، ويرتفع ٨٠٠ متراً عن سطح البحر صعد إليه سيدنا موسى وشاهد لأول مرة "أرض الميعاد" (العهد القديم) (المترجم).

كان السيد (بارنستابل) يناضل طوال حياته للوصول إلى عالم كاليوتوبيا هذه. فلو أن تجربته نجحت ولو وجد نفسه حياً ثانية على الأرض، لوجه حياته تجاه عالم كاليوتوبيا ولن يكون بمفرده. فلابد أن هناك الآلاف أو عشرات الآلاف أو ربما مئات الآلاف على الأرض يناضلون بعقولهم وأفعالهم ليجدوا طريقاً للهرب من عصر الفوضى والإهانة لهم ولأطفالهم. مئات الآلاف الذين يريدون وضع نهاية للحروب والدمار، الذين يريدون الشفاء والتعليم والراحة، ويريدون رفع علم اليوتوبيا فوق الكذب والانقسامات التى تدمر الجنس البشرى.

"نعم، ولكننا فشلنا." قالها السيد (بارنستابل)، وهو يمشى مضطرباً ذهاباً وإياباً "عشرات بل مئات الآلاف من الرجال والنساء! ولم نحقق سوى القليل! ربما كان لدى كل شاب وكل شابة حلم، على الأقل لخدمة وتحسين العالم. ولكننا الآن مشتتون وضائعون، وانتصرت علينا الأشياء الفاسدة والتقاليد والأوهام والعادات والخيانات والأوضاع المتردية القائمة".

عاد السيد (بارنستابل) إلى السور ثانية، ووقف بقدميه فوق مقعد واضعاً مرفقيه على ركبتيه وذقنه فى يده، محملقاً فى جمال ذلك العالم الذى كان على وشك أن يتركه.. "نستطيع أن نفعلها".

تولد فجأة فى السيد (بارنستابل) شعور أنه ينتمى نفساً وجسداً إلى الثورة، الثورة العظمى التى ستندلع على الأرض، والتى ستستمر ولن تتوقف أو تهدأ حتى يتحول كوكب الأرض إلى مدينة واحدة وتنشأ اليوتوبيا هناك، فهو يعرف تماماً أن هذه الثورة ستكون بمثابة الحياة، وأن أى شىء آخر سيكون مثل الموت..

عندما لاحت له هذه الفكرة، عرف وقتها أنها ستلوح أيضاً للجمع الغفير من مئات الآلاف من الرجال والنساء على الأرض الذين وجهوا عقولهم تجاه اليوتوبيا.

وقف السيد (بارنستابل) وابتدأ يتمشى ذهاباً وإياباً قائلاً: "سنفعلها".

إن الفكر الأرضى وإمكانيات الجنس البشرى لم تصل حتى الآن لمناقشة مهمة. سخط مجتمع وثورة ضد الحدود التى وضعت للحياة، احتجاج غير ذكى لخيالات عنيدة. فكل الصراعات والتمردات المسلحة والثورات التى شهدتها الأرض لم تكن سوى مقدمة باهتة للثورة الآتية.

عندما ابتدأ السيد (بارنستابل) إجازته الرائعة، أدرك أنه يمر بحالة من الإحباط، فكل الشئون الأرضية بدت له مشوشة وبدون أمل. ولكن الآن، ومن خلال وجهة النظر التى حققها عن اليوتوبيا

مع تجدد صحته، كان قادراً أن يرى ببساطة كيف أن الإنسان على الأرض يشعر بحالات فشل متعاقبة عندما يحاول القيام بالهجوم الواسع لتحقيق الثورة الأخيرة. استطاع أن يرى كيف يناضل الإنسان فى حياته الخاصة للخروج من فخ الأكاذيب فيما يتعلق باحترام الذات العام وصفاء الذهن والبدن. إنهم يكافحون الآن للخير العالمى ولتحرير حياتهم الاقتصادية المشتركة، من شبكة الادعاءات والغش والدجل. فهناك خلط فى النضالات كلها، وهناك خلط بين التراجع والهزيمة. ولكن الذى رآه فى اليوتوبيا الهادئة، كان خطوة من الخطوات الثابتة نحو الأمام.

كانت الثورة مضطربة ولها عوائق لأن القوى مازالت تعمل فى ظلام الليل. كان المجهود العظيم والإخفاق الكبير للاشتراكيين لخلق حالة جديدة فى العالم معاصراً لحياة السيد (بارنستابل) فقد كانت الاشتراكية بمثابة عقيدته فى الطفولة. فقد شارك فى آمالها وشكوكها وصراعاتها الداخلية المرة. رآها تفقد جمالها وتجمع القوة فى ضيق أفق المذهب الماركسى. رآها تضحى بقوتها البناءة فى سبيل قوتها العسكرية. وفى روسيا، وقد لاحظ قدرتها على التدمير وعجزها عن التخطيط أو البناء. ومثل أى ليبرالى فى العالم فقد شاهد

وقاحة "البلشفية"[١] وفشلها. بدا له لبعض الوقت أن الافتقار لقوة خلاقة دافعة كان انتصاراً لرد الفعل، لا أكثر ولا أقل، لدرجة أنه أعطى حياة جديدة للكذب والدجل والفساد والفوضى المعتادة والسلطة التى قيدت وأصابت الحياة الإنسانية بالشلل، ولكنه رأى بوضوح من هذا المكان المرتفع فى اليوتوبيا لهب طائر (العنقاء)[٢] الثورة الذى تحول إلى رماد ليولد من جديد. وبينما أحكمت الحلقة حول رقبة المعلم جلس الشباب ليقرأوا تعاليمه. إن الثورات تشتعل وتخمد ولكن الثورة العظمى ستأتى متواصلة لا محالة.

كان الوقت قريباً. هو نفسه كان يساعد فى تقريب الوقت، بسبب ما أصبحت عليه حياته عندما بدأت قوى الثورة الأخيرة. والحقيقة تعمل فى النور وليس فى الظلام. وعندما أصبح الآلاف من الرجال والنساء الآن مبعدين، وربما تؤدى زيادة رغبتهم فى رؤية عامة للعالم المنشود، إلى عداء غير منظم ومتبادل. لقد أضاع الفكر الماركسى قوى الثورة لخمسين عاماً. فلم يكن لديه رؤية مستقبلية كل ما كان لديه، إدانة للأشياء القائمة فقط. فبسبب عاطفته الجياشة لكل

(١) مذهب المجموعة اليسارية فى حزب العمال الديمقراطى الاشتراكى الروسى، التى استولت على الحكم فى نوفمبر ١٩١٧ (المترجم).

(٢) طائر خرافى زعمت الأساطير أنه يعمر لعدة قرون وبعد أن يحرق نفسه ينبعث من رماده من جديد (المترجم).

ما هو علمى قد أقصى كل الرجال القادرين والعلميين. لقد روّعهم بمعتقده غير المتسامح، وهمه بأن كل الأفكار خاضعة للظروف المادية، مما جعله يهمل التعليم والنقد. لقد حاول بناء وحدة اجتماعية على الكراهية، ورفض كل القوى الأخرى بسبب مرارة الحرب الطبقية. ولكن الآن وفى أيام الشك والاستنزاف للماركسية، فإن الأنظار قد عادت إلى الاشتراكية، والمشاهد الجريئة لاستيلاء طبقة العمال على السلطة السياسية قد فتحت الطريق ثانية لطلب عالم كاليوتوبيا. عالم عادل صالح للسلام. عالم كل موارده مسخرة ومستغلة للصالح العام. كل مواطن فيه محرر ليس فقط من العبودية بل من الجهل أيضاً. عالم توجه فيه كل طاقة فائضة بثبات نحو زيادة المعرفة والجمال. إن تحقيق هذه الرؤية بعقول أكثر وأكثر لم يعد ممنوعاً. فمن الممكن أن يتخذ كوكب الأرض الطريق ذاتها الذى وطأته اليوتوبيا. من الممكن أيضاً أن ينسج القانون والواجب والتعليم بطريقة أكثر عقلانية مما عرفها الإنسان من قبل. ربما على الإنسان أيضاً أن يسخر الآن من الأشياء التى كان يخافها، ويمحو كل الخرافات التى كانت ترهبه ويزيل السخافات التى عذبته وشلت حياته. وبمجرد أن تتحقق هذه الثورة العظمى، وتساق الأرض إلى النور؛ فإن هموم الإنسان وتعاسته سترفع عنه، وستطرد الشجاعة الخوف من قلوب البشر. إن الأرض لم تعد الآن سوى قفر، أحياناً

كريهة أو على أفضل تصوير مزينة بأعشاب شائكة لا تصلح كطعام، بها أكواخ وأحياء فقيرة وكومات من النفايات، من الممكن أيضاً أن تزدهر وتصبح كجمال اليوتوبيا. ومن الممكن أيضاً للأرضيين أن يطهروا من الأمراض. وأن يصفوا ذهنهم وأن يصبحوا أشد قوة وأكثر جمالاً. ومن الممكن أن تمتد منحدراتها المحروثة والمضاءة بنور الشمس بفخر فى كوكبهم المقهور، وأن تحمل جرأتهم إلى النجوم. "لو يبدون الإرادة، فقط لو يبدونها.".

(٤)

أتى صوت جرس عذب يدق الساعة من مكان بعيد. كان وقت الخدمة التى كرس السيد (بارنستابل) لها ذاته قد اقترب. لابد وأن ينزل الآن ليؤخذ إلى مكان التجربة.

ألقى السيد (بارنستابل) نظرة الوداع على الوادى الصغير، ثم عاد إلى المنظر المتسع للوادى الكبير ببحيراته وخزاناته وشرفاته، بساتينه ومقصوراته ومبانيه المزدحمة. "وداعاً أيتها اليوتوبيا". قالها دهشاً من اكتشاف عمق مشاعره.

:"وداعاً، حلم الأمل والجمال العزيز!".

وظل واقفاً فى حالة من الحرمان العميق لدرجة أنه كاد أن يذرف الدموع.

بدا له هذا الإحساس كأن روح اليوتوبيا هبطت عليه واحتضنته كإلهة ودودة ومثيرة للإعجاب يصعب الحصول عليها. وتوقف تفكيره تماماً.

ثم بدأ يهبط الدرجات الملتفة من الشرفة حتى الأرض. ولاحظ بعض الأشياء التى علقت به ولكن عطر الورود شد انتباهه. ثم وجد نفسه ماشياً فى طريق مكسو بالورود البيضاء ومليئاً بطيور خضراء صغيرة. توقف قليلاً وأخذ ينظر إلى الأوراق المشبعة بالضوء تحت السماء. وشد واحدة من الثمرات بيده ورفعها حتى لمست خده.

(٥)

عاد السيد (بارنستابل) بالطائرة إلى الطريق الزجاجى، حيث أتى إلى اليوتوبيا لأول مرة. أتت معه (ليكنيس) و(كريستال) الذى كان شغوفاً ليرى ما سيحدث.

كان فى انتظاره مجموعة من عشرين أو ثلاثين شخصاً من بينهم (سان جولد)، وجد مبانى جديدة مكان مختبر (آردن)

و(جرينليك) المخرّب، وكانت هناك مبان إضافية إلى الجانب الآخر من الطريق ولكن السيد (بارنستابل) استطاع أن يتعرف على المكان، حيث واجه السيد (كاتسكيل) النمر، حيث دنا منه السيد (بورليه) ليخاطبه. كان العديد من أنواع الأزهار الجديدة قد تفتح ولكن الزهرة الزرقاء التى سحرته عند وصوله مازالت تؤسره. سيارته القديمة الصفراء، التى بدت له كقطعة من الحديد غير المصقول تسد الطريق. ذهب ليتفحصها فوجدها جاهزة، مشحمة باعتناء، وخزان الوقود كان ممتلئاً.

كانت حقيبته وملابسه الأرضية داخل مقصورة صغيرة، وكانت الملابس نظيفة ومطوية مضغوطة وموضوعة فوق بعضها البعض. بدا قميصه ضيقاً عند صدره، أما ياقته فكانت ضيقة بلا شك، في حين تمزق معطفه بعض الشيء تحت الذراعين، فربما تكون هذه الملابس قد انكمشت عندما عقمت. أخذ (كريستال) الحقيبة بعدما أحضرها السيد (بارنستابل) ووضعها فى السيارة.

شرح (سان جولد) ببساطة للسيد (بارنستابل) كل ما يجب فعله. وعبر الطريق بالقرب من المختبر المرمم امتد خط رفيع كخيوط العنكبوت. وعندها قال له: "أدر سيارتك لهذا الخط وأوقفها. فهذا كل ما عليك فعله. خذ هذه الوردة الحمراء وضعها تماماً عندما تظهر لك آثار عجلاتك، حينئذ تكون قد دخلت عالمك الخاص..".

رجع اليوتوبيون إلى الوراء مسافة عشرين أو ثلاثين ياردة تاركين السيد (بارنستابل) بجانب السيارة، وقفوا بشكل دائرى على مقربة منه. للحظات ظلوا ساكنين تماماً.

(٦)

استقل السيد (بارنستابل) السيارة وأدار محركها وتركه يهتز لدقيقة، ثم وضع قدمه على دواسة القابض[١] فبدأت السيارة تتحرك تجاه الخط الرفيع. ولوح السيد (بارنستابل) بيده فأجابته (ليكنيس). و(سان جولد) وآخرون من اليوتوبيين أشاروا بأيديهم ولكن (كريستال) كان يراقب بتركيز مستعداً لأية اشارة.

صاح السيد (بارنستابل) "وداعاً (كريستال)" وأجابه الولد بحركة تدل على أنه فوجئ.

قبض السيد (بارنستابل) على قابض السرعة ضاغطاً على أسنانه، وبالرغم من رغبته فى إبقاء عينيه مفتوحتين إلا أنه أغلقهما بمجرد أن لمست السيارة الخط الرفيع. أتاه نفس الإحساس المتوتر غير المحتمل ثانية، والذى تبدو حدته مثل وتر القوس المشدود. كان

---

(١) جهاز تعشيق التروس (المترجم).

لديه دافع لا يقاوم للوقوف والرجوع ثانية، فرفع قدمه من على قابض السرعة فتوقفت السيارة تماماً بعد مسافة قدم أو ما يقرب، واندفع فجأة ناحية عجلة القيادة. عندها أحس بأن الهم انزاح عنه، ثم فتح عينيه ليتفحص نفسه.

توقفت السيارة فى حقل بقيت فيه آثار القش، ثم انحدر السيد (بارنستابل) بسيارته. وكان هناك سياج من الشجيرات له بوابة سوداء مفتوحة يفصل حقل القش عن الطريق. وكانت إعلانات فندق. "ميدن هيد" قريبة منه. وكان هناك بعض الحقول المنبسطة أمام بعض التلال المليئة بالغابات على الجانب الآخر. وإلى اليسار بعيداً كان هناك منزل صغير. حول رأسه فرأى "قلعة ويندسور" تبدو بعيداً فوق مروج مرصعة بخشب الحور. لم تكن هذه هى النقطة المناسبة للمغادرة من أرضنا كما وعده اليوتوبيون، ولكنها كانت على بعد أقل من مائة ياردة.

جلس السيد (بارنستابل) بعض اللحظات مستعيداً ذاكرته ما عليه فعله، ثم أدار محرك سيارته الصغيرة الصفراء وقادها مقترباً من البوابة السوداء.

خرج السيد (بارنستابل) من السيارة ممسكاً الوردة الحمراء فى يده. وكان عليه أن يعود لنفس النقطة التى كان قد دخل منها إلى هذا

العالم وأن يضع الوردة هناك. كان سهلاً بالنسبة له أن يحدد هذه النقطة عن طريق أثر السيارة على ما تبقى من الزرع، ولكنه أحس برفض غير معتاد لاتباع هذه التعليمات. فكان يريد أن يحتفظ بتلك الوردة إذ كانت الشيء الأخير والوحيد الذى يملكه من العالم الذهبى .. اليوتوبيا.

كان شيئاً غريباً أنه لم يحضر سوى تلك الوردة معه. فلماذا لم يحضر الكثير من الورود؟ ولماذا لم يعطوه شيئاً، لا شيء على الاطلاق، من ثروة الجمال التى لهم؟ كان يريد بشدة أن يحتفظ بتلك الوردة. ذهب ليستعيض عن الوردة بشيء من رحيق الأزهار فى سياج الشجيرات القريب منه. ولكنه تذكر وقتها أنه قد يكون ملوثاً. لابد أن يفعل ماأخبر به فرجع على أثر عجلات السيارة حتى وصل إلى المقدمة، ووقف متردداً للحظة ثم قطع ورقة واحدة من هذه الزهرة الحمراء المتوهجة ووضعها فى جيبه ووضع باقى الزهرة بحذر فى مكان آثار عجلات سيارته. وعاد إلى سيارته منقبض الصدر ووقف بجانبها يشاهد هذا اللمعان الأحمر البراق.

كان انفعاله عظيماً وحزنه كان مراً لمغادرته اليوتوبيا.

كان واضحاً أن الجفاف مازال قائماً.. هذا هو الحقل والشجيرات كانت جافة وبنية اللون أكثر من أى حقل إنجليزى، كان

قد رآه فيما قبل. كانت هناك سحابة رقيقة من الغبار المنبعث من السيارات على طول الطريق. بدا العالم القديم مليئاً بالمناظر الكريهة بالنسبة له. كان قد نسى تقريباً أصوات السيارات وجلبة القطارات والعطش والأصوات والروائح. كانت هناك بقرة تخور، وهبت رائحة القار الشديد الحرارة والغبار فكتمت أنفاسه. كان السلك الشائك على سياج الشجيرات يعلو قمة البوابة السوداء، وكان روث الخيل وقصاصات الورق قد علقت بقدميه. وانكمش العالم الجميل الذى سيق منه إلى مكان قبيح.

ثم حدث شىء بسرعة كما لو أن يداً ظهرت للحظة وأخذت الوردة واختفت، ثم ظهرت دوامة صغيرة من الغبار ودارت إلى أن اختفت.. وكانت النهاية.

كان السيد (بارنستابل) يفكر فى المارة فانحنى وكأنه يريد إخفاء وجهه منهم. لم يستطع تمالك نفسه لدقائق. وانحنى تجاه غطاء محرك السيارة البنى الرث مخفياً وجهه بذراعه. وأخيراً انتهت ثورة الحزن هذه، واستطاع أن يواصل سيره ثانية فأدار محرك السيارة وتوجه إلى الطريق الرئيسى.

اتجه السيد (بارنستابل) شرقاً تاركاً البوابة السوداء مفتوحة خلفه. تقدم ببطء شديد. فحتى ذلك الوقت لم يكن يدرى أى وجهة

يقصد. أخذ يفكر فى أنه ربما كانوا يبحثون عنه كشخص اختفى فى غموض. من الممكن أن يتعرف عليه شخص ما وسيكون محور الكثير من الأسئلة المستحيلة. وهذا سيكون متعباً جداً ولن يستهويه. لم يفكر فى هذا الموقف فى اليوتوبيا، فقد اعتقد أنه من الممكن أن يعود إلى الأرض دون أن يشعر به أحد. ولكن هذه الثقة بدت الآن مجرد سذاجة على الأرض.

رأى السيد (بارنستابل) أمامه طاولة فى صالة متواضعة لتقديم الشاى، وخطر فى باله أن ينزل من السيارة ويتصفح جريدة ما وراح يتساءل عما حدث لهذا العالم وهل شعر أحد بغيابه؟!

وجد مائدة لتناول الشاى تحت النافذة. وفى منتصف الغرفة وجد مائدة أكبر تحمل زهرية خضراء لنبات (الدُريقة)[1] ومجموعة من الصحف القديمة ولكن كانت هناك أيضاً نسخة من جريدة "دايلى إكسبريس" لذلك اليوم.

استطاع أن يوقف رغبته لقراءة الجريدة خوفاً من أن يجدها مليئة بأخبار عن الاختفاء الغامض للسيد (بورليه) واللورد

---

(١) نبات من الفصيلة الزنبقية يستخدم للزينة له أوراق دائمة الخضرة وزهوره جرسية الشكل (المترجم).

(بارالونجا) والسيد (روبرت كاتسكيل) والسيد (هنكر) والأب (إميرتون) والليدى (ستيلا)..

وبمجرد أن فتح الجريدة زال قلقه تدريجياً حيث لم يجد ما يخشاه. ولكنه اعترض على نفسه متشبثاً بفكرته : "من المؤكد أن أصدقاءهم افتقدوهم".

قرأ الجريدة فوجد أن هناك ذكراً لاسم لم يكن يتوقع أن يراه، كان اسم السيد (فريدى موش). لم يمنح السيد (جراسفل جلوس) جائزة الأميرة (دى مادونا فراسكانى) للأدب الإنجليزى لأحد نظراً لغياب السيد (فريدى موش) المحتوم بالخارج.

إن عدم وجود أى ذكر أو نداء للآخرين فتح مجالاً كبيراً للتأمل الذى استغرق فيه السيد (بارنستابل)، فتذكر الوردة الحمراء الزاهية بين الحشائش فى الحقل وتذكر أيضاً اليد التى أخذتها. وبذلك أغلقت النافذة الرائعة التى تفصل بين العالم الغريب والجميل وبين عالمنا.

استولى العجب على السيد (بارنستابل)، فعالم الصحة والأمانة هذا كان خارج حدود فضائنا، ولم يعد دخول هذا العالم ممكناً بعد الآن. وكما أُخبر لم يكن هذا العالم سوى واحد من العوالم التى لا تحصى والتى تتحرك معا. وكل هذا لم يكن شيئاً بالنسبة للأنظمة

والأبعاد التى تحيط به. كان واحدًا من اليوتوبيين قد أخبره: "لو أستطيع أن ألف ذراعى حول هذا العالم لقسمته إلى ألف عالم...".

ثم قطعت تفكيره إحدى النادلات تجلب له الشاى الذى طلبه، ومن ثم ذكرته بالأمور الدنيوية لكوكب الأرض.

كانت الوجبة التى قدمت له عديمة الطعم وغير نظيفة، ولكنه أكل ملء فمه بصعوبة، ثم تناول شاياً لم يرق له.

وتصادف أن وضع يده فى جيبه فلمس شيئاً ناعماً، ثم جذب الورقة التى قطعها من الوردة الحمراء، وبمجرد أن رفع الورقة فى هواء الغرفة الفاسد فقدت لونها الأحمر اللامع ثم التوت وذبلت وصارت سوداء. وتحولت رائحتها الزكية إلى رائحة مثيرة للغثيان.

"واضح.. كان يجب أن أتوقع هذا." هذا ما قاله.

أسقط السيد (بارنستابل) قطعة العفن هذه من طبقه. ثم التقطها ودفنها فى طين زهرية نبات (الدريقة).

ثم أخذ جريدة "دايلى إكسبريس" وأخذ يقلب فيها محاولاً أن يستعيد الاحساس بشئون هذا العالم.

(٧)

استغرق السيد (بارنستابل) فى تأمل الجريدة فى غرفة الشاى فى "كولنبروك"، شرد فى أفكاره لدرجة أن الجريدة سقطت من يده دون أن ينتبه. ثم تنهد وطلب الفاتورة. وعند الدفع علم أن حافظة نقوده مازالت مليئة بالجنيهات:"إنها أرخص إجازة أمضيتها على الإطلاق.. لم أصرف أية نقود بالمرة." هكذا فكر ثم توجه لمكتب البريد حيث كان عليه أن يبعث ببرقية.

بعدها بساعتين توقف خارج بوابة فيلته فى "سيدنهام" ثم فتح البوابة – كانت العصا التى اعتاد أن يفتح بها البوابة فى مكانها – وأدار السيارة الصفراء ببراعة ناحية مكان الأزهار حتى وصل إلى باب المسكن. ثم ظهرت السيدة (بارنستابل) فى الرواق.

:"وليم! أخيراً عدت؟".

:"نعم! هل استلمت برقيتى؟".

:"منذ عشر دقائق. أين كنت كل هذه المدة؟ لقد تغيبت أكثر من شهر.".

:"كنت أتجول وأحلم. لقد أمضيت وقتاً رائعاً".

:"وليم! كان عليك أن تكتب لى – كان يجب عليك هذا...".

:"لم أرد إزعاجك. لقد قال الطبيب ألا أزعجك. هل هناك بعض الشاى؟ أين الأولاد؟".

:"إن الأولاد بالخارج. دعنى أعد لك شاياً طازجاً.".

وبالفعل أعدت الشاى وجلست فى مواجهته على الكرسى الخشبى أمام مائدة الشاى قائلة:

:"إننى سعيدة لعودتك.. بالرغم من أننى أستطيع لومك.. إنك تبدو رائعاً.. لم أر بشرتك صافية وبنية كاليوم".

:"لقد كنت أتمتع بالهواء النقى طوال الوقت".

:"هل ذهبت إلى البحيرات".

:"ليس تماماً.. ولكن الهواء كان حسناً وصحياً فى كل مكان".

:"ألم تضل الطريق؟".

:"أبداً".

:"لقد اعتقد أنك تهت أو فقدت ذاكرتك. ألم يحدث؟".

:"إن ذاكرتى بخير".

:"ولكن أين ذهبت"؟.

:"لقد تجولت وحلمت. لقد تهت فى أحلام اليقظة. لم أسأل قط عن اسم المكان الذى كنت فيه. فلقد تنقلت بين أماكن كثيرة ولكننى لم أسأل أبداً عن أسمائها. تركت عقلى فى راحة تامة. استرحت من كل شئ. كانت راحة عظيمة. كنت قليلاً ما أعير اهتماماً بالسياسة أو المال أو المشاكل الاجتماعية، أو أى شىء آخر. منذ أن بدأت.. أهذه جريدة "ليبرال" الأسبوعية؟".

أخذها وبدأ يقرأ ثم رماها على الأريكة قائلاً:"(بيف) العجوز المسكين" فعلاً كان علىّ أن أترك هذه الجريدة. إنه كورق حائط على حائط رطب. ملئ بالعيوب وله صوت حفيف ولا يلتصق بشئ، لقد أصابنى بروماتيزم عقلى.".

حملقت فيه السيدة (بارنستابل) بشك: "ولكنى كنت أعتقد أن العمل فى "الليبرال" وظيفة آمنة".

"لم أعد أرد وظيفة آمنة الآن.. أستطيع أن أعمل أفضل. هناك عمل آخر أمامى لا تقلقى. أستطيع أن أملك زمام الأمور بعد هذه الراحة. كيف حال الأولاد؟".

:"إننى قلقة على فرانكى.".

التقط السيد (بارنستابل) جريدة "التايمز" ولحظت عينه عنواناً غريباً فى عمود بريد القراء. كان عنوانه "إن غيابك يا سيسيل كان

مفاجئاً.نريد أن نعرف ماذا تريدين أن نخبر الناس. اكتبى عنوانك فى اسكتلندا".

:"أستميحك عذراً يا سيدتى"؟ قالها واضعاً الجريدة جانباً.

:"كنت أقول يبدو أنه غير مستقر فى عمله. إنه لا يحبه. أتمنى أن تتحدث معه. إنه يثور لأنه لا يعرف القدر الكافى. يقول: إنه يريد أن يكون طالبًا فى (البوليتكنيك)(١) وأن يتعلم الأشياء العلمية".

:"حسناً.. إنه يستطيع. لم أعتقد أنه يملك هذه المهارة.. سأتكلم معه، وهذا سيقصر علىّ الطريق. بالتأكيد يستطيع أن يدرس العلوم".

"ولكن عليه أن يكسب عيشه".

"كل هذا سيحدث... إذا أراد دراسة العلوم فليفعل".

كانت نغمة السيد (بارنستابل) جديدة بالنسبة للسيدة (بارنستابل). كانت نغمة واثقة ذات قرار هادئ. فاجأتها النغمة وبالأكثر عندما كان يستخدمها دون أن يدرك هذا.

تناول قطعة من الخبز والزبد، وقد لاحظت أن الطعم لم يعجبه، وأن هناك شيئاً ما لم يرضه. ألقى نظرة سريعة على باقى شريحة الخبز والزبد فى يده قائلاً: "إنها حقاً زبدة لندن صلاحيتها

---

(١) كلية متعددة الفنون التقنية والعلوم التطبيقية (المترجم).

لثلاثة أيام ونتخلص منها. عجيب. حقاً أن يتغير مذاق الإنسان هكذا سريعاً".

ثم أخذ جريدة "التايمز" ثانية، وأخذ يمرر عينيه على أعمدتها.

"إنه حقاً عالم طفولى.. عالم طفولى للغاية.. مكائد بلشفية خيالية.. تصريحات "شين فين"[١].. الأمير.. بولندا.. أكاذيب واضحة عن الصينيين.. أكاذيب واضحة عن مصر. الناس يخدعون "ويكهام ستيد"[٢].. مقالات عن أحد الثالوث[٣]. جريمة قتل فى "هيتشن"[٤] إنها حقاً مقززة.. - رياضة كئيبة - ركوب الزوارق، التنس، كريكيت أطفال المدارس.. إن هذه الأشياء عديمة الأهمية! يا لحماقتها! تبدو كالعودة إلى صراعات العبيد وثرثرة الأطفال.".

رأى السيدة (بارنستابل) تحدق فيه عن قصد. فبرر لها موقفه قائلاً: إنه لم ير جريدة منذ اليوم الذى بدأ فيه رحلته حتى ذلك الصباح.

---

(١) حزب سياسى أيرلندى يهدف إلى انهاء حكم بريطانيا لأيرلندا الشمالية (المترجم).
(٢) (١٨٧١ - ١٩٥٦) صحفى بريطانى ومؤرخ، أحد الذين حذروا من أطماع "أدولف هتلر" الزعيم النازى (المترجم).
(٣) عيد الثالوث المقدس، الأحد الثامن بعد الفصح (عيد مسيحى) (المترجم).
(٤) مدينة بريطانية فى منطقة "هيرتفورد شاير" شرق إنجلترا (المترجم).

وضع السيد (بارنستابل) الجريدة جانباً ووقف. شكت السيدة (بارنستابل) أنها ضحية لهلوسة سخيفة، ولكنها أدركت وقتها أنها أمام حقيقة مذهلة لم تلحظها من قبل.

قالت: "نعم. إنها كذلك.. لا تتحرك. ابق هكذا. أعلم أن هذا يبدو سخيفاً يا وليم ولكن طولك قد ازداد. أليس غريباً عليّ إن انحناءتك قد ذهبت. لقد كبرت – نعم – بوصتين أو ثلاثاً".

حملق السيد (بارنستابل) فيها ومد ذراعه ليظهر لها بالتأكيد طولاً غير عادى فى المعصم. حاول أن يحسم ما إن كان سرواله قد كبر أيضاً بشكل ملحوظ.

تقدمت إليه السيدة (بارنستابل) باحترام. وقفت بجانبه واضعة كتفها تجاه ذراعه قائلة: "لقد كان كتفك فى مستوى كتفى. انظر كيف أصبحنا الآن!".

نظرت فى عينيه كما لو أنها كانت حقاً سعيدة لعودته.. ولكن السيد (بارنستابل) ظل مستغرقاً فى التفكير. لابد أنه نقاء الجو الشديد.. لابد أنى كنت فى جو رائع.. هل طالت قامتى.. رائع.. فجأة؟ أشعر وكأنى قد كبرت.. شكلاً وشعورا.. عقلاً وجسما.

أخذت السيدة (بارنستابل) أكواب الشاى.

"يبدو أنك تجنبت المدن الكبيرة".

"بالفعل".

"وجلت بطرق الريف وأزقته".

"حقاً. كان مدينة جديدة بالنسبة لى – جميلة – رائعة.".

ظلت زوجته تراقبة.

"لابد أن أذهب هناك يوماً.. إنها قد جعلتك ممتلئاً بالصحة والعافية".

المؤلف فى سطور :

هـ . ج ويلز (١٨٦٦ – ١٩٤٩)

• ولد (ويلز) فى (برروملى) بمقاطعة (كنت) بإنجلترا .

• عمل بالتدريس والصحافة .

• يعد من الرواد الحقيقيين لأدب الخيال العلمى، كما أنه كاتب ذو مواهب متعددة، تكاد تتنافس مع بعضها البعض، فهو مؤلف لقصص الخيال العلمى وروائى اجتماعى وإنسان مجادل قوى الحجة، وشخص يجيد التنبؤ بالمستقبل والتحذير من العوائق المحتملة كما أنه مؤرخ للبشرية .

• من أشهر رواياته (آلة الزمن) عام ١٨٩٥، (جزيرة د.مورو) عام ١٨٩٦ و(الرجل الخفى) عام ١٨٩٧ و(حرب العوالم) عام ١٨٩٨ و(أول بشر على القمر) عام ١٩٠١ . وكان تأثير الكتب فوريا، إذ سرعان ما حصل على التهنئة والثناء كمفكر عبقرى. وتعكس معظم هذه الروايات آراء (ويلز) فى الثورة العلمية والتصدى للنفاق الاجتماعى والبحث عن العدالة الاجتماعية .

• تحولت أفكار (ويلز) إلى الجوانب الاجتماعية والسياسية فى الحياة، واتضح ذلك فى سلسلة كتبه الطويلة، التى بدأت بكتاب

(توقعات) عام ١٩٠١ و(اكتشاف المستقبل) عام ١٩٣٢ و(مدينة فاضلة حديثة). ونجده فى هذه الكتب – إلى جانب تصويره المبدع للمتقبل – يضمنها بعض النبوءات الاجتماعية ووجهة نظره الشاملة المريدة للمجتمع الإنجليزى فى ذلك الوقت .

• وبعد عام ١٩٠١، كانت وسيلة (ويلز) الرئيسية هى "رواية الأفكار"، وهى خلاصة من رواية شبه سيرة ذاتية والظروف المتغيرة للعلاقات بين الرجل والمرأة. وتعد (مكيافللى الجديد) أول رواية له والأفضل فى هذا المجال، تليها فى الشهرة (السيد بريتلنج ثاقب البصر) التى نشرت فى ذروة الحرب العالمية الأولى وابتكر (ويلز) شعار "الحرب التى سوف تنهى الحرب" وأصبح مهتمًا للغاية بصنع السلام، وإنشاء سلطة عالمية لتجنب الصراعات المستقبلية بين الدول . وعندئذ عاد ببساطة إلى دور المعلم والمربى، وكتب سلسلة من الكتب التعليمية الموسوعية، حيث بدأها بكتاب (ملخص تاريخ العالم) الذى يعد من أشهر كتبه. وبصدور هذا الكتاب وصل (ويلز) إلى قمة شهرته ومجده .

المترجم فى سطور :

رءوف وصفى صبحى

- ولد فى القاهرة .
- عمل بالتدريس بجامعات مصر والعراق والكويت .
- نال جائزة تبسيط العلوم – أكاديمية البحث العلمى والتكنولوجيا .

وجائزة الثقافة العلمية – أكاديمية البحث العلمى والتكنولوجيا .

وجائزة مؤسسة هانز زايدل الألمانية .

- عضو اتحاد الكتاب .
- عضو لجنة الثقافة العلمية – المجلس الأعلى للثقافة .
- ترجم العديد من الكتب العلمية، وفى مجال الخيال العلمى منها :

"الروبوت" و"الحاسب الآلى" و"كوكب الأرض" و"مذنب هالى (مؤسسة الكويت للتقدم العلمى) ومسرحيات من الخيال العلمى (وزارة الإعلام – الكويت) . وقام بترجمة كتاب "ثلاث رؤى للمستقبل"، و"حرب العوالم" و"الرجل الخفى" للمركز القومى للترجمة. كذلك ترجمة مقالات علمية بمجلة الثقافة العالمية .

• شارك فى العديد من الندوات منها "ندوة الخيال العلمى" وقام بإعداد البرنامج التليفزيونى "سؤال جواب" وتقديمة بتلفزيون الكويت، و"الخيال العلمى" (إذاعة الكويت) .

• نشرت مقالاته وقصصه فى عـدد كبيـر مـن الـصحف والمجلات العربية، منها جريدة الأهرام وجريدة الأخبار ومجلة العلم (مصر)، ومجلة العربى الكويتية ومجلة "التقـدم العلمـى" مؤسـسة الكويت للتقدم العلمى، ومجلة "دبى الثقافية" الإمارات.

• أحد رواد أدب الخيال العلمى والثقافة العلمية بالوطن العربى.

• المنسق العام لرابطة كتاب الخيال العلمى العرب .

• حاصل على شهادة تقدير من نقابة العلميين .

التصحيح اللغوى : محمد الشربينى
الإشراف الفنى : حسن كامل

بشر كالأرباب رواية رومانسية نشرها ويلز عام **1923** وكان الجو الظاهر فيها هو المثالية البسيطة؛ إذ تصف الرواية زيارة غير متوقعة يقوم بها مجموعة من الرجال والنساء إلى جنة يوتوبية فى كوكب آخر.

وهى محاكاة أدبية ساخرة، بطلها الرئيسى (ألفريد بارنستايل) هو مجرد شخص مجهد من كثرة العمل وفى أمس الحاجة إلى إجازة لكى يرتاح فيها ويستجم، وفى الطريق تنزلق سيارته ويفقد الوعى.

وعندما يثوب إلى رشده، نجده محاطًا بمشاهد جميلة لا علاقة لها بالبيئة السابقة التى كان يعيش فيها، لدرجة أنه يدرك أنه لم يعد يعيش على كوكب الأرض الذى يعرفه ثم يدرك أنه فى كوكب آخر "اليوتوبيا"؛ حيث يقضى بضعة أسابيع بها متجولاً بين الناس والمؤسسات اليوتوبية مندهشًا من كل شىء يراه ثم يتعرض لمغامرات مذهلة ومثيرة مع اليوتوبيين.

وفى نهاية الرواية يعود (بارنستايل) – بطريقة عجيبة – الأرض وإلى زوجته وأولاده ولكن باعتباره رجلاً عاقلاً

تصميم الغلاف: نادية [illegible]
التصميم الأساسى للسلسلة: عبد الحكيم صالح